مباحث اجنبية في تاريخ لبنان

رحلة في لبنان

في الثلث الأول من القرن التاسع عشر

مزينة برسوم يدوية من الطبيعة و الآثار اللبنانية

اختار فصولها وعربها عن الانكليزية

رئيف خوري

من كتاب

سوريا والارض المقدسة وآسيا الصغرى، الخ، الخ...

تأليف

جون كارن

منشورات دار المكشوف

مباحث أجنبية في تاريخ لبنان

رحلة في لبنان

في الثلث الأول من القرن التاسع عشر

مزينة برسوم يدوية من الطبيعة والآثار اللبنانية

اختار فصولها وعربها عن الانكليزية

رئيف خوري

من كتاب

سوريا والارض المقدسة وآسيا الصغرى، الخ، الخ...

تأليف

جون كارن

منشورات دار المكشوف

الطبعة الثانية ، بيروت – لبنان ، كانون الاول ١٩٤٨

مقدمة

هذا الكتاب، في اصله الانكليزي الكامل، يتجاوز لبنان ليدور بسطوره ورسومه على هذه البقاع الاناضولية والسورية واللبنانية والفلسطينية كلها [1]. وهو يرجع القهقرى في تاريخ هذه البقاع، الى قرن ونحو ربع القرن – اعني الى ما قبل الحملة المصرية ايام محمد علي وولده ابراهيم السنة ١٨٣١ [2]. وكأن سطوره ورسومه المنقولة نقلاً فنياً عن امجاد الطبيعة وآثار الانسان في هذه البقاع تزيح، في الخيال، سدولاً عتيقة علاها الغبار لتنبسط من وراء هذه السدول مسارح للحياة في ذلك الزمان النائي، في هذه البقاع التي هي بقاعنا خاصة او قريبة منا، وشيجة اللحمة بنا.

١ عنوان الكتاب التام في الاصل: « سوريا والارض المقدسة وآسيا الصغرى، الخ، الخ. »

« Syria, the Holy Land, Asia Minor, and C°. and C°. »

٢ لا يحدد المؤلف تاريخ زيارته ولا مدتها، لكنه يذكر في مقدمته انه قام بها قبيل الحملة المصرية. وتبدر منه في تضاعيف فصوله بوادر تدل على انه كان قد انهى الزيارة فيما هو يعد كتابه الاعداد النهائي لدفعه الى الطبع. ولسنا ندري متى كان البدء بطبعه، لكن نعرف من صفحته الاولى انه ظهر سنة ١٨٣٦.

امـــا المؤلف جون كارن John Carne فيظهر انـه مبشر مسيحي توراتي العقلية ، لا ينفك يستعيد كلمات انبيـاء التوراة ، ولا يفتأ يذكر السبت على اعتباره اليوم المقدس في الاسبوع . لكن الذي يظهر كذلك ان المستر جون كارن ، هذا ، اديب ايضاً وذوّاق فن وملمّ بالتاريخ . ومن هنا قيمة كتابه . فهو بوصفه اديباً يحيط بتصوير امجـاد الطبيعة وآثار الانسان وألوان الحياة وعاداتها في هذه البقاع . ثم هو بوصفه ذوّاق فن أبى في رحلته إلا ان يصطحب رسّامـاً ، بل رسامين[1] يدويين نقلوا له لوحات من امجـاد الطبيعة وآثار الانسان وعادات الحيـاة وألوانها في تاريخ هذه البقاع الحافل الغنيّ . ثم هو بوصفه ملمّاً بالتاريخ قد زوّد مؤلفه مقداراً من معلومات وملحوظات لها في ميزان الاطلاع قيمتها ونفاستها .

لكن ، بالطبع ، ليس لي ان اسكت على شيء استرعاني ، فانا حريص ان لا يفوت القارىء . ذلك ان المؤلف – مذ كان مبشّراً – لا يفتأ يصدر عن انفعالات واحكام تأثر فيهـا بدعوته او بحرفته . فهو يتصدّى احياناً لامور مذهبية يعتبرها ضلالاً او عصبيـة ، لكن ليدعو جهراً او خفيـة الى امور مذهبية على طرازها . فهذه وامثالهـا مما ورد في اصل النص ، وهو سبب مشاحنة او خارج على الموضوع ، قد آثرتُ ، في اغلب الاحيان ،

[1] في عنوان الكتاب ان رسومه صنعها نقلا عن الطبيعة : « و . هـ . بارتليت W. H. Bartlett ووليام برسر William Purser وشركاؤهم » . ولعلها شركة تصوير اوفدت صحبة المؤلف رساماً او رسامين .

ان اضرب عنه صفحاً مع الايماء اليه في الحاشية ايماءة عابرة ، امانةً للنقل .

بقي شيء آخر : ان المؤلف ، جرياً على تقاليد الادباء الغربيين في نظرتهم الى الشرق ، – ولا سيما هذه البقاع منه – ، انما ينصرف الى شبه استغراق صوفي في انفعالات نفسية ازاء روائع الطبيعة عندنا وذكريات التاريخ وألوان الحياة والعادات القروية ، ولا سيما حياة الفلاحين الصغار وعاداتهم . فالشرق مطاف احلام روحانية ، ومثار أخيلة من مجد غابر ، ومطمأن اعصاب ارهقها ما يجهد الغرب في سبيل « المادة » . والشرق الى ذلك يحتاج الى معلم مستعمر ، او ، على أيسر تقدير ، الى مبشر ينظف عقائده من عناكب الخرافة ...

وما أخالني في حاجة الى ان احذر القارىء من قبول هذه الدغدغات الرومانطيقية التي اكثر لنا بذلها كتّاب الغرب ، من مبشرين وغير مبشرين ، ليرضونا – من جهة – بما قسم الله لنا من جلال طبيعة ومجد تاريخ وهناء عيش على حصص صغيرة من الارض ، ثم ليقنعونا – من جهة اخرى – بحاجتنا الى المعلم الغربي مستعمراً او مبشراً .

وهكذا ترى ، يا قارئي ، ان معرفتي بهذا السفر الضخم ، المطبوع سنة ١٨٣٦ [١] ، في لندن ، في ثلاثة اجزاء ، مزيناً بالرسوم النفيسة ، قد تطورت الى طول معاشرة في ترجمة اقتصرت على الفصول ذات الصلة بلبنان خاصة ، فكان هذا الكتاب الذي

١ طبعته دار النشر : « فيشر وولده وشركاؤهم » Fisher, Son and C°.

استولدته ذلك السفر الضخم ورتبته على وجوه ، بادئاً ببيروت ، منتقلاً منها عبر طرابلس الى الشمال ، ثم مستأنفاً عبر الدامور والمتن الى دير القمر والباروك ، ثم منقلباً الى بعلبك والعاصي ، ثم منتهياً الى صيدا وصور ، متطرقاً الى استلحاق بعض فصول ، ان لم تكن عناوينها مما يدخل مباشرة في الاطار اللبناني فهي به قوية العلاقة والارتباط .

وهو كتاب رضيت بان اخرجه لك ايماناً بنفع مادته التاريخية ، ويقيناً بان ما لا يصح منه ان يكون موضوع الموافقة جدير بان يكون مثار النقد والتعمق والتفكير .

رئيف خوري

بيروت وجبل لبنان

هذا خير مشهد من مدينة بيروت . نُقِل من جوار « فيلا » كان ينزلها في السابق المستر فارن قنصل بريطانيا العام في سوريا . وهو اليوم قاطن دمشق .

ان سلسلة جبال لبنان البعيدة لتبدو من هــذا الموقع على جمال خاص . كذلك تبدو ، من كل جانب ، شعاف الجبال على اشكال مربعة ، سوى ان الطبيعة جعلتها اقل تربيعاً من ريشة الرسام . اما المنازل التي تظهر مباشرة خارج الاسوار فهي ملك المرسلين الاميركان .

وتلوح على منحـدرات الجبل أديرة كثيرة في مواقع بهيّة ، يحيط بكل دير بستانه ، ويشرف على البحر والشاطىء والسهل .

اما الى جهة اليسار فتطل قصور عربية قديمة ، تساعد بهندستها الاقطاعية العريقة على التخفيف من وطـأة مشهد المدينة البـائس الشبيه بالسجن .

والى اليمين يقوم برج المحجر الصحي الجديد الذي بناه ابراهيم باشا حديثاً .

النساء في مقدّم الرسم يلبسن في الرأس الزينـة اللبنــانية

المفضّلة . وهي تتألف من طنطور فضّي منقوش بالرسوم والتصاوير الغريبة ومرصع بالجواهر المزيفة . طنطور أجوف يزيد ارتفاعه على القدم ، يُنصب فوق الرأس نصباً ، ثم يُشدّ تحت الذقن بشريط من حرير ، ويُطرح عليه الوشاح الذي يتدلى الى اسفل على طراز مسرحي مغطياً الكتف وجانباً من الوجه . لكن في الاسر الغنية تلبس النساء ، ازواج المشايخ والامراء ، طنطوراً أبدع وأبهى مرصعاً بالجواهر الصحيحة لا المزيفة . وفي الاعراس ، ترى العروس وصبايا العرس يحملن على رؤوسهن هذا الطنطور النفيس . إلا انه لا انيق ولا جميل . لو لبسته المرأة في شوارع المدينة لبدا مضحكاً مدعاة سخرية . غير انه ، على جوانب الجبال وفي الامكنة المقفرة الموحشة ، يبدو شيئاً بارزاً مبتكراً ، ويعين على تخفيف اثر الزي الفلاحي الرتيب الذي لا تنوّع فيه ولا تلوّن .

اما هذا النبت الذي يظهر في مقدم الرسم فهو « الاجاص الشائك » او صبر ايوب . وهو كثير في تلك الضواحي . ينمو في سرعة عجيبة . اذا غُرس منه لوح بلغ من نموّه في اربع سنوات ان اصبح يملأ غرفة بكاملها . والواقع ان مادة هذا النبت كله ، من قصلته الى لبابه الى الحجاب الكثيف الذي يغطي ثمرته ، ليست شيئاً آخر سوى اوراق طوي بعضها على بعض وتشابكت تشابكاً متلاحماً . فاذا سُلخ عن الثمرة حجابها الورقيّ الكثيف وسائر ما عليه ، ظهرت الثمرة في الداخل بحجم الاجاصة . طعمها ليس بلذيذ اول الامر . فانه حلو حلاوة سقيمة . لكن الكثيرين لا يلبثون ان يستسيغوه . فأما زهر هذا النبت فصغير ، اصفر



بيروت وجبل لبنان

اللون اصفراراً بديعاً برّاقاً . واكثر الاسيجة على جوانب الطرق وهوامش البساتين التي تحيط بالمدينة انما يتألف معظمها في الغالب من هذا النبات ، فتكون واقياً فعلياً يصدّ الارجل الممنوعة التي لا تلبث ان تجد اختراق هذه الاسيجة باشواكها الكثيرة والتفافاتها المعقّدة امراً صعباً جداً .

وبيروت أوفق مكان يتخذه المرء مسكناً في لبنان . انها بديعة الموقع ، والمشاهد التي تطل عليها من كل جانب حلوة جميلة . على ان المدينة نفسها قذرة ممجوجة ، اذا قوبلت بطرابلس الحسنة البناء ونهرها قاديشا المنساب انسياباً رائعاً عذباً . وجبل لبنان رائع المنظر من بيروت . وليس منظره اقل روعة من طرابلس . إلا انه اكثر بعداً . على ان بيروت مرفأ لدمشق وداخل سوريا . وموقعها اصلح لتقبل المشحونات والانباء وما اشبه من اوروبا . فنشاطها التجاري اعظم من نشاط كل مرفأ آخر في سوريا . وفيها يقيم عدد موفور من التجار ، بالاضافة الى القناصل ووكلاء الدول الاوروبية المختلفة . فهذه المدينة هي ، إذن ، في نظر الاوروبيّ اطرف واوفر حياة من دمشق بما لا يقاس . فالاوروبي في دمشق – على كونه غارقاً في المتارف بين الانهار والجنائن – لا يملك في احيان كثيرة إلا ان يقول : « اني وحيد . رفاقي وقومي عني بعيدون ، ولا يلتفت اليّ انسان . »

اجل ، ان بيروت هي افضل المدينتين موضع سكنى . ويستطيع المقيم فيها ان يحشد الى منزله ، في اجل وجيز ، اسباب الراحة والبهجة كأنه في دمشق . يضاف الى ذلك ان البحر والخليج البديع يوفران مشهداً اعظم اغراء واكثر اختلافاً من

مشهد « بردى » و « أبانا » وسائر الانهر الثلاثة الشقيقة . ويفسح لبنان في سبل النزهات والزيارات الى الاديرة والاودية والقصور التي تذكر تذكيراً قوياً بايطاليا واسكوتلنده .

وقد تحسنت بيروت وضواحيها جداً في الآونة الاخيرة ، ولا تزال آخذة في التحسن على اضطراد ، تشهد هذه المساكن والمغاني الجديدة التي تبنى في كثرة ، وبعضها ينم عن ذوق غزير .

ان اجر بيت صالح ، يتسع لعائلة صغيرة ، يبلغ في هذه المدينة ثلاثين ليرة استرلينية . فأما بيت يصحّ لسكنى عائلة اكبر ، ومعه حديقة ، فيبلغ اجره خمسين استرلينية . وعلى هذا ، فقد ارتفعت اجور المنازل لوجود كثير من الفرنسيين الذين نزلوا المدينة . وسعر اللحم اربع « بنسات » لكل اوقية . وسعر النبيذ اربع « بنسات » لكل زجاجة . اما الخمرة اللبنانية التي هي اجود نوعاً ، فسعر الزجاجة منها تسع « بنسات » او « شلن » . ويكون هذا الصنف الاجود من الخمرة ابيض واحمر . بقيت الخمرة البيضاء الحلوة بعض الشيء ، فهي في الدرجة العليا من الجودة . فأما تلك ذات اللون الذهبي ، فهي الارقّ والادمث ، وتعتبر « شامبانيا » الشرق ، سريعة الفوران في زجاجاتها ، وعظيمة الوحي والالهام .

وفي بيروت خبّازان فرنسيان او ثلاثة ، مما يجعل الخبز هنا جيداً . والخبز الجيد ترفٌ نادر في المشرق .

وهنا يعيش القناصل والتجار من شتى الامم عيشة اجتماعية ودّية . فيعقدون مآدب الغداء والعشاء ، ويقيمون النزهات والرحلات في الضواحي الفتانة .

وليست سوريا – اعني هذا الجزء منها على الاقل – بالبلاد التي تتميز برخص الاسعار . فهي اغلى اسعاراً حتى من الاقاليم في جنوب فرنسا وكثير من اقاليم ايطاليا .

والمقول في هواء الساحل انه يعرض المرء للعلل العصبية واوصاب الحميات . ويشكو بعضٌ مـا لهذا الهواء من تأثير يحط قوى البدن والعقل . لكن ارجح الظن ان مثل هذا التأثير انما يحصل اذا أذِنَ ساكن بيروت لنفسه ان يستسلم للعادات والاذواق الكسلى التي يجدها عند الاهلين . غير انه اذا عمد الى الرياضة النشيطة ، وجدّد الحياة في روحه وخياله بزيارات مكررة الى الجبل والسهل ، فانتهج على هذه الارض البديعة اسلوب حياة كالحياة الانكليزية في بعض النواحي ، فانه واجد هواء المنطقة صحياً ومناخها مبهجاً ، وربما امكنه آخر الامر ان يحظى بما يحظى به المارونيّ والجبلي من طول العمر والشيخوخة المتعافية .

ولبيروت افضلية اخرى بارزة على سائر المدن في سوريا . تقوم هذه الافضلية على حرية العبادات الدينية وامتيازاتها . هنا رعاة دينيون ، من بلاد شتى ، يقيمون في المنازل الجميلة حيث يتلاقى احياناً رجال مثقفون اقبلوا من الاديرة في الجبال ، بينهم الاساقفة والكهنة واللاهوتيون من موارنة وارثوذكس وكاثوليك [1] .

[1] حذفنا هنا نحواً من اربعة وعشرين سطراً ختم بها المؤلف هذا الفصل متحدثاً عن المبشرين والتبشير والمفاضلة بين المذاهب مما لا يدخل في قصدنا من نقل الكتاب . – المعرب .

مصب نهر الكلب

يقع هذا المشهد على الطريق بين بيروت وطرابلس . يخرج المسافر من بيروت فتمتد به طريقه أجلا وجيزاً بين الحدائق والبساتين ، حتى اذا قطع نحواً من ميل ونصف الميل صادف نهراً بني عليه جسر بست قناطر . ومن ثم يعبر المسافر على موازاة الشاطىء الى مرتفع صخري ، يظهر من على قمته ، في المقلب الآخر ، نهر الكلب منساباً انسياباً رائقاً جميلا خلال فجوة عميقة بين الجبال ، وقد شيّد فوقه جسر أنيق .

اما الطريق هذه فتدعى الجادّة انطونيانا . قدّها الامبراطور انطونيانوس . ولا يزال يشهد بهذه الحقيقة التاريخية نقشٌ محفور في وجه الصخر وقد نقله موندريل : Maundrell .

ان نهر الكلب هو نهر لوكوس لدى الاغارقة . ويقول الجغرافيّ استرابون انه كان من قبل صالحاً للملاحة برغم إنه سريع التيار . واما الجسر الحجري فوقه فمن عمل فخر الدين الامير الدرزي الشهير المتوفى عام ١٦٣١ م[١] . ونهر الكلب هو

١ قطع رأس فخر الدين في ١٣ نيسان ١٦٣٥ بامر السلطان مراد الرابع على ما ورد في كتاب الاب بولس قرألي عن هذا الامير ، ص ١٨ ، طبعة



مصب نهر الكلب

الحدّ بين بطريركيتي اورشليم وانطاكية . والجبال في هذه البقعة شاهقة مسننة الهبوط ، تنحدر الى البحر تواً ، وليس بينها وبين خليج الماء الازرق سوى عرض الطريق ، وعلى شعافها أديرة صغيرة شعرية الموقع .

يبدو في الرسم بعض المسافرين يعبرون مجرى النهر ليستأنفوا سبيلهم على محاذاة الشاطىء في بكرة من النهار . والوادي على تخم الخليج البحري محروث ، حسن الغرس والزرع ، مرصع بجملة اكواخ .

فاذا مشى المسافر ساعتين صادف من ثم نهر ابراهيم . وقد سمّي كذلك على اسم باشا يحمل هـذا الاسم . ولعله باني هذا الجسر الانيق ذي القنطرة الواحدة فوق النهر .

وبين نهر ابراهيم ونهر الكلب شبهٌ في انهما كليهما ينبعان من ثغرة عميقة بين الجبال . ويعرف نهر ابراهيم في القديم بنهر ادونيس . وقد كان موندريل موفقاً اذ لحظ ظاهرةً يمكن ان تعتبر تفسيراً للرأي الذي أثبته لوسيان بشأن هـذا النهر . ففي بعض فصول السنة ، لا سيما الوقت المقارب عيد ادونيس ، يصطبغ ماؤه بلون دمويّ – الامر الذي حسبه الوثنيون ناشئاً عن حزن جارح ينتاب النهر لموت ادونيس اذ صرعه خنزير برّي في الجبال التي يفيض منها النهر . وقد شهدنا بانفسنا شيئاً من هذا ، فكان الماء خضيباً قرمزياً الى درجة غريبة ، والبحر ضارباً بلونه الى الحمرة حتى مدى بعيد . ولا شك ان السبب إنما هو صنف من تراب

حريصا – لبنان ، ١٩٣٧ . – المعرب .

احمر جرفته الى عباب النهر جوارف المطر الغزير .

وكثير من جوانب الصخور في هذا الجوار مكسو بنقوش اغريقية ولاتينية ورسوم رمزية منحوتاً نحتاً ناتئاً . على أن معانيها لا يمكن استجلاؤها الآن . لكن الارجح انها تتعلق بعبادة ادونيس ، وهي عبادة كانت تمارس جداً في هذه الضواحي . وتقول الروايات المحكية ان هياكل واحتفالات جنائزية كانت تقام تكريساً لادونيس على كثب من الموضع الذي لقي فيه حتفه .

شديد نقاء الماء سريع الجري هو نهر الكلب ، شأنه شأن اكثر الانهر النابعة من جبل لبنان . وتنهض ضفتاه كجدارين صخريين عموديين ، يبلغ مدى ارتفاعهما مائتي قدم او ثلاثمائة . وقد تملأ هاتان الضفتان الصخريتان جميع الوادي في بعض الامكنة . على انهما في مواضع اخرى تخليان هامشاً ضيقاً بين مياه النهر والصخر تنبت فيه الاشجار والاعشاب . وفي موضع ما ينشأ خان على نقطة في الصخر فوق حافة الماء نفسها في مقابل جسر ارتفعت قنطرته ورقت حتى ليستحيل على المرء اجتيازها دون ان يعروه اضطراب وهلع . وقد افتدّ الصبر العربي في وجوه هذه الصخور ، المكدسة هذا التكديس ، بعض ادراج حجرية ضيقة تكاد تكون معلقة تعليقاً عمودياً فوق التيّار . ومع ذلك ، لا بد من اجتيازها على ظهر الحصان . وفي هـذا يقول احد المسافرين ممن زاروا المكان حديثاً : اننا استسلمنا بالثقة الى غرائز خيلنا ذات الخطى الثابتة المتمكنة . على ان تسنن الادراج وانصقال حجارتها انصقالاً ناعماً ، بالاضافة الى عمق المهوى امام انظارنا ، جعل مستحيلاً علينا

ان لا نغمض عيوننا . ففي هذا المعبر ذاته ، بعد سنوات قلائل ، حدث ان عثر حصان القاصد الرسولي الاخير الذي بعثه البابا الى الموارنة ، فطرح عنه براكبه الى الخليج في اسفل ، فأهلكه . اما خاتمة هذا المعبر فتنفذ الى بطحاء على رأس هضبة محروثة حرثاً جيداً ، تشرق بعرائش الكروم فيها والقرى المارونية الصغيرة .

ويبدو على الهضبة المقابلة منزل صغير جديد ايطالي في هندسته ، ترتفع على مداخله القناطر وتمتد الاساطيح والاسيجة من قضبان الحديد . شيّد هـذا المنزل لوزنا مشتى له . والسنيور لوزنا هو اسقف عبيدوس ، يشغل الآن منصب القاصد الرسولي في لبنان .

وبعد اجتياز هـذا النهر صوب الداخل تبقى مشاهـد البلاد جديرة بالثناء الذي اضفاه الاقدمون على ملاعب ادونيس وفينوس : بساتين من شجر التوت والتين والزيتون ، وغابات من الصنوبر والبلوط ، وجنائن من الكروم ، تتخلل ذلك كله سيول ترغي وتزبد في اندفاعها بين الهضاب الصخرية الكبيرة التي تقوم عـلى قممها وجوانبها قرى نظيفة مشيّدة بالحجر الابيض .

« كل شيء سبق له ان احبه وجسّده فكراً ،
كل شكل ولون ورائحة ونغم حلو ،
تفجّع على ادونيس . وتلمّس الصبح
وجه الشرقيّ الذي منه يشرق ، صبح محلول الضفائر
بللتها العبرات التي كان ينبغي لها ان تندّي الارض .
وفي بعيد ، انّ الرعد الكئيب ،
واضطجع البحر الشاحب في رقاد قلق ،

واطافت الرياح العاصفة مجهشة في جزعها
من اين جئنا ؟ وعلامَ وجودنا ؟ وفي اي المسرحيات
ترانا نشترك ممثلين او متفرجين ؟ العظماء والوضعاء
يتلاقون محتشدين على الموت الذي يعير ما لا بد للحياة من ان تستعير .
ما دامت الآفاق زرقاء ، والحقول خضراء ،
فلا بد للمساء من ان يحدو الليل ، ولا بد لليل من ان يحدو الصباح ،
ويعقب شهر شهراً بالاسى ، ويوقظ عام عاماً على الحزن . »

شلي

في الاساطير الالهيـة الوثنيـة ان أدونيس ابن مرا ، بنت سينيراس ملك قبرص ، ولد في بلاد العرب حيث سبق لامه ان لجأت فارّة . فشبّ ادونيس مثـالاً للجمال الرجولي . فولهت به فينوس ولهاً عميقاً عنيفاً حتى انها غادرت الاولمب لتساكنه . وكان القنص أحب هواية اليه . فخرج يوماً يصطاد رغم ضراعات حبيبته . فجرحه في خاصرته خنزير بريّ جرحاً مميتاً .

ويظهر ان هذه الاسطورة انتقلت الى اليونان من لبنان . ويقول باوزانياس ان الشاعرة سافو تغنّت بأدونيس . لكن الواقع ان شعراء الاغارقة ، في عهد تالٍ ومن نحا نحوهم من اللاتين أمثـال ثيوقريطوس وبيون واوفيد ، هم الذين توسعوا في هذه الرواية على الارجح ، وأسبغوا عليها تلك الاناقة التي هي سمة خاصة من سمات الاساطير الالهية الاغريقية .

ويذكر ارستوفان العيد المعروف بـ « أدونيا » في جملة الاعياد الاثينية . كانت تبدأ مراسم هـذا العيد بالمناحات على مصرع ادونيس ، لتنقلب فيما بعد الى فرح وتهليل بعودته الى الحياة والى فينوس . ثم يختتم العيد بموكب يسير حاملاً صورة الحبيبين مع التقدمات النفيسة .

أما عبادة تموز في لبنـان ، وتموز وأدونيس هما الشخص نفسه ، فترقى ، على الارجح ، الى عهد سابق جداً . فعبادة تموز مذكورة في جملة لعنـات يهوذا قبل الدعوة المسيحية بستة قرون . ومن هنا قول حزقيال : « وقال لي عُد ترَ ارجاساً اعظم يصنعونها ... ثم أتى بي الى مدخل باب بيت الرب الذي هو جهة الشمال ، فاذا هناك بنساء جالسات يبكين على تموز . » وقد كانت بيبلوس ، وهي مدينة على مقربة من نهر ادونيس ، مركزاً من أهم مراكز هذه العبادة .

« اندبي تموز . لقد مات !
استيقظي ايتها الآلهة الحزينة ، استيقظي انتحبي ،
لكن علامَ ؟ أطفئي دموعك النـارية
في منابعها المشتعلة ، ودعي قلبك الذي يضجّ نبضاً
يرقد كقلبه رقاداً اخرس لا تذمّر فيه .
لقد اقبل على تلك المدينة الرفيعة
حيث الموت الملوكي ،
يحافظ على بلاط ملكه الشاحب جيلاً متداعياً .
أجل ، قد أقبل فابتاع بثمن اداه من اطهر انفاسه

قبراً في الخالدين . فتعالي اذن نمضِ ،
اسرعي ، ما دام كهف النهار اللبناني الازرق
هو السقف الملائم الذي يظلل لحمه ، وما دام
هو مضجعاً كأنه في نوم نديّ .
إنه لن يفيق بعد اليوم ابداً سرمداً
وفي حجرة الغسق يخيم شبح الموت الابيض
مسرعاً على مدى خطاه . وبالباب
ينتظر الفساد الخفيّ عن العيان كيما يقتفي
طريق الموت الشقية الى منزل سكناه القاتم .
ان فينوس لتهوي على ادونيس بمروحتي جناحيهـا البهيين
كشعاع القمر وتقول :
لم يمت حبنا واملنا وحزننا !
انظري على الاجفان الحريرية من عينيه الخابيتين
دمعةً قطرت من دماغه بحلم من الاحلام !
ولم تكن تعلم ان تلك دمعتها . ومذ كانت ناصعة نقيـة
بلا شائبة ،
فقد اضمحلت كالغمامة التي بكت بمـا فيها من دماء الغيث
حتى استنفدته !

شلي

قلعة قوطية

في واد مجاور البترون

يعتبر هذا المشهد مثالاً من الاودية اللبنانية الضيقة الوعرة . يقع على تخوم طرابلس ويبعد نحواً من ثلاثة اميال عن البحر الذي يمكن الاطلال عليه من اعالي المرتفعات . اما القلعة فمفروض انها من بقايا الصليبيين ، تقوم في موقع حصنته الطبيعة تحصيناً كاد يستحيل اقتحامه في ذلك الزمان .

هنا كان يقيم في الغابر جنود صليبيون لعلّ بعضهم من طبقة الفرسان الانكليز مع فئة قليلة من الجند المرابط .

على ان المكان برغم الوحشة التي تخيم عليه ، واقع في وسط بقعة متناهية جمالاً وخصباً ، يجد فيها الساعد الجريء والقلب المقحام متعة تامة تبلغ الغاية .

وهذا الصخر العجيب عموديّ في جميع جوانبه ، يرتفع مائة قدم علوّاً ، ويبلغ قطر محيطه خمسمائة قدم واحياناً ستمائة . وقد ائتلفت جدران القلعة وتشابهت وجوانب الصخر حتى ليلوح للناظر ان تلك الجدران انما هي لحمة من الصخر نفسه .

يقيناً ان المكان هذا ليصح معقلاً موافقاً للصوص . فهو لا يزال محفوظاً على حالة صالحة . وبين جدرانه السميكة القائمة

ومشهد الوادي العبوس الذي يشبه الحديـد ، نسبة وانسجام . فتبدو القلعة ، جاثة على هذه الشرفة الجبلية البرجية الشكل ، كأنما هي تكملة قفرية رائعة لهذا المشهد كله . وفي اسفل ، تنتصبّ ساقية تنهض من فوقها قنطرة محطمة نصف تحطيم ، تمتد عليهـا الطريق التي تقود عبر الوادي . اما المرتفعات الى يمين فهي مطرزة بالشجر تطريزاً غنياً مترفاً .

ويستطيع المسافر الذي يدركه الليل ، وليس في متناوله خان يلجأ اليه ، ان يأوي الى حجرات هذه القلعة القديمة واقبيتهـا . فيستوقد ناراً ينعكس ظل لهبها على الارضية البيضاء والجدران ، بينما هو يحمد الحظ على انه في كنّ من الرياح وانداء الليل ، وبينا يمكنه الشعور بانه سيّد كل ما تمتد عليه عيناه . فليس من رب منزل يلقاه في الصباح وعلى شفتيه اللطف ، لكن في حدقتيه انتظار الهدية . ليس من شيخ يطالبه بمطلب ملحّ ربما جاز تخفيضه ، لكن يستحيل الهرب منه[١] ...

انه الصمت في هـذه القلعة القوطية يلفّ الغريب في ساعات نومه . ثم هو الصمت يواجهـه ساعة يفيق ، فلا « سحر طيور مبكرة » ولا عواء ثعالب : هذه البهائم الموحشة التي تسهر على الاماكن الخاوية ، فلا يوشك ان يبزغ الفجر حتى تسكت سكوتاً .

يقول لامرتين : « هنا يضيق الوادي حتى ينسدّ بصخرة عظيمة ، قد تكون وجدت في موضعها اصلاً في الطبيعة ، وقد تكون

١ هنا في الاصل ثلاثة اسطر تدور على الصلاة في احد الاديان . وقد جاء المؤلف على ذكرها في غير السياق اللائق ، فحذفناها . - المعرب .



قلعة قوطبة

انسلخت فتدحرجت من خاصرة الجبل المحاذي . مهما يكن من شيء ، فان هذه الصخرة لتحمل على قمتها قلعة قوطبة ، هي اليوم وجار للثعلب ووكر للنسر . وللقلعة ادراج منحوتة في الحجر الصلد ، تتصل باساطيح بعضها متراكب فوق بعض على نظـــام وترتيب ، تحميها الابراج والحصون ، وتنتهي الى منصّة يشمخ عليها البرج الرئيسي ، وعلى مداره الكوى الصغيرة للرماية .

« وتكسو القلعة خضرة نامية غزيرة تغطي جدرانها وابراجها . وتبسق فيها اشجار الجميز التي ضربت بجذورها في ارضية قاعاتها ، ونشرت رؤوس فروعها فوق السقف المتهدم . عـــدا النباتات المعرشة على ابوابها ونوافذها ، وعدا الفطر الذي نما على حجارتها هنا وهناك معلناً الوان تلك الحجارة . تبقى الطفيليات التي لا حصر لها ، وقد تدلت موفورة متشابكة منجدلة ، فأضفت عـــلى هذا الاثر البديع من آثار القرون الوسطى مشهد بناء أقيم من الاعشاب والنباتات المعرشة .

« ويفيض على قدم الصخرة ينبوع بهيج تظلله ثلاث من ابهى ما يمكن تصوره من شجر الدردار . وقد كفى ظل واحدة من هذه الشجرات للتفييء على خيامنا وخيلنا الثلاثين والجماعة المنتشرة من العرب الذين صاحبونا . »

على ان هذه الشجرات الثلاث الشريفة التي يطريهـــا لامرتين ليست من فصيلة الدردار ، بـــل النبق . وهي توفر للمسافر مطمأناً بديعاً يستريح فيه . اما الينبوع تحت هـــذه الشجرات فحفافيه ظليلة بشجر الدفلى والآس . والموضع كله عطر الجو حتى درجة عظيمة بما يفوح من رائحة الآس المزهر والملعاء .

قبر القديس جاورجيوس

خليج كسروان على الطريق بين بيروت وطرابلس

تقع هذه البقعة السحرية (الرومنطقية) على الطريق بين بيروت وطرابلس ، عند خليج كسروان – الخليج الذي تجلو شواطئه معرضاً من الخضرة البديعة والحرث والزرع والبهاء والحبور . وان القرى والاديرة التي يقوم بعضها فوق بعض على مدارج المنحدرات لتظهر في اشد المظاهر خلابةً وعذوبة .

يبدو ان هذا البناء الغريب المنحوت في الصخر كان في وقت ما كنيسة . ويجمع الجمهور على تسميته بقبر القديس جاورجيوس – قديسنا الحارس الذي يُقال ان المعركة بينه وبين التنين نشبت في مكان جدّ قريب من هذا المكان .

اما الجانب المقابل من الخليج ففيه قنطرة رومانية ورأس صخري بديع .

وموضع هذه البقعة بالضبط هو قدّة الارض بين البترون ونهر الكلب .

والقرى القائمة على الجبال ابيقة البنيان ، كل بيوتها مسقوفة سطوحاً ، ونوافذها صغيرة مشبكة بقضبان الحديد . ولا تخلو من بعض ابنية كبيرة ، منها اثنان او ثلاثة هي اديرة تطل من



قبر القديس جاورجيوس

ناحية البحر بواجهات بهجة ، ولكل دير حديقة ومزرعة كرم ، في هذه التربة ذات الحظ العظيم من الخصب .

وقد وجدتُ في الآكام ، داخل آسيا الصغرى ، ان الصخور كثيراً ما نحتت فيها انواع من حجرات قديمة أشبه بالاضرحة ، ولكنها اليوم مأهولة ، يسكن فيها الفلاحون والرعاة ، وتوفر على المسافر ملجأ اعظم دفئاً من ابا خان خرب ، بينا تزوده الغابات بالوقود لنار طيبة ، ويستحيل على الريح او المطر ان ينفذا اليه . وان الكثير من هذه الصخور ، التي نقرت فيها الاضرحة القديمة ، لتطلع من على مسافة قريبة بمنظر يطابق جداً منظر الابراج والقلاع . ولا يزال الشعب ، شأنه اليوم كشأنه زمن ايوب ، يعتنق الكهوف الصخرية منزلاً له ، ويسكن في ظل رفارف الجبل المخيمة على الوادي ، هارباً الى البرية المقفرة التي لا انيس فيها .

طرابلس

نُقل رسم هذا المشهد من موقع فوق الدرويشية . وتبدو الدرويشية الى اسفل، على شاطىء النهر، وكاهن ماروني، الى فوق، يتحدث وراعياً لبنانياً وراعية . كذلك يبدو على الاكمة ، في مقدّم الصورة ، القصر القديم الذي شاده الصليبيون . وان الكثير من اقسام المدينة ، شأنها شأن القناطر القوطيّة الطراز التي تمد تحتها جملة من الشوارع ، ليحمل سمات من عهود الصليبيين .

طرابلس اجمل مدن لبنان منظراً . بيوتها مبنية بالحجارة بنياناً متيناً . ثم هي في داخلها معدّة اعداداً نظيفاً . تحيط بطرابلس وتزيّنها الحدائق البهيّة التي تختلط بالمنازل في المدينة ، ثم تتجاوزها على مدى السهل الذي يفصل بين المدينة والبحر . وان هذا السهل الساحليّ ، بالاضافة الى الجبال المجاورة ، ليجعل في متناول السكان ، على بعد مسافة قصيرة ، كل ضرب من ضروب المناخ .

وطرابلس اغنى بالحدائق والبساتين من بيروت . وحظها من الوقاية والصحة يفوق حظ صيدا وعكا . وعلى ذلك يبدو ان طرابلس تجمع كل ميزات الراحة والمشاهد البديعة والخصب ، وهي



طرابلس

ميزات تغري الغريب ، الذي يلتمس العافية او المتعة ، ان يؤثر هذه المدينة على سائر اجزاء لبنان ، فيجعل منها مقراً لاستجمامه .

اما مشهد الدرويشية على ضفة قاديشا ، بين شجر الزيتون والليمون الحامض ، فحقاً ساحر . انه لمنسَحَب من دنيا الهمّ والتجارب والشهوات الى دنيا من الجمال الرقيق العذب الصامت المنفرد . كل معبر بجوار قاديشا شيء حبيب الى الانسان ، غاوي التأمل . وفي تعاريج النهر خلال الوادي عزلة مستورة ريفيّة هادئة ، تستيقظ فيها الافكار يقظة رفيقة بمسّ من غمغمة المياه وشبابة الراعي .

وهذا المعبر الذي يسوق الى احدى الهضبتين لا يلبث ان يطل على مرج فسيح من السهل بعرض ميلين ، مكسو بالبساتين حتى البحر ، ثم يطلّ الى يسار على الميناء بجزرها ، ومن وراء ذلك قمم لبنان ، وفي المقدمة البحر الجميل المترامي الى لا حدود ، ناهيك بالجوّ النقيّ الليّن البديع .

وترى على الميناء الى يسار سلسلة من ستة ابراج مربعة منفصلة ، يبعد واحدها عن الآخر نحو عشر دقائق مشياً . ويبدو انها انما أعدّت لاغراض دفاعية عن الميناء ، فهي تقوم على البحر مباشرة ، ويدل تصميمها على انها من صنع عربي [1] . وحوالى هذه الابراج وفي البحر نفسه أعمدة كثيرة العدد من الغرانيت الرماديّ على نحو ما يشاهد على الشاطىء الى أيمن بيروت . ومن تلك الابراج الستة برج الاسود ، وقد اشتق اسمه – على ما يقال –

[1] Saracenic

من رسم ترس حفر فوق مدخله وعليه اسدان كانا من قبل ظاهري الصورة . والترس والاسدان شعار الكونت ريمون التولوزي . وكان بغدوين[1] ، ملك اورشليم ، لما انتزع طرابلس من العرب بعد حصار دام سبع سنوات ، قد نصب برتران بن ريمون كونتاً على طرابلس . وفي عام ١١٧٠ أصاب المدينة زلزال كاد يأتي عليها . ثم احتلها العرب سنة ١٢٨٩ ، فأخربوها كلها . على انهم اعادوا بناءها فيما بعد .

وفي المدينة جملة تجار اوروبيين مستوطنين . وفيها قناصل لفرنسا وانكلترا والنمسا الخ . وأهم بضاعة فيها للتصدير بضاعة الصابون المصنوع في الجبال . وقد سبق ان كانت تصدّر منه نحو ثمانمائة كنتال[2] في السنة ، لكل كنتال ثمانون ليرة استرلينية . على ان تجارتها اصيبت مؤخراً ببعض التدنّي . وتلي الصابون في الاهمية بضاعة الاسفنج . وهو يؤخذ عن الشاطىء . إلا ان اجوده يكون على بعض عمق في البحر .

تصدّر طرابلس الصابون الى طرطوس ومن ثم الى الاناضول وجزر الاغريق ، كما تصدّر مادة القلي لصنعه ، وهي مادة تتوفّر في الصحراء الشرقية . اما الخان الذي ينزله صنّاع الصابون فهو صرح كبير حسن البناء .

ولا ريب ان القصر الى يسار ، وقبو ابي ناضر الى يمين ، كلاهما شأن الحمام والمنازل الريفيّة يجب ان يسلما للدرويشية

١ Baldwin

٢ الكنتال ، او القنطار الفرنجي ، مائة كيلو .

بالافضلية في الرفاهية وحسن الموقع . ويقال ان الدرويشية اليوم غير مأهولة . واغلب الظن انها تكون رحبة بالمسافر ، حتى المسافر المعتدل الدخل ، الذي يودّ ان يحطّ رحاله أجلاً ما في الشرق .

ان القيّم على مثل هذا المقام ليكوننّ انساناً مغبوطاً في منزله الدرويشي هذا ، مع موقعه في وادي قاديشا حيث تصعد من بساتين الليمون والتوت والشقائق وسائر الشجر والنبات ، روائح تعطر الهواء وتبرّده . ليس من شيء يعوز هذا المكان ليسبغ عليه الطابع البيتيّ سوى بعض الاثاث الانكليزيّ والكتب والموسيقى . فيستطيع ساعتئذٍ اخو العزلة في دير قاديشـــا ، اذ يتمشى على سطحه او في الحديقة ، ان يتـــأمل الوادي والنهر والبساتين والمرتفعات الشاهقة على كل جانب . ويستطيع ان يتحدّى اقصى تخوم الارض ان توفّر له ملاذاً احب من هـذا الملاذ يبعد عن المدينة بتجارتها الناشطة ومنـازل تجاورها الاصدقاء وفنصلها الودود نصف ميل . اما العواصف على شواهق لبنـان ، الى اعلى ، فتُسمع ، ولكن لا يُشعر بها . وارتغاء الموج الطويل على الشاطىء البعيد يصعد عبر الوادي خفيتاً وكأنه مقبل من دنيا احلام .

لشدّ ما هو مبهج ، مع قدوم المساء ، ان يتناول انكليزي كتاباً من ادب وطنه الام لشكسبير او سكوت ، او لشاعر اكثر نزعة ريفية كشعراء البحيرة[1] ، ثم يجلس تحت الاشجار او

[1] Lake Poets ، وهو اسم يتناول طائفة من شعراء الرومانطيقيـــة الانكليزية بينهم لونغفلو ، وشلي ... – المعرب .

في قنطرة المدخل ، « يضيّع الحاضر في الماضي » بينا ، تنسلسل افكاره في الف ذكرى ورؤيا ، الى ان تنقطع به افكاره انقطاعاً عذباً ، يقطعها جرس الدير في المساء ينشر رنينه من على منحدر الجبل .

وإني لاتساءل : ألا يقص علينا هذا الجرس قصص الماضي بقوة حية كقوة المسرحيات او القصائد الخالدات ؟ أفلا يستثير امامنا صبحيات السبت وامسياته في مروج حياتنا الباكرة ، يوم ان كانت مثل هذه الاصوات تأتينا محمولة على الريح تدعونا الى الكنيسة الشيباء التي أحبها آباؤنا ، وتنادينا للمثول بين ايدي قبورهم لنتزوّد بالنظرة الاخيرة من الموتى ؟

انه الحزن - الحزن اللذيذ ! - والفرح والامل والايمان والذكرى ! تلك كلها تتفجّر متجددة مع كل دقة من هذه الاجراس التي تقبل نغماتها وكأنها منبثقة من قلب الهواء ، ثم تمتد امتداداً طويلاً مع اصداء الجبل فتبدو كأنما هي من عالم غير هذه الارض .

ما اسعد امرءاً يكون كذلك في ديار الغربة : يشعر ان لم ينقطع به الحبل الذهبي الذي يصل روحه بمطاف افكاره الاولى وأنقاها . يشعر ان غربته مهما شطت وتناءت ، فالماضي لا يفصم الحاضر ولا ينشر ضباباً على المستقبل . يشعر دائماً ابداً في داخله بينبوع من اشياء رحيمة مباركة يستقي منها في كلتا الحالتين اذ يكون كل ما حوله مبهماً ساحراً ، او موحشاً قاحلاً .

قصر في ضاحية طرابلس

على نهر قاديشا

المقول في هـذا القصر أنـه بناء عربي . لكن الارجح أن الصليبيين هم الذين شيّدوه . يقوم على منحدر مطلّ على طرابلس . مظهره مظهر قلعة قديمـة من قلاع الاشراف البارونات عهـد الاقطاعيين . وقليلاً ما يدخله السائح اذ يكتفي بنظرة عابرة على منظره الكالح . ويجري على سفح جدران هذا القصر نهر قاديشا منسرباً عبر واديه البديع ليدخل المدينة .

الى شمال ، مقهى يبدو كأنه جزء من الجسر الذي يمتدّ فوق النهر . والواقع أن هـذا المقهى متصل بالجسر ، تنفتح في جداره نافذتان قنطريتا الشكل تؤديان النور الى داخله الفظّ الخشن . ومع ذلك ، يوفر هذا المقهى الفريد في وضعه أنساً ومأوى لكل تعب عطشان يلقى راحة هنـا على حافة النهر العذب في ظلّ جدران هذا القصر .

ان جوار طرابلس جميل جمالا خاصاً ، على كونه أقلّ تلوناً ونتوءاً من جوار بيروت . هنـا في ضاحية طرابلس مغارس الكرم ومزارع التوت وليمون البرتقال والرمان ومنابت الزيتون تطوّق المدينة من كل صوب . وتبدو من على الهضبة لوحة ارضية

بهية تشتمل على جزء كبير من المدينة . وينفرع عن نهر قاديشا فرع يجري عريضاً في شوارعها ، بينما تنتصب المآذن وتنبسط الاراضي المجاورة مكسوة بالمغارس والجنائن .

بعض شوارع هذه المدينة واسع (بالقياس الى الشوارع في الشرق) . وفيها أبنية من حجر ذات طبقتين . غير ان المدينة جملة ليس لها مشهد يدلّ على الازدهار والرخاء . بل تلوح عليها سيماء شيء هو الى الانحطاط والضعف اقرب . ويكاد المسافر يعجز عن ترك الاقتناع بان أصلح أيامها قد انقضى . لكن المدن الشرقية - والحق يقال - ترتدي غالباً مثل هذه السيماء البليدة التي لا روح فيها . فتبدو هنا عين ماء خربة ، ويبدو هناك ركام من المهملات والاقذار ، بينا تنبت الاعاشيب في الشوارع ، ومع ذلك لا يمكن أن تكون يد الدمار تعبث حقيقة بالمدينة .

في طرابلس اسواق ضيقة قاتمة عظيمة الطول ، ملأى بالبضائع المعتادة . وتدور فيها الحرف والتجارات الصغيرة بنشاط مرموق . ولما كانت المنطقة المجاورة تنتج حريراً موفوراً من صنف جيّد ، كان اكثر الاهلين يشتغلون بحياكة الزنانير الطويلة المقلمة التي يكثر لبسها في الامصار الاسلامية . والمقول ان التجارة هنا تكاد تكون احتكاراً للمسيحيين ، لا سيما الارثوذكس . ويقدر سكان طرابلس بستة عشر الفاً ، ثلثهم على التقريب نصارى .

وقد وجدت جملة من العائلات الفرنسية تستوطن المدينة وتهتم بفروع مختلفة من صناعة نسج الحرير . ويلحظ أحد السوّاح « المحدثين » ان الفرنسيين هؤلاء يرتأون امكان اقامة تجارة رابحة في مادة الحرير الخام ، اذا تيسرت الاسواق للتصدير . والاسفنج



قصر في ضاحية طرابلس

كثير على الشاطىء، تلقى منه القنصل الانكليزي حملاً كاملاً خلال اقامتنا . ويمكن الحصول على هذا الاسفنج عن الشاطىء، لكن أجوده يكون في البحر على بعض العمق .

ولم يتوفر حتى الآن تشجيع للصناعة والانتاج في هذه البلاد المحكومة حكماً رديئاً ، مع ان خصوبة الاودية المجاورة كفيلة بانتاج الحرير مضافة اليه مواسم اخرى ثمينة سخية . هذا ، عدا الجداول الغزيرة التي يمكن تسخير طاقتها لتحريك ضروب كثيرة من الآلات . فاذا ما قدّر لطرابلس ان تبقى في حوزة ابراهيم باشا ، حاكمها الحالي – وهذا ما يتمناه السكان المسبحبون من اعماق قلبهم – فلا بد في اجلٍ ان تؤدي حكمته ورغبته في المشاريع الى تحري هذه المناطق الثمينة تحرياً دقيقاً وتعضيد مؤسسات النسج والتجارة .

الكنيسة وبيت الشيخ في اهدن

الرحلات في الشرق مدينة بالكثير من طرافتها ولذتها للمناقضات التي لا تنقطع حلقاتها . فمن اقليم عاتم الى آخر مضيء رائع ، ومن حمّارة قيظ الى ينبوع منفرد وغابة .

ليس الوصول الى اهدن من جميع الجهات سهلاً يسيراً. فالمراقي التي توصل الى بقعتها السحرية الصغيرة انما هي مراقي طويلة المدى ، مجهدة . لكن بعد اذ يصل المرء اليها تستقبله الاشجار المثمرة ، والادواح الحرجية ، واشجار الجوز البديعة ، والشلالات المنحدرة من الجبال ، والخضرة الخصبة الممدودة على الاودية والاعالي ، والمنازل الانيقة الملوّنة ، فيهتف : ما ابدع هذا كله وأبهجه !

ومن الاشياء البارزة في هذه اللوحة بيت الشيخ او بالحري قصره والكنيسة . وبيت الشيخ ملجأ المسافر الذي يعد نفسه سعيداً اذا قيّض له دائماً في سفره ان يصادف مستظلاً كهذا المستظل . والحق ان بيت هذا السيد واسلوب حفاوته بالوافدين قليلاً ما يشبه بيوت سائر شيوخ القرى وأساليب حفاوتهم . فالواقع ان عليه طابعاً من عهد الاقطاعية . فالقصر متين ، حسن البنيان ، ويمكن اعتباره في لبنان صرحاً أنيقاً مهيباً . وللضيف

ان يمكث فيه جملة ايام يكون فيها موضع الترحاب . والمعقول جداً ان يغريه المكان بالاقامة فيه حتى يستنفد ايام الضيافة كلها . فان النظافة في داخل هذا المنزل وانطلاق الهواء فيه ليطيبان جداً للمسافر بعد الخانات القذرة والاكواخ الخالية من وسائل الراحة . وقد لفظ صديقي المستر ابوت ، قنصل بريطانيا في بيروت يومئذ ، آخر انفاسه تحت سقف هذا الشيخ . وكان وفد عليه من رأس العين ، من هذا المكان البديع للراحة والاستجمام الذي يبعد عن بعلبك ميلين . وقد عرفته ووصفته ...

فاجأ الموت صديقي المستر أبوت مفاجأة اذ هو على هذه الذروة المنفردة من ذرى لبنان . ومع ذلك فانه كان حامداً شاكراً ان تسلمه المصادفة الى عناية هذا الشيخ ولطفه . ولا شك أن اهتمام الشيخ كان عظيماً لهذه المناسبة المفجعة . فأشرف على نقل الجثة الى قبرها الموحش اشرافاً حافلاً بالتكريم ، ومشى في الجنازة ومعه وجوه القرية وجوارها .

لكن مع هذا ، يجوز ، ولو في النادر ، ان يبتلى المرء بالاضطهاد حتى في اهدن . وبرهان ذلك ما وقع بعد سنتين للدكتور و ... صديق الكاتب . كان طبيباً ، وكان قد لبث عامين في دمشق وسائر الانحاء . فانتقل الى لبنان ، ثم الى اهدن ، على أمل ان يكون فيه نفع للشعب بدعوتهم الى ديانة انقى وأقل شوائب . راح يوزّع في البيوت والدساكر نسخاً من انجيل القديس يوحنا ومن سائر اجزاء العهد الجديد ، مترجمة الى العربية ومطبوعة في انكلترا . ولو سبق له ان كان على معرفة افضل بكهنة لبنان ، للطّف من غيرته شيء من التستر . فما اسرع ما علمته الاختبار

مدى العنجهية والتعصب لدى كثير من هؤلاء الناس ، ومدى خصومتهم لكل تجديد يراد ادخاله على نظم الايمان [1] التي هي ارث لبنان . لقد عثر رجال الكهنوت هؤلاء ، خلال زياراتهم للبيوت، على كثير من النشرات ونسخ هذه الاناجيل. فأفضت الاخبار فوراً الى مسامع البطريرك الماروني الكبير في دير قنوبين – هذا المنعزل القاتم الموحش الذي يبدو بين المهاوي الجبلية معلقاً بين السماء والارض حيث لا ينفذ ضوء الشمس إلا قليلاً . فلم تبطىء الاوامر ان صدرت بمنع توزيع الكتب وجمعها من كل البيوت التي تلقتها ، وانذار الطبيب الاجنبي بوجوب الامتناع عن نشاطه في هذا السبيل وإلا تعرض للحرم . فلم يعر الطبيب هذا التهديد اهتماماً كبيراً ، وواظب على زياراته اليومية التي كانت نافعة للروح نفعها للجسم ، اذ كان صديقي يتعهد المرضى في اهدن وجوارها ، فيأسو اوجاعهم دونما مقابل . فلم تلبث نصائحه وادويته ودماثته ورقة طباعه ان جعلته محبوباً في كل عائلة . وقد نزل قصر الشيخ وأصبح أثيراً عنده . ولم يكن للشيخ عهد تحت سقفه بمثل هذا الضيف النافع .

وعلم البطريرك فوراً بعناد هذا الطبيب ، فاصدر الحرم فعلاً ، ومنع بموجبه كل عائلة ان تستقبله في بيتها او تعطيه ناراً او خبزاً او ماء ، او تتصل به ، وإلا تعرضت لاشد العقوبات، حتى اذا كان يوم الاحد تُلي هذا الحرم من على منبر كل كنيسة في المنطقة . فسرعان ما أثر الحرم اثره . فأغلق في وجه الطبيب كل بيت .

[1] حذفنا من الاصل نعت غير لائق . – المعرب .

ولم يبق من باب ينفتح له ابتهاجاً بقدمه. لم يبق من صوت والد او طفل يرحب به ذلك الترحيب الحارّ ، حتى البيوت التي كان في داخلها يتعذب المرضى والمحتضرون لم يجسر اصحابها ان يسألوه القاء نظرة عليهم او دنوّاً من فراشهم .

ولحظ الطبيب ارتباك مضيفه الشيخ . على ان الشيخ النبيل ساعة رآه يتهيأ للانتقال التمس منه ان يبقى في رعايته ، وان لا يفكر في النكد الذي سيتعرض له الشيخ من جرّاء الامر . وأكد له ان الحرم لن يغير في حسن معاملته له واحترامه إياه .

فاعتذر الضيف عن قبول هذه البادرة الكريمة . وانسحب بمعاونيه وخدمه الى بقعة خضراء جميلة تفيء عليها بضع شجرات بديعة على مقربة من القرية . فمكث هنا شهرين في اعجب وضع يمكن تصوره . كان ينتظر سنوح الفرصة لديه مرة اخرى لعمل الخير . إلا ان الفرصة هذه لم تسنح قط . وبقي مكانه في وسط كثرة من السكان على مشهد دائم من البيوت والعائلات والاغنياء وخدمهم ، ولكنه في عزلة اشبه بعزلة روبنسون كروزو على جزيرته المنفردة . لم يكن ثمة احد يحمل اليه الخمر ، مع ان كروم لبنان تكاد تكون على باب خيمته . ظلّ صباح مساء يرمق الدخان يتصاعد فوق سطوح تحتها عائلات طبيها وشفاها . على ان احداً لم يعطه الخمر . وكان كل مسكنه ومسكن جماعته ثلاث خيام مضروبة تحت الاشجار على الضفة المعشبة . ولكان محتماً ان يموتوا جميعهم جوعاً لولا انهم حظوا في الضواحي برجل مسنّ ، له من الصلابة ما قوّاه على اهمال قرار كنيسته . فكان ينحدر وولده الصبي الصغير وحماره من الجبال مرتين في الاسبوع ،

فيهبط طرابلس ويرجع بالزاد والخمر للجماعة . حقاً انه كان يقبض اجراً طيبـــاً ، لكنه كان يعرض نفسه لسخط الكهنة وتوبيخ الضمير ، وان لم تكن وطأة ضميره ثقيلة عليه .

في كل احد ، طوال المدة التي لبثهـــا الدكتور « و » تحت الشجرات ، ظلّ الحرم يتلى من علـى منبر كل كنيسة حتى يبقى الشعب على حالة دائمة من الاضطراب والذعر . ولو ان الطبيب كان مواطناً (المقصود : لبنانياً . — المعرب) لا انكليزياً ، لـكان شاطر المسكين اسعد الشدياق مصيره . فقد زج اسعد هذا لمحاولته الاصلاح الديني ، في حجرة من حجر الحبس في قنوبـــين ، يُطعم خبزاً وماء عاش عليهما بضعـة اشهر عيشة هي الموت البطيء ، الى ان قضى نحبـه . ولا ريب ان بعض الكهنة كانوا يودون لو يسمعون بهلاك الطبيب . إلا انهم لم يجسروا عـــلى أخذه بالشدة والعنف .

ومن عجيب الامر أنه ، بعد ان أقام على هذا النحو ما يقارب الثلاثة الاسابيع ، طفق الناس يستأنفون زيارته ، لكن ليس لقصد دينيّ او ودي . انما كان وفودهم عليه ليطلبوا نصيحته في عللهم وأوصابهم . كان الرجال والنساء والاطفال يقفون جماعات عـــلى باب خيمته . وكانوا احياناً يحملون المرضى معهم ويقبلون منه العلاج لاهفين . إلا ان واحداً من اولئك جميعاً لم يكن ليعطيه كسرة خبز او شربة ماء او يأذن له بالدخول الى بيته حتى ولو كان مدقعاً معدماً . لقد كان لقرار البطريرك نفوذ هائل عـــلى اذهانهم . ولعلهم لم يكونوا يعتبرون ان اتصالهم بالطبيب ، على هذا النحو في سبيل صحتهم وحسب ، إنما كان عصياناً لروح الحرم .

ويقيناً ان شعور الطبيب ايام الآحاد لم يكن مما يُغبط عليه. كان لا يستطيع ان يطرد عن نفسه شعور الغمّ كلما سمع اصوات اجراس الكنائس تدعو الشعب الى الاجتماع ليسمعوا أنـــه هو وأهدافه كلها مما يجب لعنه لاذاه.

فلما انقضى شهران وجد الطبيب آخر الامر ان هــذا العداء الذي يحيط به لم يخفّ ولم يلطف. ورأى ان كل احتمال ان يستأنف اداء الخدمة والنفع قد زال الآن. فقوّض خيامه ورحل عن اهدن الجميلة، اهدن التي كانت عليه امتحاناً قاسياً[1].

كان مستحيلاً ان يكون استعداد وتأهب افضل من استعداد الدكتور «و» وتأهبه في هذا السبيل. ان اهل لبنان لقوا من هذا الغريب اعظم النفع والبشاشة والرفق. لقد اقبل فنزل بين ظهرانيهم، لا يدفعه دافع اناني من طلب مسرّة او شهوة لتسقط اخبار، فتخلوا عنه جميعاً[2]. لم يرفق به واحد من السكان. فأما الرجل المسن الذي كان يهبط طرابلس، فانما كان يصنع ذلك في سبيل الاجرة. وكأن الدكتور «و»، تحت خيمته التي لم تكن مأوى يحسد عليه ساعة تمطر السماء او تعصف الريح على الجبال، أحس بانه انما يجهد سدى عبثاً. ومع هذا، فلبنـان كان حقلاً بكراً جديداً باعثاً على التحمس. ولم تكن قدم قبل قدمه وطئت اهدن في سبيل هــذه القضية. والمرة الاولى التي زار فيهـــا

[1] آثرنا هنا الاستغناء عن فقرة تتعلق بآراء مذهبية خاصة بالمؤلف. – المعرب.

[2] يلاحظ ان المؤلف هنا اذهلته القسوة في الحكم عن موقف الشيخ الطيب الذي ناشد الدكتور «و» ان يبقى في ضيافته وكنفه. – المعرب.

الدكتور «و» اهدن كانت لمناسبة احتضار المستر «أ»، القنصل[1]، وقد حفر هو له اللحد بيديه الى جانب الهضبة في اسفل . اما زيارته الثانية فكانت هي التي أبتلي فيها بالاضطهاد . فأما الزيارة الثالثة التي هو موشك على القيام بها لاهدن فستكون على الارجح اوفر حظاً من البركة .

١ يقصد المستر ابوت ، قنصل بريطانيا آنذاك في بيروت . — المعرب .



الكنيسة وبيت الشيخ في اهدن

بشري

موقع هذه القرية على نهر قاديشا المقدس ، ويبدو منحدراً من الثلوج التي ترتفع فوق الارز الشهير ، وعليه جسر صغير يعبر عليه الناس من جانب من واديهم الضيّق الى جانب . ويجهد ما يصح ان يسمّى هذا الموقع الفذّ وادياً . فان الفسحة المأهولة التي تبدو في اسفل ، لتظهر ضيقة جداً مسوّرة بالمهاوي الهائلة ، وعلى وجهها هنا وهناك كتل مبعثرة من صخر . فهي والحالة هذه أشبه بشق عميق رهيب ، بسجن حقيقي صنع الطبيعة ، تخيف سكناه وتروع . لكن لا يكاد المسافر يهبط بشري حتى تتناول عينه بالنظر بيوتاً مريحة مرضية ، وفلاحين في حقولهم الصغيرة وبساتينهم التي انتزعوا ارضها من الصخر ، الى قطعان ترعى ازاء النهر ، وحمائم وطيور داجنة تغطي سطوح البيوت التي تنهض بينها اشجار السرو والتين والصنوبر والتوت ، الى نساء واطفال في البسة جيدة وصحة هي مثال العافية ، عدا الترحيب اللطيف بمقدمه .

ان في هذا الوادي لشيئاً أكره على الصمت اكراهاً ، شيئاً مهيباً موحشاً . ولكن المنازل واخلاق الشعب وسيماء وجوههم تشتمل على كثير من البهجة وحسن الضيافة ، حتى لقد بدأنا نتعشق

المكان لهذه المناقضة بنوع خاص .

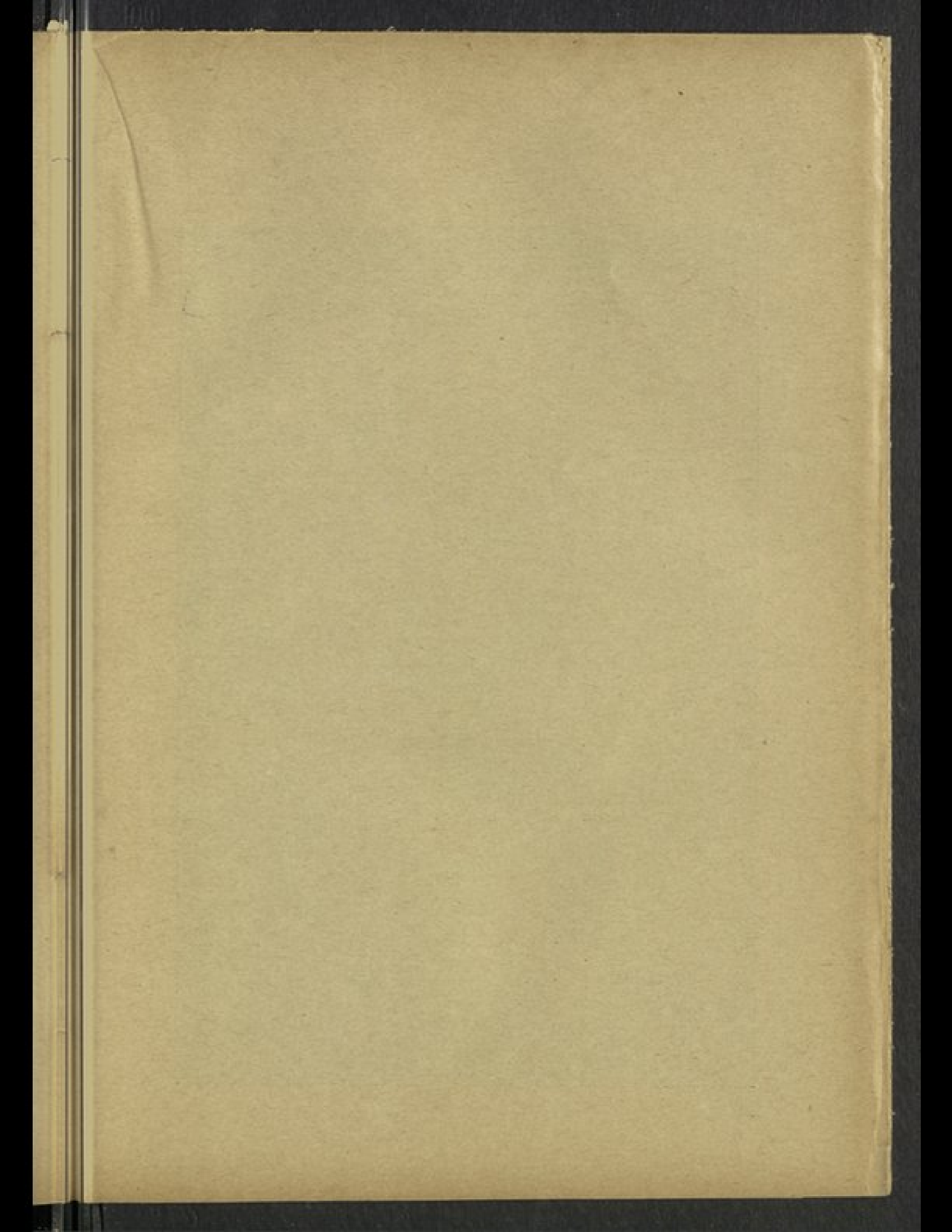
تقوم القرية نفسها على طرف مهوى سحيق منفغر الشدق الى يمين حيث يأخذ بالانحدار شطر دير قنوبين . ويوحي مشهد القرية أنها في كنف مطمئن ، برغم الحفافي الجبلية المدلاة فوقها تدلياً ، والحفافي الجبلية تحتها . فالاشجار محشودة حولها في كثافة . وحقول القمح الصغيرة تنزوي فيها لصق الحيطان والجدران . وكنيستها المتواضعة تنهض على حافة المهوى .

اما النازل من فوق الى بشري فيمر بادراج منحوتة في الصخر . ثم يجتاز معبراً يلتف التفافاً حول اطرافها . وهو مسلك عسير جداً في بعض اقسامه . ويقال ان الناس يتعرضون احياناً للهلاك عليه في الشتاء . ويصعب على المرء ان يتصور شيئاً ادعى الى الرهبة والوحشة من هذا المشهد وقت تغطي الثلوج هذا الوادي وسطوح بيوته ، وتتراكم في عميق افجاجه . عندئذ ، يصبح المكان مستحيل المنال على الغريب ، وان كان في محاولة الوصول اليه ما يغري ويقلق . فهناك جرس الكنيسة يطوّح باصداء رنينه فوق هذا الوعر الثلجي ، والاصوات ترنم الترنيمة المارونية ، وزئير الشلال يدوّي متغلباً باصدائه على كل صدى . حتى اذا اقبل المساء كان للمسافر ان ينضم الى حلقة اسرة الشيخ حول نار من الحطب الجزل ، تقمع البرد من الابدان والوحشة من المخيّلة . وكثيراً ما تُلقى الى هذه النار اشجارٌ بكاملها . ويأتي الجدي او طير الدجاج او القنيص مشفوعاً بخمور لبنان السخية ، فيؤلف العشاء الذي تؤيدك فيه رغبةٌ بساطةُ العادات .

وهذا الشلال البادي في وسط اللوحة ينهمر من علو مائة قدم .



بشري ، على نهر قاديشا



وتمتد وراءه حقول كبيرة من جليد بلون هو مزيج الخضرة والزرقة . والى بعض مسافة ، صوب اليسار ، تبدو المجموعة الشهيرة من اشجار الارز على قمّة الجبل . وهي تبعد نحو ثلاث ساعات من بشري التي يقتضي الهبوط اليها من الاعالي نحو الساعة . وفي كل سنة ، في شهر حزيران ، يصعد اهل بشري واهدن وسائر الاودية والقرى المجاورة الى غابة الارز هذه ويتناولون [1] في ظلالها . الرجال والنساء والاطفال جميعهم يعتبرون امتيازاً لهم ان يُقبلوا فيركعوا ويرنموا ترانيمهم تحت هذه الدوحات المعمّرة . ولا شك ان هذا الاحتفال يترك طابعاً لطيفاً في الذاكرة على مدار العام ، ويمس مشاعر الاطفال مساً رقيقاً عذباً . فهنا يقضون في الغالب يوماً او جملة ايام ، فيشقّون صمت هذه العزلة البديعة باصواتهم الحلوة لدى بزوغ الشمس وغروبها وفي فترات تتوالى خلال النهار .

حقاً انها لبقعة يتمنى الكثير ان يستريحوا فيها من اتعابهم ويطمئنوا في اللحود ! فتحت هذه الضفة حيث بكى الملوك وانتحب القديسون — تحت هذه الشهود العريقة ، ألا يكون مضطجع الراحة مضطجعاً مباركاً ؟

هنا في ظلٍ من آخر امجاد الارز ، حيث تحشرج الريح شتاء في ثنايا الغصون حشرجة اشبه بالتأبين ، تصعد دونما انقطاع ، صيف خريف ، ترانيم الشعب وصلواته !

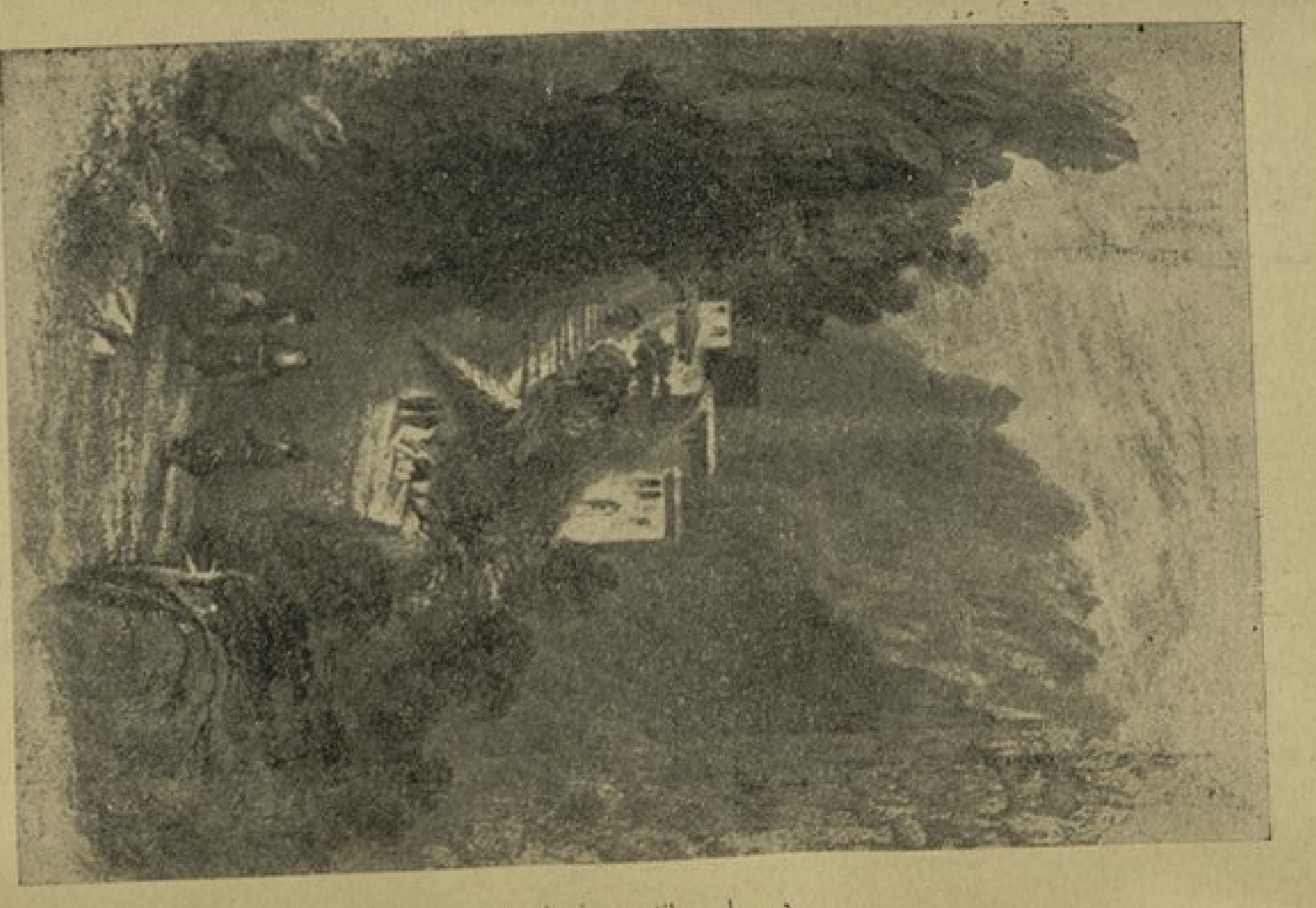
[1] المقصود هنا التناول الديني . — المعرب .

دير مار مطانيوس في جوار اهدن

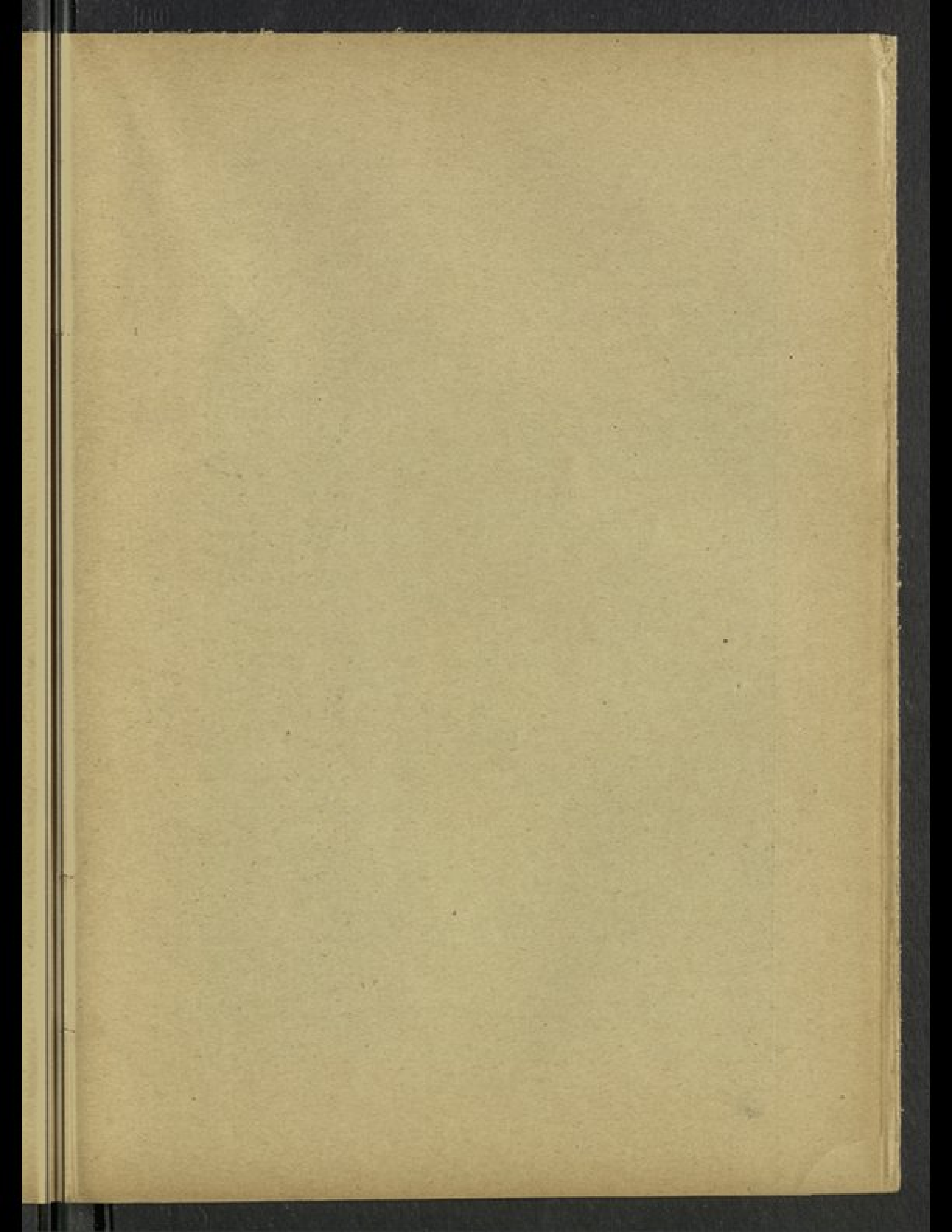
لهذا الدير جدران بيضاء تجثم جثوماً جريئاً على حافة صخرية من وادٍ عظيم العمق يمتد انحداراً من جهة الارز صوب نهر قاديشا . وتغريك هذه الجدران بتصويرها من اي ما ناحية جئتها . ان المشهد رومانطيقيّ . وسبل الدنوّ منه وعرة مسننة في هبوطها ، تصعد عليها من القاع اصداء اصوات الشلالات المنصبّة في الوادي .

لا يبعد هذا الدير عن دير قنوبين الشهير الذي يشبهه جداً . على ان بناء دير قنوبين يفوقه متانة على متانة . والحق ان دير مار مطانيوس مقرّ موحش لا يغري المسافر بان يتخلّف تحت سقفه . وقد امضيتُ فيه نهاراً وبعض الرفاق ، فاشترينا حملاً من المكان المجاور هيأه لغدائنا مطبخ الدير . وقدّم لنا الدير خمراً طيبة وخضراً فيها الكوسا المحشو بالارز والافاويه وفرَم اللحم الدقيقة . ومحشوّ الكوسا اكلة شائعة محبوبة في الشرق .

وظهرت لنا غرف الدير بمظهرٍ مقبول . لكن حين تكون في لبنان اديرة ينزل فيها الضيف منزلاً رافهاً بديعاً ، فعلامَ اذن يقيم في مار مطانيوس ؟ انه دير للتوبة والتفكير لا للمرح والحبور .



دير مار مطانيوس في اهدن



فالشمس تتدهور في وقت باكر بين الجلاميد الرهيبة ، وتصعد من الاعماق ظلمة تبعث قشعريرة باردة ، وتتعالى اصوات المياه في انهارها منذرة مهدّدة ، حتى ليتصوّر الزائر الثائر الاعصاب انه في وادي الاشباح حيث سمع كرستشين [1] اصوات الشياطين وزحمة اقدامهم في الذهاب والاياب . وليس لآباء هذا الدير سيماء مبهجة . فهم اهل بلادة وكمد وزمانة ، استنقعت افكارهم طوال سنين كثيرة ، وتجمّدت عواطفهم بقلّة المراس ، او تجمّد فيهم على الاقل ذلك الشطر الحارّ الحنون من عواطف البشر وطبيعتهم . يستحيل على المرء ان لا يشفق على هؤلاء الناس . ان الاشخاص في مقدّم الصورة لهي رسوم دقيقة لهم . جميعهم مرسلو اللحى . وكثير منهم يعمّرون جداً ، لطمأنينة التي تستغرق فيها حياتهم ، ولنقاء المناخ نقاءً حاداً ، ولرتابة مواظبتهم على كل عادة من عاداتهم . الجديد لا ينفذ البتة الى ارواحهم . والعقل في سيره يعجز عن تسلّق جدران مار مطانيوس . انهم ليحيون حياة نعاس ، لا حياة احلام . فليس لهم كفاية من خيال تجعلهم يحلمون . ولو ان سبباً من حرارة الحماسة توفر لهم لكانوا ممن تحلّ عليهم البركة .

ينهضون في اعمق سَحَر من النهار ليردّدوا صلوات الصباح . لكن قبل ان يرتدوا ثيابهم ، يترتب عليهم ان يتلوا صلواتهم وهم في الفراش . وهكذا يستهلكون بضع ساعات في التعبّد او في

[1] كرستشين Christian هو بطل الرواية الرمزية الدينية التي الفها يوحنا بنيان . — المعرب .

مظاهره على الارجح . وقد اتيح لي ان احضر صلاة العشاء في كنيستهم . وكان حاضراً عدد قليل من الآباء . فتلا الكهنة المراسم بصوت مرتفع آليّ سريع . فلما لحظوا انني جدّ منتبه لما يفعلون ، وجدوا في ذلك موضوعاً للسلوى واخذوا يومئون اليّ ويومىء بعضهم الى بعض ساخرين من اهتمامي بما يقومون به من شأن . ولا غرو ، فالمواظبة الدائمة على تكرير الصلوات وأية مراسم اخرى ، طوال ساعات كثيرة كل يوم ، امر يكفي للقضاء على روح التعبّد ان كان سبق لها ثمة وجود .

ولقد اتيح لدير مار مطانيوس في الاجل الاخير ان يكتسب شهرة موجعة مفجعة . شهرة أتته عن طريق اعتقال اسعد الشدياق وسجنه . وما جريمة اسعد هذا سوى محاولته ان يُدخل الى لبنان مجرد إيمان بسيط نقي [1] . كان اسعد فتىً ملاّكاً بمقدار ، وصاحب نفوذ ما ، في الجبل . تولى تعليم اللغة السريانية للمستر كنغ احد المرسلين الاميركيين في بيروت . وهو رجل عظيم الموهبة انقضت على اقامته في لبنان سنون كثيرة . وفيما كان الرجلان يقرآن معاً كتاب العهد العتيق بالسريانية ، كان اسعد يعلّق على بعض الآيات ويدل المستر كنغ على الاخطاء والنواقص في مذهبه ويطيل في ذلك الشرح . على انه لم يحسب حساب التكاليف وهو يفعل ما يفعل . فان تلميذه كثيراً ما كان يقابله بحجج وتعليقات اقوى وأوضح من حججه وتعليقاته . واذا بأسعد ، خلال بضعة اشهر ، يستسلم شيئاً فشيئاً للعقيدة .

[1] استغنينا هنا عن ثلاثة اسطر ضمنها المؤلف آراء مذهبية خاصة . — المعرب .

ثم اذا به [1] يصبح بروتستنتياً مخلصاً . فأحدث هذا القرار الذي أقدم عليه اسعد ضجة في لبنان . لقد كان معلماً ماهراً فلبث يعلم ويقيم بين البروتستانت . وقيل انه عازم على نقل اجزاء من الانجيل الى العربية لنشرها بين مواطنيه . ذلك بان مراسم الخدمة في الكنيستين المارونية واليونانية تقام على الاكثر باللغتين القديمتين السريانية واليونانية ، وهما لغتان لا يفهم منهما الشعب كلمة واحدة . وليس يؤذن إلا في المدارس بقراءة المزامير باللغة العربية . مع ان لغة اهل لبنان المحكيّة انما هي العربية ، وان تكن هي الدارجة لا الفصحى . فنشر « العهد الجديد » بهذه اللغة التي يستطيع ان يقرأها قسم من الشعب ، ويستطيع ان يفهمها الباقون اذا قرئت عليهم ، كان بمثابة اسداء نعمة لا تقدّر . وقد تمّ هذا الامر فيما بعد ، ولكن ليس على يدي اسعد . غير ان فعلة اسعد اعتُبرت مثالاً جديراً بان تسري عدواه . فعزمت السلطات الكهنوتية على قمع هرطقته وهي في اول نشأتها . فجرى القبض على اسعد واستيق سجيناً الى دير مار مطانيوس . أستُدرج استدراجاً من بيروت الى الجبال ، وفيها اعتقل . فقضى جملة اشهر في حجرة ضيقة بين جدران هذا الدير يرقبه حارس يقظ ، ويُبتلى بالحرمان ، ويُضيّق عليه بالحجز . لكن ذلك كله لم يقلقل من ثباته ، بل جعله اقوى تعلقاً بهذا الشعور الجديد الذي استولى عليه . وتوصّل الى ان فرّ من حجرته وتجاوز جدران مار مطانيوس وانتقل الى كوخ مجاور . وقد كان عليه ، بعد ان ذاق من تلك المراحم الرقيقة – مراحم الكهنة – ، ان

[1] اسقطنا من هذه العبارة كلمات غير لائقة . – المعرب .

يفرّ من ربوعهم الى طرابلس او بيروت حيث لا جرأة لهم على تناوله بالمكروه وحيث تحميه حماية اوروبية . غير انـــه لاستقامته في غايته حرص على ان يقنع اولئك الكهنة انه ليس بمسعّر ناراً ولا بمراء منافق كما زعموه ، وان ايمانه جدير بان ينزع من قلبه كل خوف . لذلك تريّث الى جوار الدير اياماً عدة ، فألقي عليه القبض للمرة الثانية . ولم يكن سجنه هذه المرة في مار مطانيوس ، بل في قنوبين حيث الدير أوثق بنيانـاً وأمتن.

وهنا في دير قنوبين يقـــيم البطريرك الكبير الذي تمّ بأمر منه حبس اسعد في دير مار مطانيوس . وعلى ذلك لم يكن باستطاعة اسعد ان ينتظر منه الرحمة الكثيرة . زُجّ الاسير في حجرة منع فيها من تنفس الهواء النقي . ولم يُقدّم له من الغذاء الا ما يكفي إمساك الرمق ولا يكاد . ويقال ان حصته اليومية من الطعام لم تتعدَّ وجبتين من خبز وماء ... ليس يُعلم بالضبط مدى الزمن الذي مرّ عليه وهو على هذه الحال . لكن لم تمض اشهر جملة حتى انهارت عافيته تحت وطأة هذه المعاملة . وأعلن الرهبان آخر الامر انه توفي . وقد كان المرسلون جهدوا في سبيل اطلاق سراحه . على ان البلاد في تلك الحقبة كانت في غاية الفوضى : الجيش المصري في بر الشام ، والاساءات التي تتناول الاشخاص تمر دون ان يكترث لها احد ، ووضع القناصل يتوقف على ظفر الغازي . ومع هذا فيوم أعلن نبأ وفاة اسعد ، انطلق التاجر الدمشقي السيد ت... الى ابراهيم باشا ، فزوّده الباشا فوراً بضابط خوّله تفتيش دير قنوبين . لكن التاجر والضابط ، لما وصلا الى الدير ، لم يؤخذا الى حجرة اسعد الحي ، بل الى قبره

الرطب .

ان دير قنوبين ، حيث لقي الهلاك هذا الفتى المنكود ، لجدير بان يكون محكمة من محاكم التفتيش . يقوم بناء الدير على منحدر مسنن ، فيبدو كأنه معلق بالفضاء يدعمه جدار شاهق مشيد لصق جانب الجبل . وفي المكان هاوية عميقة تمتد صعوداً في الجبل مسيرة ساعات كثيرة ، وتكسوها النباتات البرية من قاعها الى الرأس ، وتنحدر على جوانبها جملة من السيول . اما موضع قنوبين فهو حوالى منتصف الطريق انحداراً مع احد جانبي هذه الهاوية ، على فوهة كهف كبير . وليس في الدير سوى بضع غرف صغيرة تنتأ الى امام فتستمتع بضوء الشمس ، بينا البقية الباقية من الغرف كلها تحت الارض . وقد كان حبس الاسير في واحدة من هذه الغرف الاخرى ، فكان النور الذي يتسلل الى حجرته قاتماً يكاد لا يكفيه للقراءة حتى في رابعة النهار . شد ما آلمه الرهبان ، وهدده البطريرك . وهو الى ذلك لا رفيق له إلا اماني الوحدة وتأملات العزلة . وشد ما كان موجعاً له في مطلع سيرته ان يجد اولئك الذين دعوه الى اتباع هذه السيرة قد تخلوا عنه وعجزوا عن انقاذه .

للبطريرك الماروني ، وراء اقفال دير قنوبين وقضبانه الحديدية ، سلطة عظيمة في الجبل ، سلطة دقيقة واسعة الانتشار اشبه بسلطة ديوان التفتيش ، تمتد شعبها ويسري نفوذها الى كل دير ماروني وكوخ ومنزل . ولم يكن اسعد ليتمتع بنصيب من حذق وشجاعة يواجه به سلطة كهذه السلطة . غير ان عذابه مع هذا لن يذهب سدى . فاحتجاجات هذا الماروني المسكين ونداءاته من

محبسه – هذه النداءات التي لم يجب عليها احد بسوى السخرية والحقد – لا بد ان تصعد من تلك الهاوية العميقة في الجبل وتدعو الآخرين ان يشهدوا للحق الذي كان شهيده.

لقد حاول كاهن او كاهنان من الطاعنين في السن ان يردّوا اسعد الى مواضع امله التي صدف عنها وطقوسه الخرافية [١]. وقد عجز اولئك الكهنة ان يدركوا سبب هذا التبدّل الذي طرأ عليه، فحمله على ترك معتقد آبائه وكنيسة اجداده وانسبائه واصدقائه. الا انهم كفوا عن ازعاجه، فيما بعد، ساعة وجدوه غير قابل للتأثر ولا الاقتناع. فلينتظر اذن موته بلذة وغبطة. ان عاقبته التي انهارت لم تثر فيهم الشفقة. راحوا يرقبون آلامه ببهجة وحبور. ولم يكن لينفذ الى حجرته شعاع من اشعة الفرح. وفي الشتاء كان برد الحجرة وظلامها كبرد القبر وظلامه.

أسّس دير قنوبين الامبراطور ثيودوسيوس الكبير. واعيد بناء هذا الدير مراراً كثيرة. غير ان الكنيسة المقدودة في الصخر باقية الى اليوم على نحو ما كانت عليه اول نشأتها. وهي على اسم العذراء، وفيها عدد من البطاركة القدماء يطلون من صورهم على الجدران عابسين متجهمين.

يقيم البطريرك الحاليّ في هذا الدير اكثر الوقت. وكل مـا يحيط بالمكان قـدسيّ وان اعوزه الجو الادبي. فالمكتبة التي كانت في يوم من ايام الامس غنية حافلة بديعة قد بُعثرت على

١ لا يغرب عن بال القارىء ان هذا راي المؤلف. – المعرب.

التدريج . فليس لها من اثر الآن . ان قنوبين هي « لا تراب »[1] لبنان في مؤقعها وقسوة مناخها ، وان يكن ذلك لا ينطبق على الطعام فيها ، فالخمور طيبة ، والخوان في غرفة الطعام محمّل تحميلاً وافياً . ومع هذا فالاديرة اللبنانية اقل طرافة ونشاطاً ذهنياً من كثير من جماعة « لاتراب » .

وكنيسة دير مار مطانيوس مقدودة في الصخر وواجهتها من حجر . ليس فيها منبر . اما الخدمة فتقام فيها مرتين كل يوم . والكاهن الذي يقوم بالخدمة يُدخل نفسه في نوع من « قرّاية » ، بينما يقف الباقون ، اذ لا مقاعد حتى من ابسط صنف في الكنائس المارونية . والجماعات التي تحضر الصلاة في الآحاد والاعياد تمكث واقفة طول مدة الخدمة .

في بستان مار مطانيوس خضر شتى وفواكه كثيرة كالعنب والرمان وغيرها . ولم يكن على هذه الصخور الوعرة ارض ما . الا ان حائطاً اقيم على موازاة هذه المنحـــدرات ، فاذا بسيول الشتاء التي تقبل من علو ، جارفة التراب ، تقف عند الحائط وتلقي رواسب من حملها . وهكذا تكوّنت عـــلى مرّ الزمن ارض مُهدت وقسمت « جلالي » .

ولا يزال الناس المصابون بالجنون ، حتى الوقت الحاضر ، يُرسلون من البقاع المجاورة الى دير مار مطانيوس طلباً للشفاء . وأحرى

١ La Trappe نظام رهباني اسسه اصلا روترو الثالث كونت برش في العام ١١٤٠ . وقد انتقلت هذه الرهبانية من فرنسا الى سواها من اقطار اوروبا ، وهي رهبانية مبنية على التقشف في الحياة والانقطاع الى العمل البدني . — المعرب .

بمثل هذا المكان أن يجن العقلاء لا ان يعقل المجانين . فالمنحدر الى الوادي المظلم موحش جداً ، وحفافي الجبل من كل صوب عابسة عبوساً قمطريراً ، حتى لتخال نفسك ، إذ تهبط هنا ، أنك تستأذن مودعاً جميع اشياء الطبيعة المباركة المبهجة ومن ضمنها البساتين الحلوة ، والشاطىء المضاء بالشمس ، والراعي ، والمروج ، والبحر الجميل وعنفوان امواجه . ان المرتفعات الشاهقة لتتدلى فوق هذا الدير حتى لتحرمه الشمس إلا بعض خيوطها الرقيقة . ولئن يكن يبدو على سطح الدير وجدرانه في الصورة المنقولة عنه فيض سخيّ من الضوء ، فذلك بان الصورة قد أخذت ظهراً ، والظهر هو الميقات الوحيد الذي يمكن ان يحدث فيه مثل هذا الامر . فأما معظم النهار ، فالدير بسطحه وجدرانه بارد قفر من الشمس . وما من نقطة او زاوية او طبقة من صخر في الجوار إلا وهي مغطاة بالصلبان التي لا تبدو في الصورة .

على مقبرة مار مطانيوس قليل من المسحة الشرقية . فالظلال الموحشة والمماشي تحت اشجار السرو والشربين لا تدعو السائر الى التأمل ، ولا تخيّم بكثافة وعمقٍ على القبور . والقبور في مار مطانيوس كقبور العرب الصحراوية ، مقامة تحت الحفافي الناتئة حيث يستحيلُ على العاصفة ان تهب او على الحرارة ان تشتد وتُتلِف . ما اكثر ما يرقد هنا من اجيال ، وما افظع الخواء الذهني والفراغ العقلي الذي يعرضه تاريخ هذه الاجيال لو كتب ! لقد كفّ البشر منذ اجل طويل عن الاهتمام بتأملات الناسك المنفرد ومجاهداته وتخليه عن كل شيء في الحياة ينطوي على ذوق او بركة او بهجة . ومع ذلك ، فأي سفر مبتكر ، او سلسلة

من اسفار نمكن كتابتها عمن ينامون ويعيشون طيّ هذه الجدران ، لو ان واحداً من الرهبان كانت له موهبة الكتابة ، فاستطاع كالفس بروت ان يصنف مادة من مخطوطات مكتبته ومن بنيات أفكاره .

قرية اهدن

تقول الاسطورة ان هذه الناحية كانت موضع جنة عدن . اما منشأ الاسطورة فجمال المكان وروعته . ومع ذلك فالطبيعة الالبيّة [1] القوية التي تتسم بها هذه البقعة تجعل الاسطورة مستبعدة .

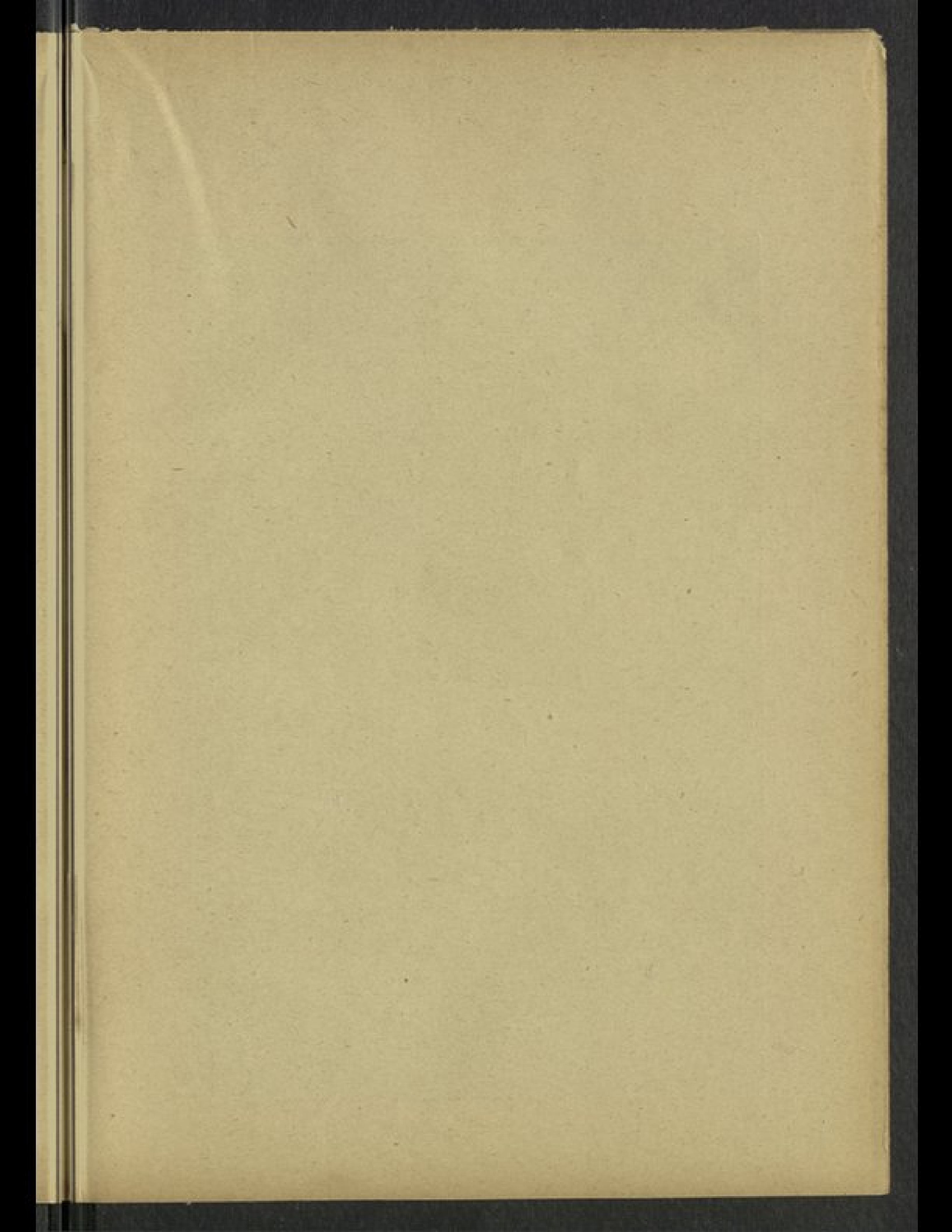
وعلى كثب يفرع ارز لبنان العريق . وتلك الهضبة الى يمين ، وعلى قمتها القرية ، انما هي كسائر الهضبات جزء من لبنان . ان اهدن بمعنى الكلمة الحرفيّ لوكر نسر ، تكاد تكون معلقة بين السماء والارض ، شأن حارس يخفر الارز الخالد الذي يمكن الاشراف عليه ، كتلة خضراء دكناء ، من خلال شبابيك المنازل المشيدة على اكمة اعلى . وتنهض جبال القرية القمم المكللة رؤوسها ثلجاً ، الغارسة اقدامها في مراعي خصبة تسرح فيها القطعان وتصعد منها اغاني الرعيان كأنها منفجرة من الاثير .

جوار اهدن محروث حرثاً صالحاً ، مزروع توتاً وكرماً . وليس من كوخ إلا وهو مموّن بالخمر . ولا تقلّ اصناف الخمور

١ - نسبة الى جبال الالب . – المعرب .



قرية اهدن



المصنوعة في جبال لبنان عن اثني عشر، اكثرها حلو قوي لذيذ، ومنها اثنان او ثلاثة ممتازة ولاسيما الخمر الشهيرة الذهبية اللون.

ان نقاء المناخ اكثر السنة في هذه القرية ليجعلها مكاناً موصوفاً. ويبلغ من لذع هوائها في الشتاء ان ينتقل عنها اهلها منحدرين الى زغرتا. يمكن القول ان اهدن هي باغنيريس لبنان. ولو انها كانت سهلة المنال كالبرانس [1] لكانت الجماعات الغفيرة من طلاب المتعة وزوّار المشاهد تغطي حقولها الرومانطيقية. وتتبح الاديرة الموفورة في جوارها ملجأ طيباً يلوذ به المرء من رتابة العيشة الجبلية ليحظى بالسلوى في معاشرة بعض الآباء الرهابين، ولينزل ضيفاً على مكتباتهم ومطابخهم.

يشتهر الموضع هنا باشجار توته التي لا تحصى، شهرة مصر باشجار نخيلها. فترى التوت في اهم شطري السنة يكسو المشهد في كل صوب خضرة مبهجة. ولما كان هذا التوت لا يزرع رغبة في ثمره ولكن في ورقه الذي يُربّى عليه الكثير من دود الحرير، يعمد الاهلون الى قَطّ قصلة الشجرة على ارتفاع ست اقدام تقريباً، فتنبثق عندئذ فروع الشجرة بل قضبانها مورقة ابدع ورقٍ وأبهاه. وعلى هذا ينتج في لبنان كل سنة مقدار كبير من الحرير.

يغرس التوت على صفوف مستقيمة. فاذا كانت اشهر الشتاء حرثت الارض فيما بين الصفوف بمحراث خفيف لتتمكن التربة من اجتراع ماء المطر.

١ Les Pyrénées

اما الاكواخ ذات السطوح المربّعة ، على ما تبدو في الصورة ، فهي شكل البنيان العام . ولعل هذا الشكل كان مستعملاً منذ اقدم العصور . يُحمل التراب الى السطوح حملاً ويُسوّى على مستوى منتظم ، ثم يُرصّ بمحدلة حجرية منعاً للامطار، التي تغزر في هذه الناحية ، من التغلغل فيه والرشح الى داخل البيت . وبالطبع ، ينمو العشب في التراب على هذه السطوح نمواً حراً . وهو العشب الذي ذكر صاحب المزامير ان لا نفع فيه اذ قال : « ليكونوا كعشب السطوح الذي ييبس قبل ان يقلع » .

وبهذا الصدد اقول ان تربة الجبال تربة ثربة اعظم الثراء، ومغوية اشد الاغواء لعالم النبات . فهي حافلة بمقدار كبير ، وانواع موفورة من الاعاشيب العطرة . فاذا أزف الغروب ساعة سقوط الندى ، شحن الهواء بروائحها الزكية . والى ذلك يشير نشيد الانشاد حيث يقول : « عين جنات لبنان ... هبي يا شمال وهلمي يا جنوب انسمي على جنتي فتنسكب اطيابها ... رائحة ثيابك كرائحة لبنان ... »

وقد وصف احد رجال التبشير مشهداً آخر في لبنان لا يختلف جداً عن مشهد الدفن هذا [1] ، قال : « في عيناب حيث توقفنا مرة اخرى لنجدد نشاطنا طالعنا صباح مهيب ... ثلاثون

١ تجاوزنا هنا ثلاثين سطراً ، في النص الاصلي ، خصها المؤلف بذكر القنصل الانكليزي المستر ابوت وقبره في اهدن . وقد سبق للمؤلف ان تناول هذا الموضوع بالذكر في فصل ماض . فلم نر في الاعادة افادة . — المعرب .

١ يقصد دفن القنصل المستر ابوت . — المعرب .

شيخــاً ، وقد جلسوا حلقة واحدة . ثم نهضوا متسنمين الهضبة ليشتركوا في دفن رجل وجيه من الدروز . واذا بشيخ منهم جليل القدر ، ابعد غايات الجلال ، يقف فيهم بضع دقائق فيخطبهم بانفعال ظاهر الوقار . لقد بدا لي كأنه صورة مجسّمة من ابراهيم وهو يخاطب بني حيث . ومع ان معظم هؤلاء الشيوخ كانوا دروزاً يُعرفون بعباءاتهم المقلّمة اقلاماً عريضة ، فقد شهد الجنازة كثير من النصارى . ويبدو في الدنيا كلها ان البيوت التي تفجع بالموت تصبح ساعتئذ الى حد كبير مباءة لروح الودّ والالفة . فينسى الناس الى اجلٍ ما كان بينهم من نفور دينيّ ، هذا اذا لم يزيلوه البتة . وعندئذ يتلاقى عن طيبة خاطر ، حول القبر الواحد ، بَشرٌ ما كانوا ليفكروا في التلاقي تحت سقف الكنيسة الواحدة . »

قرية زغرتا

قرية على بعد سبع ساعات من اهدن وساعتين من طرابلس. تقع موقعاً بديعاً على قدم لبنان تقريباً. تقوم بيوتها بين مزارع الزيتون في الوادي.

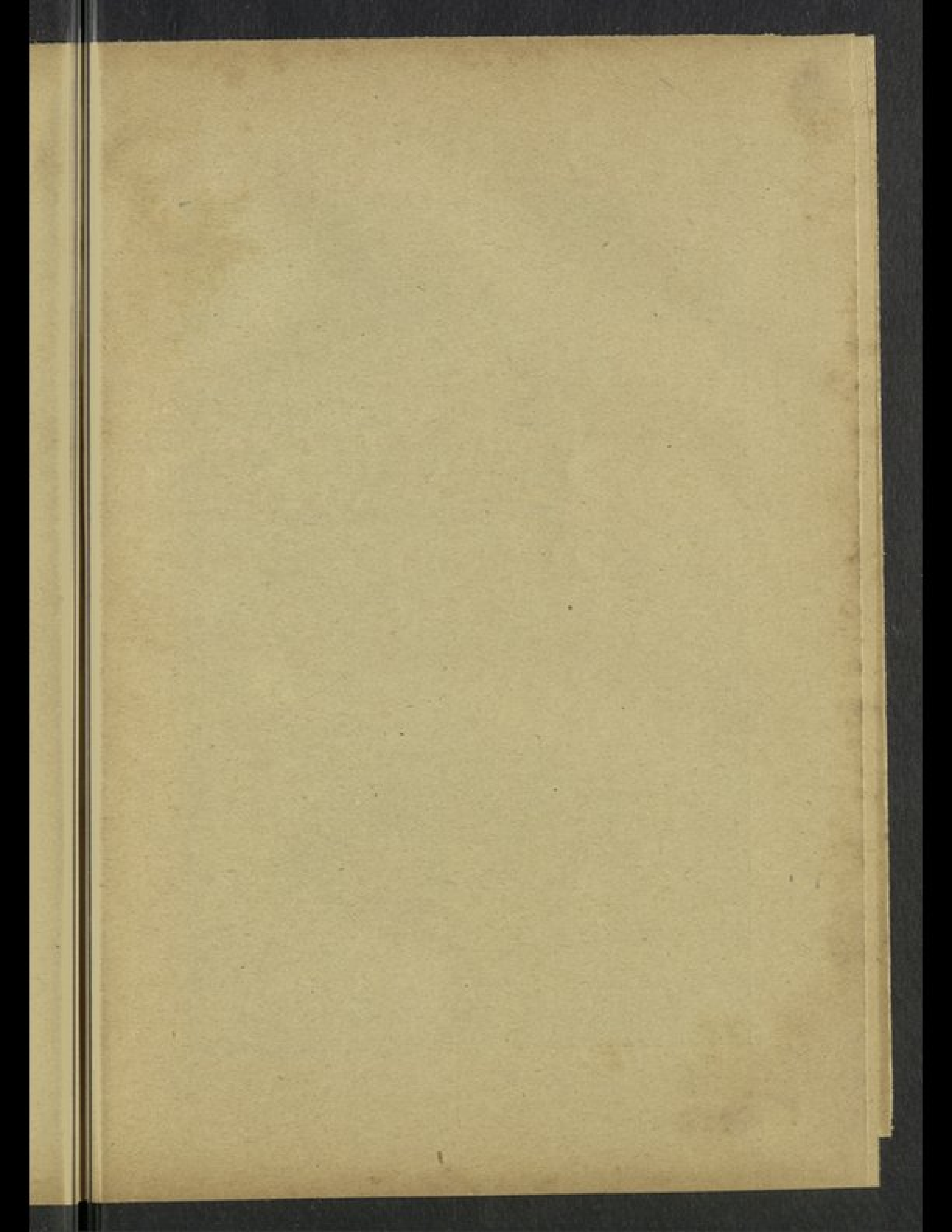
ليس من شعب في الارض ينزل منازل ساحرة الموقع كسكان الدساكر والاعشاش في سلاسل لبنان. وهؤلاء الذين يبدون في مقدمة الصورة انما هم فلاّحو المنطقة: رعاة ومواشيهم، وآخرون يحملون الحرير رأس المنتجات التي يجود بها الاقليم.

ان الطريق من اهدن منحدرة وعرة. تلبث على انحدارها الشديد المحرج مدى خمس ساعات، ثم تصلح وتعتدل. وتبدو مزارع التوت حول القرى وفي اعماق الاودية الصغيرة الضيقة متناهية في درجات الجمال.

وما أطيب ان يقف المرء عند موقع زغرتا البهيج، ليستضيف مشايخ اهدن، وقد انتقلوا في فصل الشتاء الى هذه البقعة ليتمتعوا بالهواء الناعم اللطيف. ويدور بزغرتا نهر رشعين ترفده ساقيتان والكهنة الذين ينزلون هذه المنازل المنفردة انما يشبهون رعاياهم في التقاليد وعادات الحياة. ورعاياهم متعلقون بهم جداً. ومع ان



قرية زغرتا



في اقليم لبنان مائتي دير ، فكثيرة هي القرى اللبنانية التي تقع بعيداً عن جوار هذه الاديرة . ويؤذن للكهنة الموارنة بالزواج ، شأنهم في ذلك شأن اسلافهم عهد الكنيسة الاولى . لكن يشترط في الزوجة ان لا تكون ارملة . واذا ترمل الكاهن حظر عليه الزواج مرة اخرى .

ليس لهؤلاء الكهنة كزملائهم في اوروبا موارد او مرتبات معينة . فهم يعيشون على أعطيات رعاياهم ، وما يوضع لهم في القداديس ، او يعيشون بعمل ايديهم . بعضهم يحترف تجارة ما ، وبعضهم يحرث مزرعة صغيرة . كلّ من لقيهم ، غنياً كان او فقيراً ، سارع الى تقبيل يدهم . وما من قرية إلا لها كنيستها .

ولكل كنيسة جرسها ، وهو شيء لم يسمع به في مكان آخر من تركيا . وان طقوس الكنيسة الرومانية التي يتبعها جميع الموارنة لا تمارس في اوروبا بحرية وعلانية أوفر مما تمارَس بها هذه الطقوس في هذا الاقليم الذي حافظ فيه اساقفته على حالتهم المتواضعة الاولى . وغالباً ما يلتقي المرء احدهم ممتطياً بغلاً ، لا يرافقه سوى قندلفت . ويعيش معظمهم في الاديرة ، لا يتجاوز موردهم السنوي الفاً وخمسمائة ليرة او ستين استرلينية . على انه مقدار يكفي لتأمين كل رفاهية لهم في هذه البلاد التي رخصت فيها كل الاسعار .

وتعتبر قرية زغرتا فردوساً صغيراً في نظر الكاهن القانع . وقليلة هي قرى انكلترا التي توفر لرجال الدين ملجأ اطيب وادعى الى الطمأنينة .

وان يوم الاحد ليغري المسافر بالتخلف في هذه البقعة . يغريه

رنين هذا الجرس المنفرد وقد توامت انغامه بعيداً . يغريه احتشاد الناس في أزين ملابسهم ولا سيما النساء في الجلابيب السورية البيضاء والطناطير . كما يغريه الاطفال وهم صورة مجسّمة للعافية المورّدة . ولا ننس الشيوخ في سيمائهم الابوية تنحدر لحاهم الثلجية على صدورهم وخصل الشعر الخفيفة على جباههم . اما القداس فبالسريانية، وهي لغة لا يفهم منها اكثر الناس حرفاً واحداً. غير ان الانجيل يتلى بالعربية ليفهمه الشعب . وبناء الكنيسة في خشونة بناء الكوخ ، ملائم لبساطة الاجتماع .

وها هو الاب جيرومي دنديني ، الذي بعث به البابا عام ١٦٠٠[١] برسالة الى بطريرك الموارنة ، يصف جنازة هذا البطريرك ومن شهدوها في قنوبين فيقول : « وجدناه في الكنيسة على كرسيّ ، ميتاً ، مجلبباً بثوب الاحبار ، متوجاً بالتاج الاسقفي ، وفي يده الصليب البطريركي ، يحيط به الكثير من انسبائه رجالاً ونساء ، يعولون ويقرعون الصدور ويصرخون صراخ نحيب طوال الليل . حتى اذا كان نهار اليوم التالي توافد جمهور الشعب ، فحملوه ظهراً الى مدفن البطاركة المألوف ، وهو موضع لا يبعد اكثر من رمية بندقية ، ثم أنزلوه على عادتهم تلك الحفرة جالساً على كرسيّ خشبي . »

ان زغرتا في الشتاء هي بالنسبة الى اهدن كمونبليه . اذا دنت

١ المعروف ان الاب ايرونيموس دنديني وفد على لبنان سنة ١٥٩٦ . اما رحلته التي يشير اليها المؤلف هنا فقد نقلها الى العربية الخوري يوسف يزبك العمشيتي ، ونشرت تباعاً في « المجلة البطريركية » ، ثم طبعت على حدة في مطبعة جريدة « العلم » في بيت شباب – لبنان ، سنة ١٩٣٣ . – المعرب .

الثلوج والامطار والعواصف الزاحفة من الاعالي ، ورأيت سكان اهـدن ينتقلون الى مشاتيهم في زغرتا . ورأيت العائلات تسوق ماشيتها وتحمل قسماً من ماعون بيتها وتهبط متعرجة عـلى طوال المنحدرات الوعرة الى حيث :

تتنفس الرياح ناعمة على الضفة البنفسجية ،
ويسمع صوت الصاعقة والعاصفة بعيداً فوق لبنان ،
ولكن لا يحسّ وقعها .

مشهد في جبل لبنان

فوق وادي قاديشا : الوادي المقدس

هوذا لبنان في جلال روعته الجامحة ومجده الذي لا ينفد . هوذا لبنان موحشاً غبرت جموعه وجماهيره فليس في الهواء نأمة الا ما كان من صياح نسر . يا للطبيعة ، شد ما هي ها هنا باذخة مترفة . غابات وأودية ومهاوي وشلالات خفيت او كادت ، لم تطأها قدم . وهي الى ذلك جميلة وجديدة ، كأنما خرجت الساعة من يد الخلاق الذي صاغها ، فهل اتى على هذا المكان حين من الدهر ماجت فيه السنابل على هذه الحقول ، وعرشت الدوالي على هذه الآكام ، وأهلته البيوت والقرى ؟ هنا وحشة وانفراد ، وكآبة محيقة كأنما تم كلام النبوءة : « لبنان ينتحب لان الشعب توارى من تحت ظلاله . »

ليس في هذه القفار البديعة تشويش في الاشياء . ليس هنا فوضى كجبال الالب من قدد ضخمة سقطت من عاو ، او من مهاوي مظلمة مستعصية على العبور . قد يكون ان رساماً حلم بهذا المشهد ، ومن ثم خط له لوحة مثالية . فما من منحدر مخيف الا له غابته البديعة التي تكسوه ، وحجارة الغرانيت التي تنفسخ عنه بين الحين والحين . وهذه الاودية التي تبدو في اطرافها

شديدة المضيق ، كلها يمكن الوصول اليهـــا بمعابر متعرجة مع السواقي التي تجري متعرجة هي الاخرى ، ناشرة البركة ، وان تكن بركة في ققر .

توجب هذه المعابر عبئاً يقظى على من يقطعها ركوباً على البغال . فالادراج من طبيعية ومصطنعة ملء الطريق ، بل هي الطريق نفسها . وهي احياناً مقدودة عــلى عمق جملة اقدام في الصخر ، او هي على شفا مهوى هائل . وعلى ذلك ، يكون السفر هنا على الاقدام أسلم وآمن .

هنا في هذا الخلاء المحيق شيء مصطنع من الصمت والسكون . هنا تستيقظ العاصفة على فجأة مخيفة رهيبـــة . ولكننا الآن في الظهيرة ، في نهار صائف ، وانغومة الماء تصعد رقيقة خافتـــة من تحت . ولا بدّ للمسافر من خطى كثيرة محترسة متعبة ، قبل ان يحظى بالراحة على ضفة هذا الماء . والحر ضاغط مستبد . والهواء بلوري شفاف حتى لتبدو القمم المكللة ثلجاً كأنها في الاشعـــة الباهرة فوّهات نارية مشتعلة تطفو عليها بعض غيمات رقيقـــة اشبه بجزر صغيرة تتخلل بحراً جميلاً موحشاً .

كان الخفراء اللبنانيون معنا ، كالمسافرين ، جميعاً مسلحين . وقد ألفوا هذه المسالك الوعرة ، فهم يمشون دونما اكتراث او احتراس ، كأنهم يمشون على ارض سهلة ممهدة . لا خطر هنـا يخشى من اللص او قاطع الطريق . واشد الناس خطراً ممن يمكن ان يلتقيهم المسافر هنا هم الجنود الذين وضعوا على الهامش في اثناء خصومات لزعماء وخلافاتهم .

ما اكثر ما عرضت لنا حفافي ناتئة واشجار نامية من شقوق

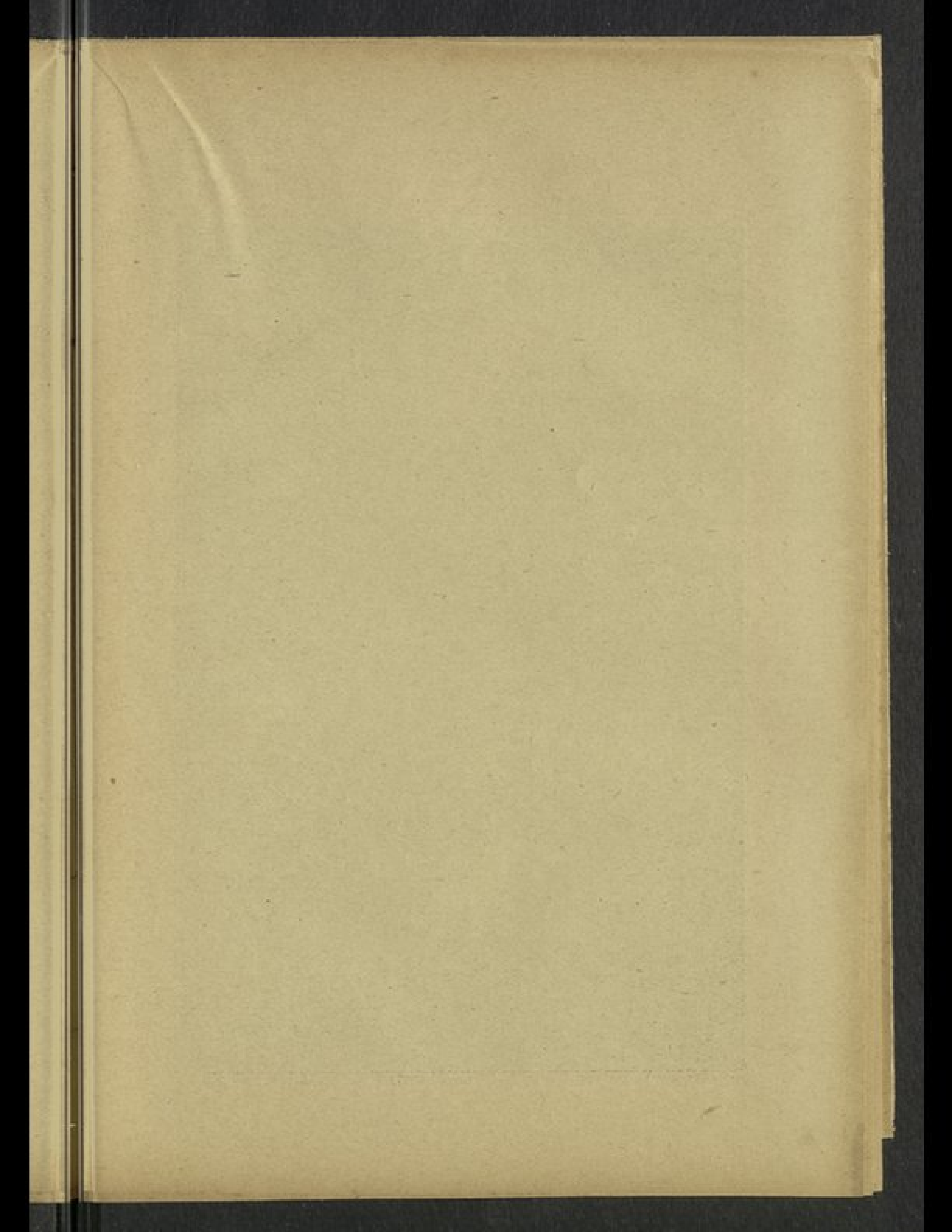
الصخر ، فدعتنا الى وقفة نستريح فيها بضع دقائق فنتأمل اللوحات المنبسطة امامنا في اسفل ، والضفاف الغنية بالازهار البرية عن كل جانب .

لا خوف من تمضية الليل في الغاب او في كوخ الراعي . فمن اطيب صفات السفر في لبنان يقين المسافر انه في خاتمة كل نهار يستطيع ان يصادف مأوى مضيافاً مرحباً يأوي اليه . فهذا باب دير من الاديرة الكثيرة جدير — ولا شك — بان ينفتح في وجه المسافر حيث يجد حجرة نظيفة ، ويهيأ له فوراً طعام مجدد للنشاط دسم مترف تتخلله خمور الجبل . فاذا لم يتفق وجود دير على مقربة ، فان منزل شيخ القرية المارونية لبسد الحاجة ويكون احياناً افضل وآنس غب مسير نهار بكامله مسيراً مضنكاً فوق الخلجان والطرق الوعرة . اما طعام الغداء فليس هماً يؤبه له في مثل هذه الرحلة ، اذ لا بد للمسافر ان يكون ابيقورياً نهماً حتى يتوقف ويهتم لطعام غدائه في اوج سيره وتقدمه . ان كسرة من خبز وزوجاً من بيض بارد غلي قبل السفر يوفر طعاماً صالحاً ويمكن تناوله في عرض الطريق او الى جانب ساقية جبلية نقية دون ان يستغرق ذلك وقتاً لاعداده . وقد كان هذا الطعام غداءنا اليومي خلال رحلتنا .

على الهضبة ، الى يمين الصورة ، رأينا ناراً استوقدها نفر من الجبليين الطوافين الذين لم يكن لقاؤهم مما يرغب فيه كل الرغبة . ومع ذلك فان وهج نارهم كان يكون اروع مشهداً اذ ينعكس في الليل عندئذ على حفافي الجبل . اما الآن ، في اوج الظهيرة ، فقد اختلط هذا الوهج بألق الشمس اختلاطاً ذهب برونقه واباخه .



مشهد فوق وادي قاديشا



ورُفع لنا على حافة الجبل ، الى الشمال ، دير معلق كوكر نسر ، مشرف من علُ على اعماق الوادي القاتمة . فلو ان اشباح العشية كانت ساعتئذ ترحف وتلتم لكان المسافر التمس هنـــاك مبيتاً عن رضى وطيبة خاطر . ويا له من مبيت غريب معجب يقضي فيه ليله فيسمع اصداء الاجراس تمضي سابحة مواجة فوق القيعان . وشد مـا هي مغربة موحشة هـذه الدعوة الى الصلاة والتأمل حيث لا جماعة تلبي الا السيول والكهوف والمهابط التي تبعث على الدوار ، والتراتيل الـــتي تمتزج نصف الليل بعصف الريح . فهل يكون هذا موضعاً للغبطة الدينية والعزاء والرجاء تنفذ كلها عبر سدول الزمن الى روعات اللانهاية !

بالنسبة الى مزاج دمويّ وذهن حادّ صارم ، يمكن ان يكون هذا الدير غالباً عزيزاً ومفيداً نافعاً ، كمنزل يأوي اليـه المرء بين المشاهد الحبيبة اليه والاصدقاء الاودّاء في بكرة الحياة . على أن اغلب الرهابين ليسوا على مثل هذا المزاج . فالحياة في هذا الدير هي على حد تعبير كاتب قديم «اشبه بالضوء الخفيف الذي يصحب المسافر قبل هبوط الظلام – ظلام القبر . ثم هي اشبه بخيمة راع منفردة لا مراعي حولها ، في دنيا سرى فيها الذبول والجفاف . »

ويكاد لا يكون مجال في هذه الزاوية لاجتهاد الرهبان الذين يسوسون في الغالب مزارع الكرم والتوت ويبيعون نتاجها . ان لهؤلاء دائماً بساتين محروثة حرثاً صالحاً . ولربما اقام حتى في مثل هذا المكان مطرانٌ من مطارين الجبل الكثر الذين يكونون في العـــادة اهل دراية وتهذيب ومسلك أبويّ وعادات واذواق بسيطة ، فيؤلفون من وجوه عدة صورة اقرب الى الروح والخلق

الرسلي من نظرائهم في كنائس اوروبا الاوفر ثروة . ويعصمهم من الترف والغرور فقرٌ ظاهر ، بل شيء ادنى الى العيشة المقتصدة اللائقة . كذلك تفصلهم عوائق الجبال من تجربات العالم ومغرياته ، فلا يسمع على ابوابهم دوران عجلات العربات . وليست لهم اتصالات او صداقات بين ذوي النفوذ والامتياز . ولا تعجّ قاعاتهم او تحفل موائدهم بمواكب من طلاب الترقي في السلك الاكليروسي ، او من خطّاب السلطة الاسقفية والنفوذ . ان اريستوقراطية لبنان روحانية ، تتجلى في تنفيذ الواجبات الرتيبة تنفيذاً اميناً وفي التماس المباهج والمسرات باتباع الدعوة المقدسة . وما اقل ما لدى لبنان من اشياء يقدمها عدا ذلك سوى العناية بارض الدير ومواوده والزيارات للرعية الموزعة وكنهتها ، ثم الانصراف الى الدرس في مكتبة الاسقفية القديمة .

أفليست مثل هذه الحالة مجلبة سعادة ، اذا كان رائد صاحبها القناعة والضمير الهادىء والتقوى الوادعة السامية ؟ ان الانسان الذي يحظى بحالة كهذه ، فيكون له القليل من الهموم والتبعات والاكدار الدنيوية ، وتكون له حياة نافذة مكفية بمقدار يتمكن معه من تنشيط عقله بالممارسة ومن امتحان صبره وايمانه ، لهو انسان يستطيع ان يطلّ من على اسواره الجبلية ببسمة شكر وامتنان ، لان مستقرّه براء من خطر الامواج والعواصف . ثم ان هذا الانسان ليس بمحروم دائماً عواطف الحياة البيتية وما يشفعها من امور غالية عزيزة . فالاساقفة الموارنة مأذون لهم بالزواج [1] مع انهم لا يبيحون لانفسهم دائماً المتعة بهذا الامتياز .

[1] لا شك ان الكاتب يخلط بين الاسقف والكاهن . فالكاهن الماروني

وقد حصل كذلك في السنوات العشر الاخيرة ان نفراً من الاساقفة الارمن، يحفزهم حافز من تقدم الآراء والعواطف الحرة حتى في لبنان، خلعوا عنهم نير العزوبة واتخذوا لانفسهم ازواجاً.
وكان معنا كاهن جبلي راح يدل على الطريق قسماً من جماعتنا في المؤخرة. كان، بقلنسوته وجلبابه ولحيته، يركب بغله الثابت الاقدام الذي ألف كسيّده اجتياز المهاوي والاودية. وكان صاحبنا في طريقه الى بيته، الى الشجرة التي تظلل سقفه، حيث تنتظره امرأته، أليفة قلبه، في وسط قريته التي تقطنها رعيّة له ترحب بعودة راعيها. ولعل كوخه كان وضيعاً كأكواخ سائر الفلاحين، لكن لم يكن في تلك الضعة فقر ولا عوز ولا حرمان. فهنا البستان الصغير المحروث حرثاً صالحاً، والكتب القليلة القليلة، والاثاث الخشن. وهنا محبة رعيته له - هذه الرعية التي يعايشها معايشة اسرة واحدة كبيرة.

أفلا يمكن، اذن، الكاهن اللبناني، حتى مع الاخطاء التي تنطوي [1] عليها عقيدته، ان يكون امرءاً تقياً سعيداً؟

وحده يجوز له ان يكون متزوجاً قبل قبوله سر الكهنوت. - المعرب.

١ لا تغرب عن بال القارىء نزعة المؤلف. - المعرب.

شجر الارز العريق في غاب لبنان

هذه طائفة من اعرق اشجار الارز قدماً . على الجذع الضخم ، الى يسار ، حفر كثير من السائحين اسماءهم ، ومن اقربها عهداً اسم لامرتين الشاعر الرحالة ، وقد جهد في حفر اسمه باحرف كبيرة ... هناك قبيلة عربية تنزل الغاب احياناً ، وقد اتفق وجودها في المكان يوم ان قام لامرتين بزيارته . ويظهر شيخها ماثلاً بين الواقفين . القبيلة مضياف ، عظيمة الحفاوة بالغرباء . اما زيّ نسائها فهو ما تلبسه جميع مسيحيات الجبل اللبناني على التقريب .

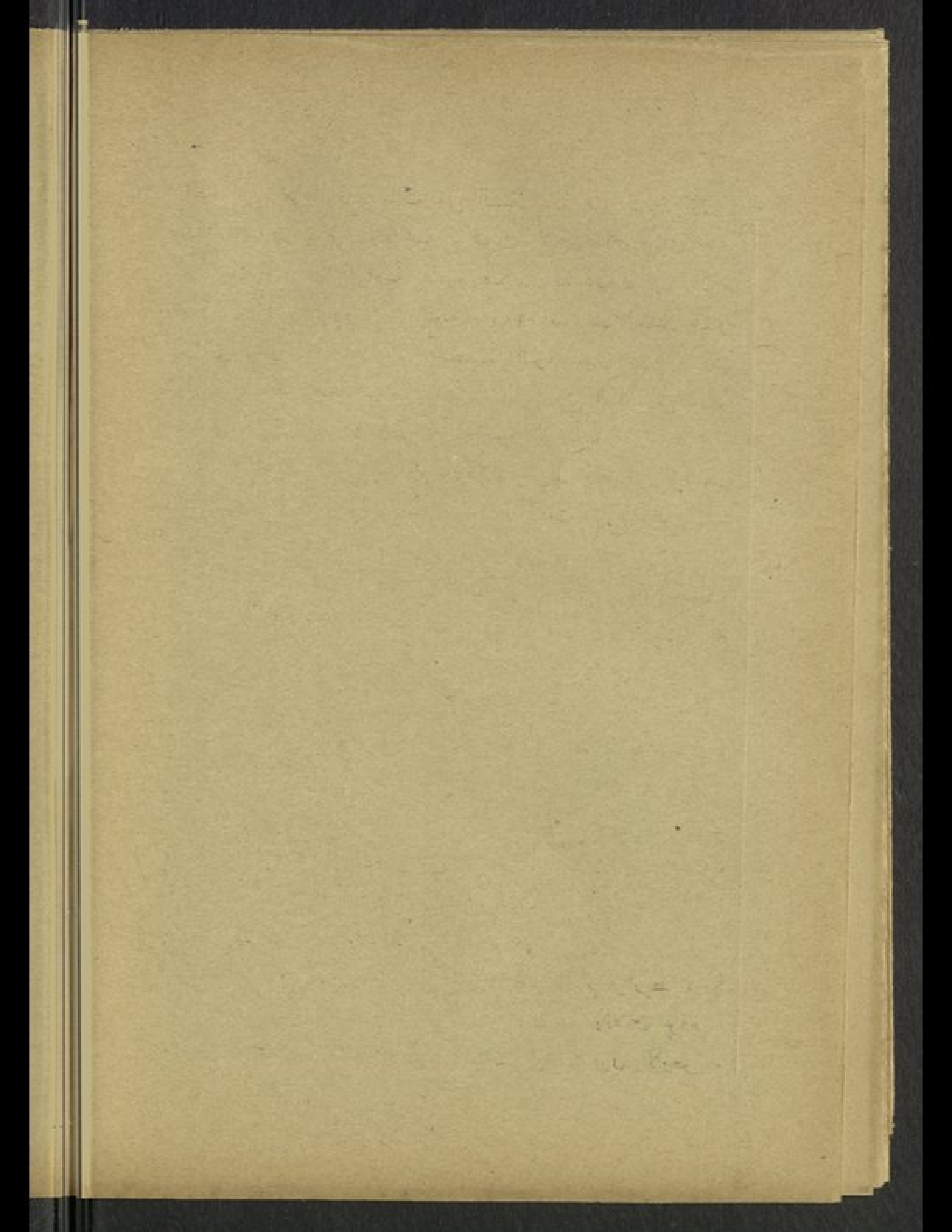
تؤكد التقاليد المرويّة ، ويصدق الاهلون ، ان هذه الاشجار المسنّة انما هي بقية الغابات التي زوّدت سليمان بالخشب لبناء الهيكل منذ ثلاثة آلاف سنة . وفي كل عام ، يوم خميس الجسد ، يقيم الموارنة والارثوذكس [1] والارمن قداساً احتفالياً ، هنا ، عند جذع ارزة على مذبح بنيّ مشيّد بالحجارة .

لا شك ان الاشجار هذه قديمة جداً . وتبقى قديمة حتى لو

[1] ليس في علمنا ان الارثوذكس يساهمون في هذا العيد . — المعرب .



غابة الارز



اسقطنا من عمرها بضع مئات من السنين ... منذ قرنين كان عددها خمساً وعشرين . ولم يجد بوكوك ، لقرن خلا ، سوى خمس عشرة شجرة . اما السادسة عشرة فكانت قد عصفت بها الريح حديثاً . واما بركهاردت في السنة ١٨٠٠ فعدّ منها احدى عشرة او اثني عشرة . لكن لم يبق منهـــا اليوم سوى سبع . وهي بمقدار من عظم الحجم وضخامة المشهد وتمرّد على الفناء حتى ليسهل التصديق بانها كانت فعلاً قائمة في العصور التوراتية .

ان الشجرات التي تلفت منها خلال القرنين الماضيين انما تلفت بفعل الشيخوخة القصوى والانحطاط ، بينا اعانت الرياح ، التي يشتد عصفها احياناً في هذه المنطقة ، على اقتلاعها وتهشيمها .

يقول بركهاردت : « أسنّ الاشجار تمتاز بان ورقها واغصانها اللدنة الرقيقة انما تكون في اعلاها ، وفي الوقت نفسه تنبثق اربع قصلات او خمس ، حتى سبع قصلات احياناً ، من الجب الواحد . اما سائر الاشجار فيكون ورقها وغصونها الصغيرة ادنى ارتفاعاً . على انني لم اشهد اشجار ارز كتلك التي في حدائق « كيو » تمسّ اوراقها الارض .

« وقصلات الاشجار المسنّة مكسوّة باسماء السائحين وســائر الزائرين . ويبدو على أسن الاشجـــار ان قصلاتها ميتة حقاً ، وخشبها ممسوح مسحاً رقيقاً بلون الرماد . »

اما الشجرة الضخمة الى اليسار فهي التي يقول موندريل انه قاسها فوجد مدار جذعهــا اثنتي عشرة يردة وستة قراريط ، كما وجد المدى الذي تنتشر فيه اغصانهــا سبعــاً وثلاثين يردة . وينشعب جذعها ، على علو خمس يردات او ست ، فوق الارض ،

الى خمس اضلاع ، كل ضلع منها تساوي شجرة عظيمة .

والطريق الى هذه الاشجار صعبة ، يحيط بها الثلج المتراكم على عمق كبير حتى ليستحيل عبورها قبل منتصف الصيف ساعة يؤذن بالذوبان ، فضلاً عن وعورة الارض التي تغطيها الصخور والحجارة وتنبت في المخارم بينها خضرة خصبة بديعة .

ان مركز الارز على جبين الجبل ، تحيط به من كل صوب اودية عميقة رهيبة ، ومنحدرات صخرية يكاد يكون انحدارها عمودياً ، ومهابط شلالات ، ووهاد قاحطة ، لينطوي حقاً على شيء من القدسية والروعة ، فتبدو هذه الاشجار كأنما نصبت في ذلك المقام الرائع الخطر ، لتكون ديدباناً بين الزمن واللانهاية ، وشواهد تذكارية خالدة مفعمة حزناً تحدّث بعهد الهيكل الاول ، عهد كان الله يسكن بين ظهراني شعبه في المجد المتجلي في الشاروبيم وفي بركات الارض والسماء براهين حيّة . لقد عفى الزوال على كل شيء آخر : الهيكل والمدينة واجيال البشر « الكثيرة كثرة رمال الشاطىء » . وذهبت عروش وديانات وامارات وسلطات ذهوب الرياح التي تصفر في اغصان هذه الاشجار ، وبقي الارز قائماً على جبين جبله خالداً . لم يستطع صوت انطلق حتى اليوم ان يلفح هذه الاشجار بما يقضي عليها تمام القضاء . ان صوت الزمن ليخرس على هذا الجبين الضبابي . شدّ ما سمعتْ هذه الاشجار حفيف اجنحة الزمن في اندفاعه « ليتلف ويفني » ، لكن في الوقت نفسه لبثت هي مع كل فصل تورق ورقها وتفرع فروعها ناضرة قوية كعهدها في ميعة الصبا .

يبدو لمخيلة الزائي القاعد على الصخر الاشيب الى جانب هذه

الشجرات امر سري ، لكنه بهيّ جميل ، في تمتمة الريح الساربة خلل الاغصان . فكأن تلك التمتمات انغام قفرية تنبعث من اوتار عود تنقره ايدي اموات طواهم الزمن منذ اجل سحيق ولا تزال ارواحهم تطيف . ان السامع ليعلم ان ذلك صوت لن يسمعه فيما بعد ، صوت يبدو انه ينطوي على نداء اللانهاية . ان الدوحة المجاورة لبيت المقدس ، وهي الجميزة الجليلة التي ذبح في ظلها النبي اشعيا ، واشجار الزيتون المعمرة في وادي يوشافاط ، لتعجز ان تلازم الذاكرة كأرز لبنان ، هذا الشجر الذي امتزجت صورته بابكر صور طفولتنا ، بالسقف والجدران والذهب الابريز وتاريخ اول هيكل شيّد للاله الحق وبهاء هذا الهيكل وجلاله .

وما أصدق كلمات حزقيال في اداء صفة هذه الاشجار ماضيها وحاضرها ، حيث يقول : « ارزة بلبنان بهيجة الافنان ، غيباء الظل ، شامخة القوام ... السرو لم يماثل اغصانها ، والدلب لم يكن كفروعها ، وكل شجر في جنة الله لم يماثلها في بهجته ... وينزل من ظلها جميع شعوب الارض . » ولعل صوت النبوّة قد سمع مراراً في افياء هذه الشجرات المقدسة ، ومراراً امتزج اسمها والصور التي تثيرها نبرات الالهام . فهل من كون في الطبيعة اعزّ على الشاعر من هذه الاشجار ساعة تلوّح للفضاء بسواعدها الشامخة في ابان العاصفة ، او ساعة تتصاعد تصاعداً عذباً الترانيم المارونية من جماهير الجاثين حواليها ؟ لقد ايبست اللعنة ، او اتلف تقلب الفصول غياض باقي الاوطان حتى اقدمها ، بما في ذلك غابات النخيل ، فخر مصر ، وادواح البلوط والشوح في افرايم والكرمل [1] ...

[1] استغنينا هنا عن عبارات مكرورة لا تزيد ولا تنقص في المعنى . — المعرب .

اما القبيلة العربية الصغيرة ، التي يظهر بعض افرادها في الصورة ، فتقبل على النزول في هذه البقعة ، بعد اذ يذوب الثلج في اوائل تموز ، وتقيم هنا طوال اشهر الحر . ومثل هذا المقر عزيز محبوب في نظر شعب ساذج بدائي ، يتمتع فيه بنسيم يحمل العافية على اجنحته ، نقيّ ملهم ينسم في هذا المقر الرفيع البراء من كل اثر لهذا الحر الذي يغلب في الاودية والاحادير . ينصب هؤلاء العرب خيامهم في الغاب ، يحيون حياة نصف وحشية ، على انها خلو من اخطار مثل هذه الحياة وعاداتها . وان الغريب ليلقى منهم حفاوة في هذه المنازل المخشوشنة . وتراهم اذا شب النهار ينفقون الساعات الطوال مستظلين ظلال الارز ، فيما يتحاورون او يدخنون او يقعدون كسالى . وترى بعض الامهات يؤرجحن اطفالهن على حبل مشدود الى تلك الاغصان المقدسة ، كأن الامر كرامة او فضيلة او قدرة على شفاء علة ما من علل البدن . ومن يدري ؟ فلعل الرجال ، لشعور خرافيّ عندهم ، يجدون لذة خاصة لا يجدونها في موضع آخر ، اذ يقتعدون غصناً ساقطاً او جذعاً مقلوعاً ، يدخنون في قصباتهم الطويلة . يجب القول ان اوضاعهم ونظراتهم ، مهما ائتلفت وشرقيتهم ، ساعة يكونون في هذا الكسل والاستغراق الحالم ، لتختلف بعض الشيء من ذلك الاستغراق الحماسيّ المصفّى الذي يأخذ به الغريب الاجنبي ذاهباً مع رؤاه ، مؤثراً ان يكون بمفرده في مثل هذه البقعة ، على ان يكون معرضاً لوعوعة طفل او للحظات مستطلعة متفرسة ترسلها ام الطفل العربية الصبية .

مشهد عام للارز

مقام هذه الاشجار النبيلة منكشف انكشافاً شديداً ، على شفا يجاور اشمخ قمة من قمم لبنان . يحيط الثلج بهذه الاشجار مدى نصف السنة على عمق جملة اقدام . ويتعرض مكانها لاعنف رياح الجبل وعواصفه . اما غابة الارز الصغيرة التي تمثلها الصورة فتشتمل على عدد كبير من الارزات الحديثة السن التي يمكن الطواف بها في نصف ساعة . يقول بوكوك : « ان الارزات الكبيرة لتبدو على شيء من البعد كأنها لوحات ضخمة منتشرة . فصلانها قصيرة ، تتشعب في اسفلها الى ثلاث او اربع ، ينمو بعضها ازاء بعض على ما يقارب عشر اقدام علواً ، فتظهر كتلك العمد القوطية التي تلوح كأنها تتألف من جملة ركائز . »

أعرق اشجار الارز في بلادنا لا يرقى تاريخها الى اكثر من مائة وخمسين سنة . والمفروض ان شجرة الارز تبلغ النضج في اقل من ثلاثة قرون .

في مؤخرة الصورة تتجلى قمم لبنان البيضاء . وتحت الاشجار الى يمين عربٌ قد استوقدوا ناراً ، ينعكس لهبها على وجوههم ، بينا هم متحلّقون حولها في العراء. كذلك ينعكس بهاء اللهب بين

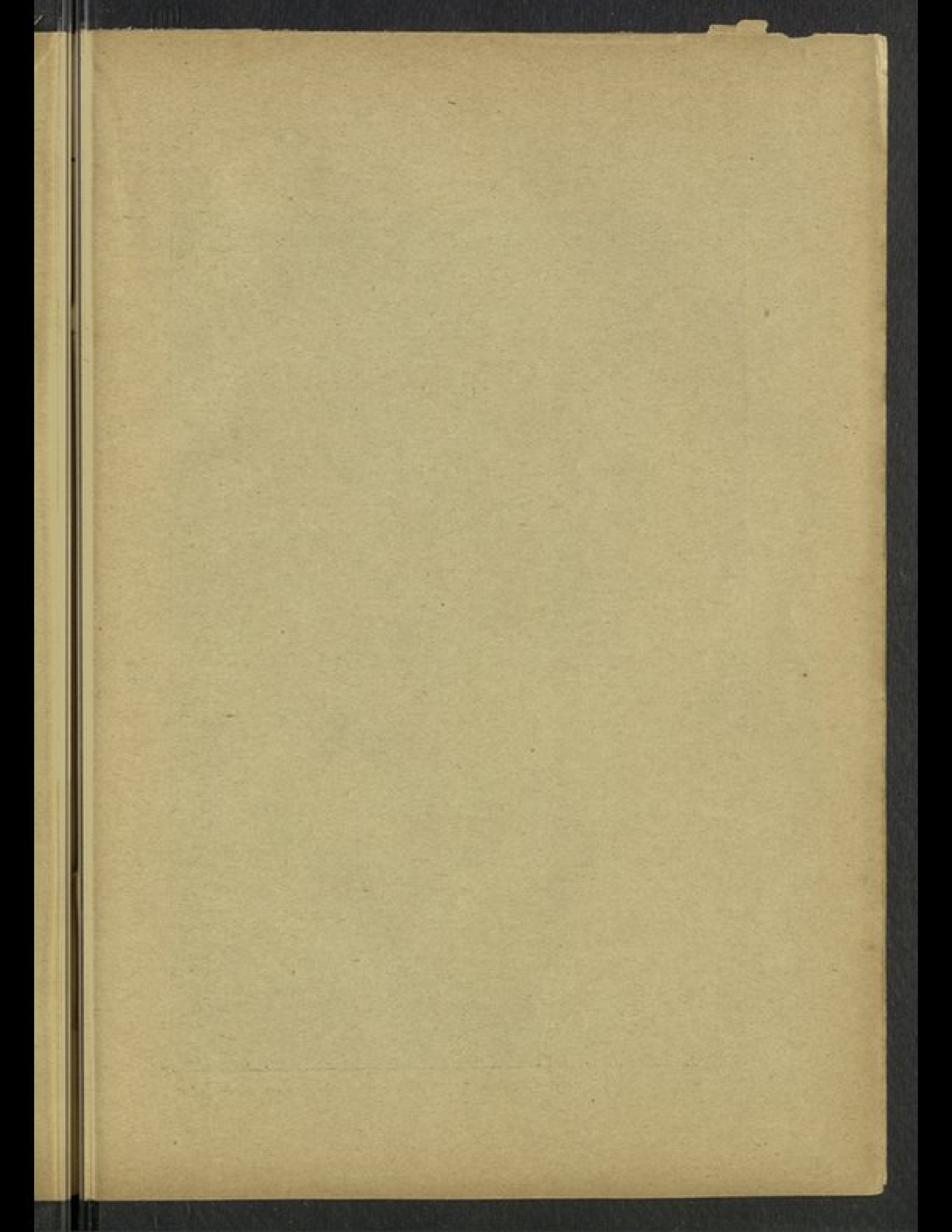
الفينة والفينة على جذوع الاشجار التي تبدو منتصبة كبعض العمد الهرمة في خرائب مصر ، يضرب البدو خيامهم حولها في الصحراء . لم يكن البتة خطر من ان يشب حريق في ناحية من نواحي الارز ، حريق يحدثه شرر متطاير او رماد مطفأ نصف اطفاء . ذلك بان العرب يحترمون هذه الاشجار احتراماً ينطوي على خرافة ، فهم يؤثرون ان يسعّروا النار في منازلهم على ان يسري الحريق الى احدى هذه الشجرات .

يقول الاب دنديني : « انطلقتُ لمشاهدة هذه الاشجار وهي تدعى القديسات لتقادم عهدها . وبرغم انها قليلة ، فان حصر عددها بالضبط مستحيل ، مما يعتبر من معجزاتها . وقد عددتُ ثلاثاً وعشرين شجرة ، بينما عدّ واحد من اصحابي احدى وعشرين وحسب . ووجدت الناس لا يمدّون الى هذه الاشجار يداً بالقطع لصنع الالواح . ويؤكدون ان جماعة من الترك كانوا يرعون ماشيتهم في ذلك الجوار ، فبلغت بهم قلة التقوى وفظاظة القلب ان قطعوا احدى هذه الشجرات القديسات ، فعوقبوا فيما بعد بفقد ماشيتهم كلها . وهنا يتاح للمرء ان يشاهد كذلك ينبوع نهير يدعوه الاهلون النهر المقدس ، لانه انما ينبع من الجبل الذي ينمو عليه الارز القديس ، ينبع من موضع لطيف منحجب ، وينحدر خلال الوادي سواقي صغيرة متمتمة بين حجارة الصوّان . »

يمتد الصعود من اهدن الى الارز نحو خمسة اميال ، بما في ذلك تعاريج الطريق الموعرة جداً في تلوّيها عبر الوهاد والهضاب . اما الوقت الذي تستنفده الرحلة فيتوقف على فصل السنة . وقد لبث لامرتين ثلاث ساعات على الطريق في حزيران ، ثم لم يستطع



مشهد عام للارز



إلا ان يتأمل الارز مغموراً بالثلج على بعد بضع مئات من اليردات .

يقول احد الرحالة : « اول ما بدت لنا اشجار الارز نقطة سوداء على الجبل ، ثم بدت كأنها دغل من الشجيرات القزمة التي لا جلال لها ولا جمال . ثم بعد حوالى الساعة والنصف وصلنا اليها . انها شجرات ضخمة سامقة جميلة ، ابدع ما انتجته دنيا الخضرة . في هذه الغيضة جيلان من الاشجار ، اكبرها سناً ضخمة جبارة ، ترسل رؤوسها الى علوّ شاهق ، وتنشر فروعها على مدى واسع . »

اما شجرات الارز الصغيرة في هذه الغيضة فلا يسهل تمييزها من الصنوبر ، فهي تشبهه جداً . ويستيقن المرء من ذلك اذ يجد بضع صنوبرات بينها . محتمل جداً في الزمن القديم ان الارز كان ينتشر فوق الجبال والاودية الى قريب من قربة اهدن التي اشتهرت عهدئذ بانها اقليم لابدع الاشجار . فالغابات التي استطاعت خلال جملة من عصور ان تفي بالحاجات العظيمة الى خشبها لا شك انها كانت تغطي مساحة رحبة من ارض ، ولا شك ان اشجارها كانت متلاصقة على ما هي عليه اليوم .

والارز من هذه الفصيلة معدوم وجوده في سائر انحاء لبنان . فهو اذن منحصر في هذه البقعة المكرّسة له . اما اشجار الجوز والتوت والسنديان والصنوبر فموفورة في الجبل كله . وعلى حاشية الجبل ، مما يحاذي السهل ، توجد بين الفينة والفينة شجرات السرو الجميلة الكبيرة بمقدار حتى لتظلل باغصانها قافلة صغيرة : ثلاثين رجلاً مع الخيل والجمال .

اما العرب الذين استوقدت منهم جماعة ناراً كبيرة تحت الارزة ، فكثيراً ما يظهرون خلال اشهر الصيف يطوفون لبنان في طلب المرعى ، يمكثون بماشيتهم اجلاً في البقاع الخصبة ، ثم يقوضون اطنابهم في طلب مرعى جديد .

ويشبه بعض اقاليم الجبل اقاليم الالب . العشب يكسوها والينابيع الموفورة بالاضافة الى الانداء الغزيرة التي تقع خلال اشهر الصيف انما تنبت نباتاً اخصب واعمق لون خضرة من النبات في البقاع الاقل حظاً .

يفد العرب على هذا المكان ، يطوفون نحواً من خمسة اشهر في العام ، ثم ينحدرون شتاءً الى الاودية غير المكشوفة او المعرضة . وهم يمضون الشتاء على شاطىء البحر حوالى طرابلس وطرطوس . يقول بركهاردت : « شد ما عجبت ان ارى على هذا العلو في الجبل عدداً من الجمال والاكواخ العربية . ومع ان هؤلاء القوم يعيشون كالبدو ، ليس لهم منازل قارّة ، فان ملامحهم ليست بملامح البدو الصحيحة ، ولهجتهم على كونها تختلف من لهجة الفلاحين ليست بلهجة بدوية صافية . هم يدفعون الضرائب للولاة الاتراك . وهم على سلم وجميع شعب البلاد . لكنهم موصوفون بالميل الشديد الى السرقة . ولا يملكون عدا الجمال سوى الخيول والابقار والاغنام والماعز . » فالعبارة القديمة : « يا ساكن لبنان الذي يبني عشه في الارز » لا تنطبق اليوم إلا على هؤلاء البداة الطوافين ، او على هذا الشيخ وقبيلته الصغيرة التي تقبل صيفاً فتخيم في ظل هذه الاشجار . وقد طال مجلسهم جداً حول طعام قشف ، فيما هم متحلقون حول نار تموّنها الغابة بالوقود . ثم نهض بعضهم فجعل يتمشى

بين الاشجار في الجلابيب الفضفاضة الخشنة والعمائم .

ولكن احد المرسلين رأى مشهداً من نـــيران كثيرة على قمم لبنان ، فكان ذلك أبدع وأروع . قال : « استطعنا ، ونحن على الشاطيء بين صيدا وبيروت ، ان نشرف على منظر بهي من الابالات[1] التي تنار على الجبل عشية عيد الصليب . فلاح لنا من الشمال الى الجنوب معرض انوار صفّت على شكل هلال وطفقت تزداد بهاء كلما اشتد زحف العتمة وتكاثفها . وكان بعض هـذه الشعل يرتفع فوق الافق على علو كبير ، يظهر من مدى ارتفاع الجبال العظيم . وقد عددتُ خمسين شعلة كبيرة اضرمتها الاديرة والكنائس . وبالطبع ، ان مثل هذا الاحتفال يجري في جبال لبنان كلها من طرابلس الى صور الى مناطق اخرى . فبالطبع ، لم يكن اطلاعنا على هذا المشهد سوى اطلاع جزئي . فيمكننا اذن ان نعتبر ان عدد الشعل التي اوقدت لهـذه المناسبة لم يقل عن خمسمائة . »

١ الابالة شعلة نار كبيرة . وهي فصيحة عامية ، ويلفظها العامة « ايلة » بامالة الالف . – المعرب .

قرية بروممحانا[1]

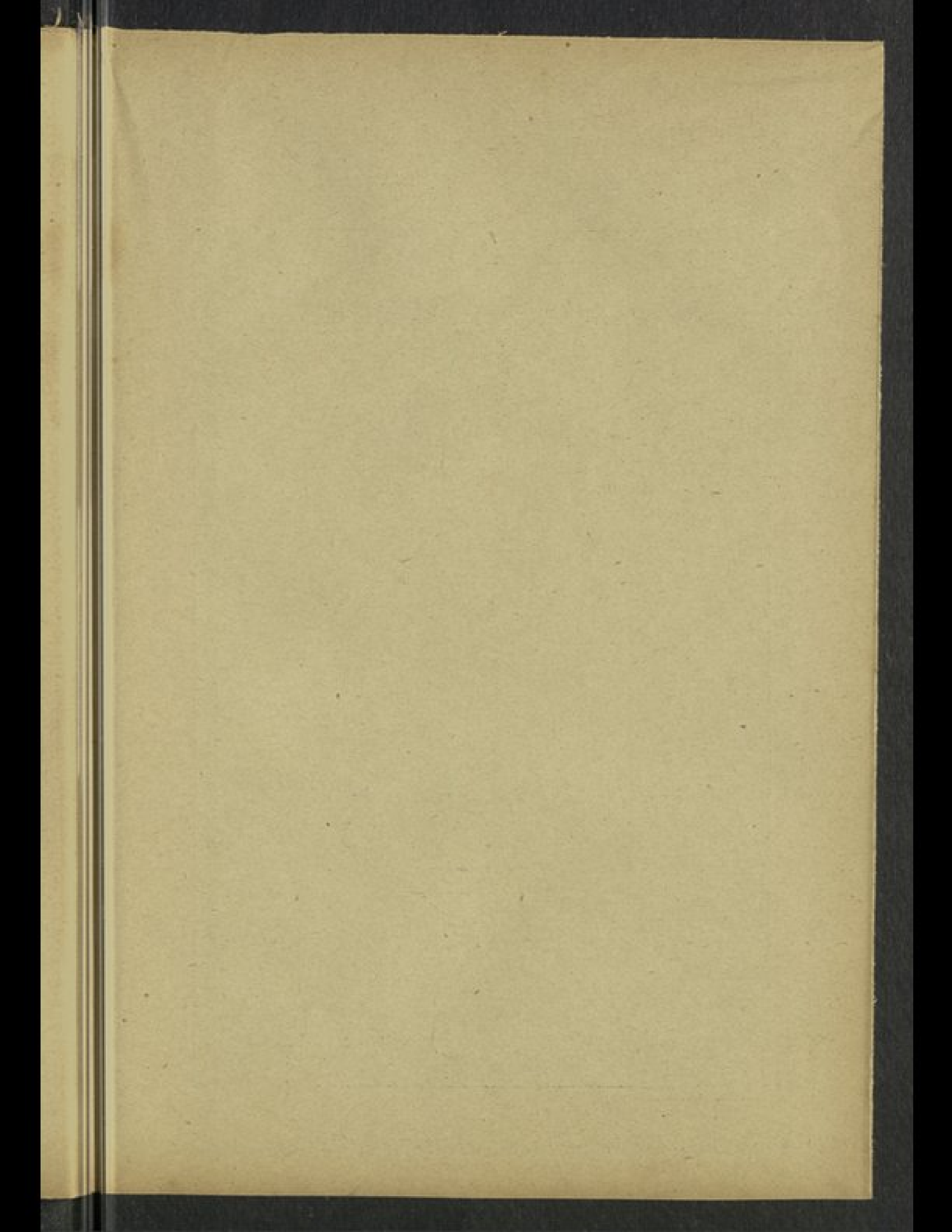
تعترض السفر في جبل لبنـــان صعوبات تمتحن صبر المسافر امتحاناً قاسياً . فقد تكون المسافة الى قرية او دير نحواً من بضعة اميال على خط مستقيم . لكنها في الغـالب تطول بكثرة انعراجات الطريق حتى لتستغرق ست ساعات او سبعـاً . فاذا المسالك تلتف وتدور حول سفوح الجبـال ماضية عبر الاودية الطويلة بغية قطعها عند اطرافها . ثم تمضي هذه المسالك مصعدة في الاكات خلال منافذ ضيقة او درجات مقدودة في الصخر يستحيل السير عليها إلا للبغال .

غير ان المسافر ، بعد اذ يبلغ النقطة التي يتوخاها ، يطل على مشهد رائع بديـــع ، ويتنشق الهواء النقي العذب ، وفي احيان يستطيع بصره ان يعانق ثمانية عشر ديراً او عشرين . ومع ان مشاهد لبنان اقـل روعة من مشاهد جبـال الالب ، فلا بد من القول ان منظر البحر المتوسط الذي يقـارن بقاع الارض اللبنانية انما يضيف الى جمالها جمالاً عجيباً ، فتراه

[1] هجأها المؤلف بالانكليزية : Brumhana . والارجح ان المقصود هو القرية اللبنانية المعروفة باسم رمحالا . — المعرب .



قرية رعالا.



يغسل قدم السفح او حاشية الغاب ، يتالق تالقا بعيــداً خلال منفرج الوادي الطويل او من عــلى جبهة الجبل ، او مصطبة الدير .

ان الطريق التي تتجلى في هذا الرسم هي الطريق من بيروت الى دير القمر . ويقول الفنان الذي نقل بامانة واتقان هذه الصور السريعة من شتى مشاهد الجبل وسوريا ان هذه الطريق من اجمل طرق لبنان وأشدها جسارة وتحدّياً . ولقد أخذ هـذا المشهد في غاب من شجر الصنوبر يهبطه المسافر بعـد اذ يدخل اول سلسلة مرتفعة من الجبل .

وهذه القرية مارونية جاثمة على سفح المهاوي الجرداء ، عـلى حاشية منحدر غابي يتدنى الى واد ضيق عميق القرار . وقد وزعت الاحجار فيها توزيعاً سخياً بـين المنازل ذات السطوح المبسوطة والنوافذ الصغيرة المطلة عــلى المنحدر . وتبدو الى يسار الرسم كنيسة القرية الصغيرة .

ان هـذه الطريق لنموذج حسن من الطريق التي تمتــد بين بيروت ودير القمر ، فتستغرق تسع ساعات ركوباً . وهي ليست بالطريق الرديئة ، مع انهــا قليلة التعبيد . إلا ان الامير بشير اشتق طريقاً جديدة ، على مدى معظم هذه المسافة ، ليسهل المواصلة بين بيروت وعاصمتـه وقصره . تعترض المسافر عليهــا مزارع واكواخ واديرة وغابات تضفي عــلى الرحلة تنوعاً في المشاهـد وحياة وتأثيراً يؤنس نفس المسافر ولا يوحشها .

ويظهر عـلى الفلاحين هنــا طابع استقلال وصراحة ، لان حكومتهم ليست بالظالمة . وليس في بيوتهم فقر شديد . فان

صناعتهم وجهودهم لتضمن لهم كفاية حاجاتهم وكثيراً من طيبات الحياة . وهم في المألوف اهل لطف ورقـة في استقبال الغريب الذي لا يعدم الفرصة اذا هو اراد مبيت ليلة تحت سقف واحد منهم . فتوقد له النار بالحطب ، ويخبز له على الموقدة ، وتبذل القهوة والثمار والبيض والجبن والدجاج ، على كون هذه الطيبات لا تُعطى ولا تؤخذ مجاناً .

وهواء قرية بومحانا صحي شديد النقاء . وهي متوسطة في العلو بحيث لا تعـاني قسوة الشتاء في المناطق الاشد علواً . عدا ان المرتفعات المحيطة بها تقيها عصف الرياح العاتية .

يقول احد الرحالين واصفاً هذه الطريق : « بينا يصعد المسافر في الجبل تراه يصادف محطات نظيفة تباع فيهـا القهوة والثمار ، محطات تدعوه الى التعريج فالراحة تحت ظل شجرة من الاشجار الفارعة الاغصان . وقد سرنا نحن حوالى ساعتين فأفضينا الى ينبوع تبرّدنا بمائه . وعلى مقربة منه كوخ قدم لنا صاحبه بعض المنعشات . ثم استأنفنا التصعيد في الجبل ضاربين ناحيـة الجنوب الغربي الى جانب سلسلة من الهضبات ملأى بالرياحين في ميعـة ازدهارها . ومشينا خلال مغارس الزيتون والتوت والجميز تعرش عليها دوالي العنب ملتفة حول الاغصان او متدلية . اجتزنا قريتين هما عين العِنَب وعين العنوب ، فبدا لنا الفلاحون منهمكين في الشغل كلَ الانهماك . ثم انحدرنا الى وادٍ عبر طريق رديئة يكاد يكون اجتيازها مستحيلاً ، حولتها غزارة الامطار وشدة وطء البغـال والمسافرين الى مهابط درجات عميقة . انقضى وقت قصير وجدنا فيه المشهد قاحلاً والاشجار على بعد بعيد عنا . غير اننا لم نلبث

ان وصلنا الى سلسلة تالية من الجبال وجدنا عندها زرعاً . ومضينا نجوس خلال غابات الآس وأحراج الشوح والكستناء والتفاح البري لنفضي من ثمّ الى نهر الدامور الذي اجتزناه على جسر من حجر بُني فوقه . وهو نهر سريع الجري ، مندفع في مجرى كثير الصخور . ثم صعدنا مرّة اخرى في سلسلة عالية من الجبال ، أشرفنا من ذرى قممها على منظر بديع رحب يتناول المتوسط والشاطىء اللبناني . إلا ان الطريق لم تلبث ان دارت بنا حول الجبل شطر دير القمر .

يقع شطرٌ من هذه القرية على الكتف الاخرى من الوادي . وعلى القمة ، الى الجانب الاعلى ، بناء هو فيما يبدو دير من الاديرة . وان كثيراً من الابنية الرهبانية ليقع في اشد المواقع اقفاراً وعزلة . الا انه يكون كذلك في انبل المواقع وابهاها . فاذا اخترنا مثلاً البناء اليسوعي الشهير في عينطوره وجدناه متزلاً تنزيل الاسفين بين الصخور القائمة قياماً عمودياً . ورأيناه اشبه بحصن في خاصرة منحدر يقع على ثلث الطريق صعوداً من سفح الجبل الى قمته . لكننا لا نلبث ان نتساءل : كيف تيسر الوصول الى هذا الصرح ، أهبوطاً من فوق ام صعوداً من تحت ؟ ويصعب علينا الجواب ، اذ لا يبدو اثر لطريق ما .

وكذلك دير بزمار بناء جبار فخم . والقاعة الكبيرة فيه ، قاعة الديوان ، تعد في سوريا اوسع غرفة واروعها اثاثاً في ايما منزل مسيحي . وهي في الصيف رطبة باردة مبهجة . على ان موقعها فوق تلك الشعفة الشامخة يعرّضها في الشتاء لزيارة العواصف والصواعق الهائلة ، ويسربلها بجلابيب كثيفة باردة من الضباب .

ويشهد الجدار المشقوق شقاً كبيراً في طرف هذه الغرفة بان الرهبان انما يتعرضون لمخاوف عظيمة خلال العواصف الجبلية .

وقد لبث شهرين في عينطوره صديقٌ للكاتب اراد درس اللغة العربية التي يتقنها بعض الآباء اتقاناً حسناً . على انه لم يكن اثيراً عند اهل الدير لانه كان يجهر بآرائه الدينيـــة جهراً حراً ويصرح برغبته في بث هذه الآراء في لبنان . ففرضت عليـــه حرمانات شديدة ، مثلاً : وجبة واحدة من طعام في النهار . وانها لوجبة ضئيلة بحيث كان صاحبي ابداً نصف جائع ، لا يذوق لحماً ولا خمراً . ومـــا اكثر ما كان يلجأ الى الصخور خارج السور ، ليخلو بنفسه الى الدرس ، حريصاً على نسيان قسوة البشر ووحشة المناظر ، مستغرقاً الاستغراق كله في درسه الحبيب حتى ينبهه جرس الدير الى وجوب العودة . بالطبع ، كان يفكر افكاراً مرّة اغلب الاحيان ، لان الآباء لم يكونوا اصدقاء اوداء له برغم استعدادهم لان يساعدوه على اتقان العربية . فكان يقبع ليلاً في حجرته على سراج يضيء في وحشة ، بينا يضعف بدنه ويهزل اذ هو يلتهم التهاماً لغته العربية التي تقدم فيها تقدماً فذاً سريعاً . كاد غداؤه وعشاؤه ونومه ان يكون هو اللغة العربية . فلما عاد الى بيروت كان شاحب الوجه نحيله ، يلبس بدلة مدعوكة وثياباً لم تعرف الغسل في الدير . لقد كان صديقي حسّاساً غيوراً مندفعاً ، فكانت سيرته فيما بعـــد ملأى بالتجارب والمغامرات والحرمانات . وهي سيرة لا شك انه كان مديناً فيها لدروس الصبر والاحتمال التي تعلمها في عينطوره .

خان وجسر

على مقربة من منبع نهر الدامور

يقع هذا المشهد الرومانطيقي في الطريق بين بيروت وبيت الدين على بعد ساعة من قصر الامير بشير – الامير الدرزي الذي أتمّ في الاعوام الاخيرة صنع القسم الاعظم من هذه الطريق الجبلية الملائمة للمسافرين ... ان الوادي الذي يجري فيه نهر الدامور لعميق ، تنحدر اليه الطريق المذكورة فتمر عبره . اما الجبل هنا فمكسو بشجر الصنوبر البديع . وقد هبط السائح هذا الموضع من مواضع الراحة البليلة الباردة ، على مقربة من مياه نهر الدامور عند رأس منبعه . والدامور ، هذا ، نهر يجري متعرجاً ، يقوم فوقه جسر حجري . والحق ان الوادي في بقاعه كلها يبلغ الغاية في رومانطيقية مشاهده : أديرة وقرى وما اشبه ، تحتل ابدع المواقع . وان الانتقال فوراً من قصر الامير القوي القاسي ، الذي طال تمرسه بالتقلبات والمطامح المظلمة ، على هذا المنعزل الموحش الهادىء لأمر يعتبر مصداقاً لأبيات شيلر :

آه ! ما افضلها وأوفرها بركة
حالة من يقيم في طمأنينة واديه الاهلي

بعيداً عن شبكة الحياة في تطورها العنيف
راقداً كالطفل على ثدي الطبيعة !
اني لأتطلع على منازل الاقوياء بحزن وتفجع ،
منازل تشهق اليوم شامخة فوق الارض
مستهزئة بالشمس . على انها غداً – وا أسفاه !
سينساها ، فلا يذكرها المكان الذي فيه تقوم .

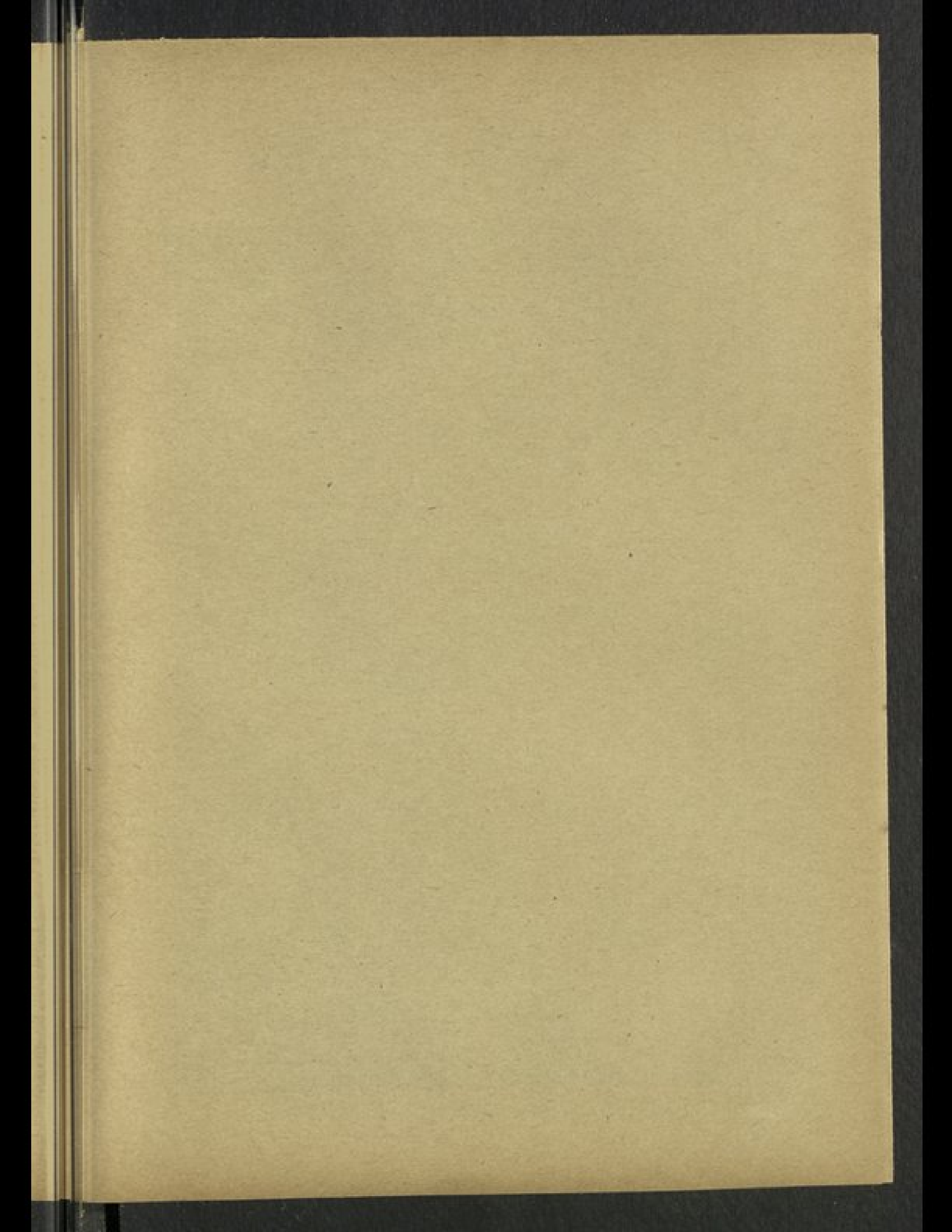
رغد ووثير مضجعه ، يرقب فيه الغريب
الذي اختار البعد عن موج الحياة الصاخبة
بنصيحة جاءته في آنها ، فاعتزل المخاطر
في كهف الصومعة العميق الساكت .

وكبتَ الافكار الطماحة التي لا تنبض فينا إلا لتنغصنا ،
كبتَها بارادة وحصانة متكبرة .
وهدهد بين جوانحه الهادئة حتى اطمأنت واستراحت
تلك الرغبات العابثة التي لا تنفك تطوّح بنا وتغرّر !

يتفق احياناً للمسافرين المزودين بالخيام الصالحة ان يؤثروا في هذه الرحلة اللبنانية المبيت تحت تلك الخيام على دخول بيوت القرويين . لكن لا شك ان جانب الموقد والترحيب الجبلي الذي يبدر من الفلاح والمزارع هما ملاذ اوفر حظاً من الراحة . ظروف الناس هنا على وجه العموم ظروف رخاء ، بل ظروف استقلال واستغناء . البيوت مبنية بالطين ، وهي تشتمل عادة على جملة من غرف . اما السقوف فانها دائماً مبسوطة بسطاً ، مغطاة



خان وجسر على مقربة من منبع نهر الدامور



بالتراب ، ينبت عليهـــا العشب والزهر البري . ولكن الثلج في الشتاء ينفذ خلال هذه السقوف او يضر بها ، لولا ان الاهلين يحرصون كل صباح على إزالة الثلج الذي ربما وقع فتراكم ليلاً . ولهذه الاكواخ والبيوت ، مع ما يحيط بها من مزارع التوت او يظللها من عرائش الكرم وشجر التين ، مناظر على جوانب الجبل مغرية الصور . ويفيض ضوء الشمس الباهر فيسبغ مسحة من البهجة على الجلمد والوادي والقفر ، ويضفي الحبور والروعة على هذه المباءات الترفة - مباءات الخضرة والاجتهاد والحرص والاتقان . وفي بعض القرى العليا ، يلبس النـاس على الرأس لفّات بيضاء ناصعـة ، كما تلبس النساء منـاديل زرقاء . وطباع الاهلين مركزة على الاحترام ، وتبلغ احياناً ان تكون مهذبة دمثة . وقد دعانا احد اللبنانيين من ذوي اليسار الى وليمة نحن واثنين او ثلاثة من الاصدقاء . ولكنا ابينا تلبية الدعوة لعلمنا بما سيكابده الرجل في هذه المناسبة من عنـــاء ونفقة ، لولا انه ألحّ ولولا اننا خشينا ان نسيء اليه اذا نحن ثابرنا على الامتناع. وانقضت بضعـــة ايام تهيؤاً واستعداداً ، فجيء بالقنيص وأتي بالسمك من الساحل وببعض الخمور اللبنانية المنتقاة ، ومعها شتى الثمار حتى الحلويات العجيبة التي يعالج امرهـا الشرقيون معالجة رديئة . لكن مهما يبدُ منزل الشيخ مبهجاً مضيافاً في خاتمة نهار مضجر متعب ، مهما يفرح الغريب الذي لا بيت له اذ يتبوأ مقعد الشرف في منزل مضيفه ، بينا تندلع النـار وتعصف الريح في خارج ويحتشد الليل سريعاً ، فان الفرق بعيد بين منزل مترف في بيروت والضيافة تحت سقف جبلي .

جرى كل شيء على نحو ما توقعنا . كانت الوليمة غنيّـة منوّعة بالقياس الى الفئـة القليلة المدعوّة . إلا ان الترتيب كان رديئاً والخدمة غريبة . طفق الخدم الكثر يتزاحمون ذهابَ ايابَ من الغرفة التي نحتلها ، شأنهم في ذلك شأن الجنود اللبنانيين في تجمعهم . وكان السقف دانيـاً والنوافذ صغيرة والنهار مضبّـباً كثيف الهواء، وغالباً ما كان يتصاعد البخار من الصحون الجبلية كعبور سحابة رقيقة .

ولم يكن صاحب الدعوة في هذه المناسبة مطمئناً في مقعـده على رأس مائدته . فهي المرة الاولى التي يدعو فيها اوروبيين الى الغداء . وكانت اوامره المستعجلة التي يصدرها الى الخدم مضحكة احياناً في تركيب عبارتهـا ، وكثيراً ما كان هو نفسه لا يفهم معناها . وحضر الدعوة جملة من اصدقائه ، لكن الحديث معهم لم يكن شيئاً ممكناً [١] . ثم انتهى الغداء فلم تصدح موسيقى ، ولم يطلع علينا في القاعة قصّاص يبث في الجو حياة باساطيره الغريبة واختراعاته . إلا ان حادثاً مسلياً جداً ما لبث ان وقع .

كان بين المدعوين راهب ماروني يعرفـه صاحب الدعوة . لم يتكلم إلا قليلاً جداً خلال تناول الطعام . يدل مظهره على انه رجل هادىء محترم . فساعـة كانت تُقدّم الحلوى ، دخل راهب ارثوذكسي ساحة المنزل . ولعله كان صدفـة يتنزه في الجوار . ودنا من الشبابيك وربما جذبته الروائح المشهية او قضيـة شغل بسيط بينه وبين أحد الاشخاص في داخل المنزل . فما وقعت عين

١ المقصود ، على الارجح ، انهم يجهلون اللغة الاجنبية . — المعرب .

الماروني عليه حتى نطق بلفظ يدل على الكراهية ، ونهض عن المائدة يأمره بالانصراف . فاحتدم الارثوذكسي احتداماً بدا على قسمات وجهه ، لما سمع كلمات الماروني المهينة . وزاد في احتدامه انه كان صائماً ، بينا الراهب الماروني قد اكل شبعه وتلألأت حدقتاه مرحاً وتحدياً لكثرة ما شرب . فعقب ذلك تبادل عنيف في الجدال والمشاحنة ، وارتفع صوتاهما فوق اصوات الجميع . ولم يتورعا من تقاذفَ الشتائم والقدح في رهبنتيهما . ثم اوشكا ان يصيرا الى الملاكمة ، وهو مشهد كاد يكون غريباً جداً . غير ان الخدم حالوا بينهما واقنعوا الارثوذكسي بالانسحاب .

ان الفراغ الذي يهبط على عقل الضيف في مأدبة شرقية لهو فراغ هائل . فليس هناك ما يمتع الخيال او الحس إلا حفيف الشجر ، او انهار مياه النافورة ، او رائحة غليون التبغ . اما اصوات الطبل والمزمار السوري او التركي ، فلا تلبث ان تملها الاذن كما تمل العين حركات البنات الراقصات سواء بسواء . وليس في المأدبة الشرقية نساء حاضرات . والشرقي على وجه الجملة رفيق خلوة شديد الاضجار . فأية مواضيع يمكن ان تكون مشتركة بينه وبين مضيفه ؟ هو لا يستطيع ان يتحدث عن الكتب والفنون والعلوم . وهو يأبى الحديث عن ايمانه او حبه . على انه يتحدث عن السياسة ، لكن يجهل اوروبا جهلاً عظيماً ، يجهل مواقع بلدانها ومناخها وطبائع اهلها . ولذلك لا يلبث ضيفه ان يرحب ترحيباً حاراً بتلك الساعة التي يستأذنه فيها مودعاً مزوداً بالسلام والبركة .

لدن يصعد المسافر عن يمين الدامور الى رأس الطريق ،

ليمضي من ثم الى بيروت ، سرعان ما تقع عيناه على غابة جميلة من شجر الصنوبر . وان المشاهد كلها لساحرة على هذه الطريق من بيروت الى دير القمر وقصر اميرها في بيت الدين . وبين جملة الاديرة في جوار هذا الموقع ، وعلى بعد ساعتين منه ، دير مار يوحنا المشهور بمطبعته ذات التاريخ الفريد الطريف . يبلغ عمرها نحواً من مائة سنة ، وإليها يشير فولني Volney فيقول انها المطبعة الوحيدة التي صادفت نجاحاً في الامبراطورية التركية. يقول فولني : « لم يصادف الجزويت الا في مستهل القرن الثامن عشر ، في مؤسستهم التي اقاموها في حلب ، شيئاً من الحماسة للعلم الذي حملوه معهم الى كل مكان نزلوه . لكن في سبيل هذا الهدف ، واهداف اخرى ، كان ضرورياً ان يلقنوا انفسهم مبادىء العربية . على ان انفة الفقهاء المسلمين منعتهم اول الامر ان يفتحوا كنوز علمهم لغير المؤمنين . الا ان بعض اكياس الدراهم تغلبت على هذه العقلية . وكان التلميذ المسيحي الذي احرز لنفسه اكبر الميزة في تقدمه في هذا الباب يدعى عبد الله التاكر[1] . كان محباً للعلم حباً خاصاً ، يجمع الى ذلك غيرة شديدة في سبيل نشر معارفه وآرائه . فلم يطل به الوقت حتى بذل اعداؤه المساعي في اصطنبول لايقاع الهلكة به . فاستصدروا من السلطان « خطي شريف » او امراً يشتمل على حكم بقطع رأس عبد الله . لكن لحسن الحظ تلقى تنبيهاً في الوقت الملائم ، ففر الى لبنان حيث اصبحت حياته في امان . وزادت حدة حميته بما الهبها

١ « Taker » كذا وردت تهجئة اسمه في الاصل الانكليزي . والصحيح انه : عبد الله الزاخر . — المعرب .

الاضطهاد . ولم يكن باستطاعته ان يجد لهذه الحمية منفذاً الا بما يكتب . لكن المخطوطات بدت له وسيلة غير وافية بالمرام . ثم انه لم يكن غريباً عن منافع المطبعة ، واجتمع له من الجرأة ما جعله يختطّ لنفسه مشروعاً ذا شُعَبٍ ثلاث : يكتب ويسبك الحروف ويطبع . وقد انقاد له النجاح في مشروعه هذا ، لما كان له بالفطرة من جودة فهم ولخبرته في فن الحفر وهو فن سبق له ان مارسه بحكم مهنته صائغ جواهر . إلا انه كان في حاجة الى معين . فطاوعه الحظ بان وجد انساناً دخل في شركته . واستطاع شقيقه ، رئيس دير مار حنا ، ان يقنعه بان يتخذ الدير له مقراً . ومنذ ذلك اليوم خلع عن نفسه كل هم ، ووقف جهده كله على اخراج مشروعه الى حيز التحقيق . وبلغ من ثمرة حميته ومواظبته على العمل ان تمكن في العام ١٧٣٣ من ان يطبع مزامير داود في مجلد واحد . وكانت قوالب حروفه صحيحة وجميلة بحيث اقتنى كتابه حتى اعداؤه انفسهم . وجدّدت هذه الطبعة عشر مرات بين اول ظهورها واليوم . حقاً ، لقد صبت قوالب جديدة للحروف ، لكن لم يتفق ان صبت قوالب اروع من تلك التي تقلد الخط اليدوي تقليداً متقناً ، وتمثل الحروف الجميلة تمثيلاً تام الهيئة يبرأ من شكل الحروف العربية المرسومة في اوروبا ومن منظرها المزيل المضطرب .

عشرون سنة امضاها عبدالله على هذا النحو يطبع شتى المؤلفات التي هي في الغالب تراجم من كتب العبادة عندنا . ولا يعني هذا انه كان على معرفة بلغة ما من لغات اوروبا ، ولكن اليسوعيين كانوا قد ترجموا جملة من كتب . غير ان عربيتهم كانت غاية

في الرداءة ، فأصلح ترجماتهم ، وكثيراً ما أحل محلهـا نصوصه الخاصة وهي نموذج في الصفاء والاناقة . كانت العربية التي ينشىء بها مدعاة اعجاب لاسلوبها النقي الدقيق المنسجم . وكانت اللغة العربية تعتبر قاصرة عن الاتصاف بهذه الميزات . لكن تجربة عبدالله هذا برهان على ان هذه اللغة ، اذا طورها وطوعها قوم أولو علم ، فانها قابلة ان تكون من لغات العالم واقواها عبارة .

توفي عبدالله حوالى السنة ١٧٥٥ م ، فخلفه تلميذ له ، وجاء من بعده رهابين الدير ، فاستمروا على سبك الحروف والطبـاعة . إلا ان عملهم الآن يتنابه الانحطاط ويحتمل في اجل وجيز ان يترك البتة . فالكتب لا يباع منها الكثير ، إلا المزامير التي هي كتاب القراءة التقليدي عند التلاميذ المسيحيين ، فطلبها اذن متواصل . على ان النفقات موفورة لان الورق يُستورد من اوروبا والشغل جد بطيء . واذا كان قليل من الصنعة يكفي لمعالجة القصور الاول ، فـان القصور الاخر صميميّ اصبـل . ذلك بان الحروف العربية تحتاج الى ربط بينها لتتلاصق تلاصقاً جيـداً وتنزل في خط مستقيم . ومن هنا كان يحتاج العمل الى انتباه دقيق . امـا الاسفار التي صدرت عن هذه المطبعة ، فمن جملتهـا مزامير داود معربة عن اليونانية ، وسفر الانبياء ، والاناجيل ، والرسائل ، وشرح مزامير التوبة السبعة ، وتأملات للجمعة الحزينة .

خلال المدة التي تلت كتابة هذه السطور ، حاولت مطبعة لندن محاولة جدية توزيع الكتاب المقدس ونشرات العبادة . ولا شك ان مطبعة لنـدن اسرع وابسط تنفيـذاً للعمل من مطبعة عبدالله . وقد كانت النتيجـة ان اجزاء من الاناجيل والرسائل ،

منقولة الى العربية ، تم توزيعها في جبل لبنان في القرى والدساكر والاكواخ المنعزلة . ويمكننا ، بناء على الصعوبة والمعارضة اللتين صادفهما القائمون بهذا العمل ، ان نقدر العقبات التي كان على عبدالله ان يواجهها .

ان رهابين دير مار حنا – وهم كاثوليك - يستقبلون الضيوف استقبالاً حفياً ، ويبيعون منهم كتبهم في يسر وسهولة ، ويطلعونهم على ما لديهم من جهاز للطباعة العربية. وليس عندهم سوى مكبس واحد . ومن هنا كان طبع الكتاب يجري في بطء . ثم هم لا يشتغلون في ايام الاعياد ، وهي كثيرة في السنة عندهم . وهكذا يكون معدل المجلدات التي تيسر لهم اصدارها على مدار العام لا يتجاوز – كما قالوا – مائة وثمانين مجلداً معظمها مزامير . والمستخدمون في المطبعة ثمانية . وتجليد الكتب يجري في الدير الذي انقضت عليه عشر سنوات ، وعدد الاشخاص فيه خمسة وثلاثون ، ثمانية منهم رهبان والباقون علمانيون وخدم . اما الارباح التي تنتج من هذه المؤسسة الطباعية ، فتعود على بطريرك الكاثوليك الذي يقطن الذوق . وهو ينفق المال في مصلحة رعيته . ونظام رهبنتهم هو نظام القديس باسيليوس الذي يعتبره المسيحيون الشرقيون اعتبار اللاتين للقديس بنديكتوس . على ان هؤلاء المسيحيين الشرقيين قد استدخلوا بعض تعديلات وافقت عليها كنيسة روما . وهم كل يوم ينفقون سبع ساعات بالصلوات في الكنيسة ، ويعيشون على طعام قشف ، ولا يجيزون لانفسهم اكل اللحوم إلا في النادر اثناء حالات المرض المتناهية في الخطر. فتراهم كسائر الشرقيين يصومون ثلاث مرات في العام ،

ويواظبون على القطاعة مراراً كثيرة يمتنعون خلالها من اكل البيض والحليب والزبدة حتى الجبن . ويوشكون ، طوال اشهر السنة على التقريب ، ان يعيشوا على العدس والفاصوليا مع الزيت والارز والزبدة والقشوة والزيتون وقليل من السمك . وخبزهم رغيف ضئيل خشن ، مخمر تخميراً رديئاً ، يكون قوتهم ليومين ، ولا يصنع طازجاً إلا مرة واحدة في الاسبوع . ومسكن كل واحد حجيرة ضيقة يتألف مجمل اثاثها من حصير او فراش وإحرام دونما شراشف . فليس بهم اليها حاجة لانهم ينامون في ملابسهم . وملابسهم هذه هي قميص خشن من قطن مقلم اقلاماً زرقاء ، وزوج من سراويل ، وصدرية ، وجلباب من القماش الاسود الخشن الذي يبلغ من سمكه وغلظه ان يمكن نصبه دون ان ينطوي . وما منهم احد ، إلا الرئيس ووكيل المؤنة والقائم بالخدمة الكنسية ، لا يتعاطى حرفة ما ضرورية او نافعة للبيت . فهذا حائك ينسج الاقمشة ، وهذا معمار يقف على تشييد مبانيهم . ويتولى اثنان منهم تدبير المطبخ ، واربعة يعملون في المطبعة ، واربعة في تجليد الكتب . ويتعاونون جميعاً في الفرن يوم يخبزون الخبز . اما النفقة التي يقتضيها القيام بأود اربعين او خمسة واربعين شخصاً يتألف منهم الدير ، فلا تزيد في العام على مقدار اثني عشر كيساً او ستمائة وخمسين ليرا ، ومنها نخصم النفقات التي تستوجبها ضيافتهم لكل غريب ، وهي نفقات تؤلف بحدّ ذاتها مقداراً لا يستهان به . لكن اكثر هؤلاء الغرباء يتركون الهدايا او الاحسانات للدير ، وهذه تؤلف جزءاً من موارد البيت ، بينا ينتج الجزء الآخر من حراثة الارض . وكبيرة هي الارض التي

يتعهدونها بالزراعة ، يدفعون لقاءها اربعمائة قرش او خمس عشرة ليرا استرلينية لأميرين . وقد كان اول من نظّف هذه الاراضي الرهابين الاول انفسهم . على انهم اصبحوا اليوم يكلون زراعتها الى فلاحين يقاسمونهم الغلة مناصفة . والغلة تتألف من حرير ابيض واصفر يباع في بيروت ، ومن بعض القمح والخمر يقل طلبهما فيستهلكان في الدير او يهديان للمحسنين الى الدير . وقديماً كان الرهبان يمتنعون عن شرب الخمر . على انهم تخلوا تدريجياً عن قشفهم . وباتوا كذلك يتساهلون بالتدخين وشرب القهوة غير عابئين بما يوجهه اليهم الرهبان الاكبر سناً من توبيخ وتأنيب . وجميع الانظمة نفسها هي الانظمة النافذة في اديرة هذه الرهبنة كلها . وقد بلغ عددها في غضون ثلاثين سنة اثني عشر ديراً . ويقدر عدد الرهابين جميعهم فيها بمائة وخمسين .

بيت الدين

قصر الامير بشير ، سيّد لبنان ، قصر عظيم التكاليف . شكله مستطيل كبير . في جانب منه غرف الامير وحرمه . وفي جانبين آخرين غرف ضباطه وحاشيته . اما الجانب الرابع فمنفتح على الوادي وبلدة دير القمر ، ومشرف من بعيد على البحر . أفضل غرف القصر مجهزة بنوافذ زجاجية . وحوله حدائق من جلالي انتزعت ارضها انتزاعاً من تلك البقعة الصلدة . وقد جيء بالماء من التلال من مسافة عشرين ميلاً على التقريب ، واستغرق ذلك نفقة باهظة . اما السبيل الى القصر فطريق ملتوية ملتفة على درجات حجرية واطئة تقود الى هذا الحصن المعصوم — حصن هذا الامير الذي يستطيع على صوته ان يوقظ لبنان كله الى السلاح في ايام قلائل . وباستطاعة الامير ان يتمشى على أسوار قصره الذي هو وكر نسر ، فيقول مع القائل القديم : « أليس هذا هو المنزل الرفيع الذي شيّدته على أفاريز الجبال الخالدة ؟ »

يفد على هذه الاسوار البرية — أسوار العز والبذخ — مواطنون من مصر والحبشة وايطاليا وفرنسا ، كما يفد الدروز والمسلمون والمسيحيون . وهنا الجبلي الجسور المدجج بالسلاح يختلط بالكاتب

المفكر او الاديب . وربما انزوى الاديب على انفراد في فيء صخرة او شجرة ، ينظم الشعر في مدح الامير او في تصاريف الحظ العجيبة التي تقلّب عليها الامير . والارجح ان طبيب القصر – وهو فرنسي ذكي لطيف ما برح هنا مقيماً – قد قرّر كمواطنه السيد شابواستو في دمشق ، ان يمكث حتى آخر ايامه في البلد الذي رعاه وتبنّاه بمثل هـذا السخاء . والفرنسيون يفلحون جداً في الشرق بوصفهم اطباء . تعينهم على ذلك سهولة بل رغبة في تكييف انفسهم لاذواق الشعب وعاداته . تراهم لا يكتئبون لفراق وطنهم . على انهم دائمو التبجّح بـه . وليس يقلق ضمائرهم ما يرون من كثرة تنوع المعتقدات ، فهم يبتسمون تلك الابتسامة الطيبة العابثة ازاء غوامض الدروز ، واحلام الدراويش ، وسجدات الترك .

وعلى مقربة من القصر كنيسة مسيحية صغيرة . والامير نفسه مسيحي في الجبل . لكنه في عكا حين يزور الباشا ، او في مدن الساحل ، مؤمن بالنبي . عمره اليوم سبعون عاماً ، له مهابة مشيخية ولحية طويلة بيضاء . وقسمات محيّاه هادئة رقيقـة في العادة . إلا ان مـا أبتلي به اخيراً من انتكاسات الحظ قد طبع سيماه بطابع اشد قطوباً . لقد عاش حتى رأى باشوية عكا ينتزعها الباب العالي من صديقه وحليفه عبدالله . وهو الآن ، بعـد ان رجع ، كالنسر المعمّر ، الى وكره الباذخ في الاعـالي ، ينظر عبر الحدود الى العواصف المتلاعبـة بالمصائر . يتشوّف الى سقوط السلطان ، ويتطلع الى انتصارات ابراهيم [1] ، معتقداً انه سيموت آخر الامر

[1] المقصود ابراهيم باشا نجل محمد علي باشا . – المعرب .

في قصره بسلام . لكن لعل ابراهيم ، اذا وجـــد منه ذبذبة في الولاء ، يحكم عليه بنهاية اعجل واسرع . وقد كان في قصره جملة من نساء جميـلات صحبنـه في مزاره الى مصر حـين تخلى عن بيت الدين محوطاً باعدائه من كل جانب . ثم عدن صحبته فرحات مبتهجـات لدى عودته الى العرش . ان النساء في الشرق – على الاقل – هنّ مخلوقات يتطبعن بالعادة اكثر مما يتطبعن بالظروف والاحوال . فبعد الفرار والسفر والمقام في مصر والمناخ والمشهد المختلف عما ألفنه في وطنهن ، بعـد بلاط محمود علي (المقصود : محمد علي – المعرّب) حيث تعرفن الى السلطانة والمحظيات وشهدن ترفاً وبذخاً جديداً عليهن ، بعد هذه المدهشات كلها ظل بيت الدين حبيبـاً اليهن شأنه من قبل . لقد صاحبتهن الامطـــار والثلوج وعواصف الرعـــد والوحشة والعزلة في منزلهن الجبليّ الصخريّ طوال اعوام . فهل ترى لحقت بهن ذكرى حدائق البـاشا ونوافير الماء والموسيقى وحفلات الرقص الى الجـــلالي المتعرجة الملتوية وجنائن الازهار الثمينة في دار الحريم في مصر ؟ فماذا يجدي لون الكحل حالكاً كجناح الغراب في شفرات العين ، وماذا تجدي صبغة الحناء القرمزية في باطن الراحتين واطراف الانامل ، وماذا تجدي النقود الذهبية مدلاة على الكتف في اسلاك مطرزة ، اذا قلّ الوافدون على القصر لابداء الاعجاب بنساء الامير واطرائهن ؟ ان القصور الشرقية خالية من الكتب شأنها شأن بيوت زعماء الجبال القدامى . لا يقام وزن للرغبة في المطالعة ، وفوق ذلك لا وجود هنا لمثل هذه الرغبة . بقيت النزهـــات في الخلاء . ولكن الافاريز الجبلية الخشنة ، الشديدة التحدر عن كل جانب ،

تحول دون هذه النزهات اللطيفة . وعلى هذا ، ترى الخيال يعجز عن تصور حياة ، تعيشها امرأة جميلة ، اشد رتابة وكآبة من الحياة في بيت الدين . ان الشغف بالملابس هوس قديم في الشرق . ولا شك ان هذا الهوس مستوطن لبنان ، يحل بين هذه الجدران الموحشة حلوله في الاوساط الاوروبية المرحة . وقد أدخلت على هذه الجدران مرايا عظيمة لمنفعة الحرم . فلو ان العناية بالهندام في بيت الدين امكن وصفها من وراء الابواب الضخمة والاسيجة والضباب والحرس ، اجل لو امكن وصف الساعات الكثيرة التي تُقضى كل يوم بالاستحمام والتزيين والتعطر واستعراض المحاسن وتبادل الحسد والتعنيف واللوم ، لاستطاع الرائي ان يقول وحق ما يقول : «ليس الضعف هو اسمك ، بل الغرور ، يا امرأة !»

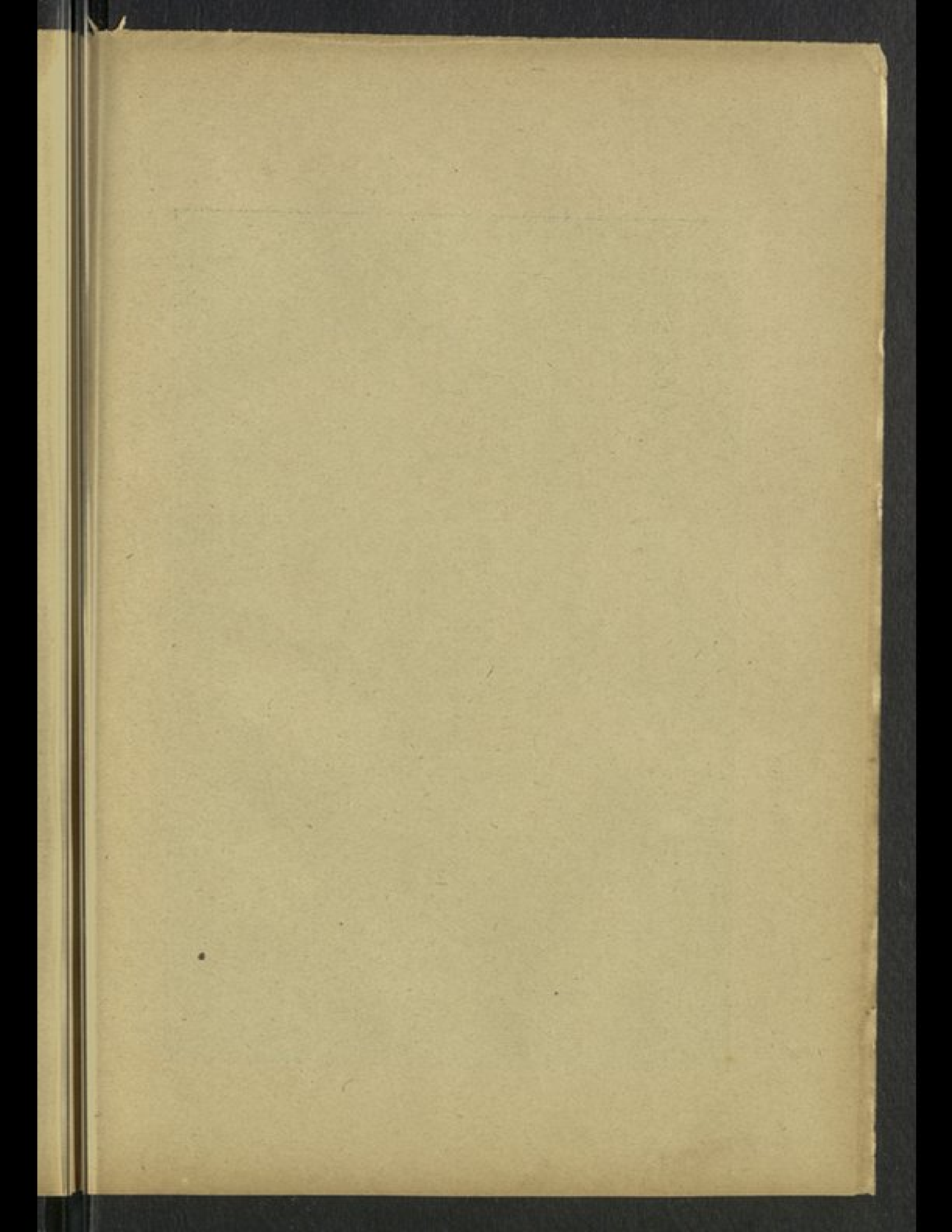
اما الصورة (صحبة هذا الفصل) فتنقل اجتماع الرؤساء وقد احتشدوا للالتحاق بجيش ابراهيم باشا وهو يومئذ على اهبة ان يوغل في سوريا قبيل استيلائه على دمشق وانتصاراته في قونية الخ . بث الامير حليف ابراهيم دعاته في جبال لبنان كلها ، فلبى اللبنانيون الدعوة مغتبطين . كان الامر كأنما الصليب المتوهج طاف بالجبال القديمة منادياً كل امرىء ان ينضوي تحت لوائه ويسارع دونما ابطاء الى الحشد . وكان الجبليون هؤلاء جنوداً شجعاناً صُبُراً ، عرف ابراهيم قيمتهم في الحركات الخاطفة الجريئة . وكان في مصلحة الامير وخطته ان يمد ابراهيم بأوفر نجدة ممكنة له . وبستطيع الامير لدى اقصى الحاجة ان يحشد قوة من عشرين الف رجل مشاة وفرساناً مسلحين بالبنادق ، ومعظمهم خيالة

طريقتهم في الحرب اقرب الى ان تكون افرادية قل ان تستتبع الخسائر والمجازر التي تقع في معارك الميادين الحافلة . اما الدروز ، الذين منهم تتألف ثلثا قوته ، فيتميزون بألبستهم المقلمة اقلاماً عريضة . وهم جيش من الرجال متين البنية صحيحها ، على وجوههم المستديرة الحليقة ، الرقيقة البشرة في الغالب ، سيماء مرح ومغامرة ، يضمون شعر رؤوسهم تحت العمامة اللبنانية الخفيفة ، لان مذاهب الاتراك وعاداتهم ليست مطلقـــاً بالزي الشائع في لبنان .

ولقد كانت المناظر حول بيت الدين ملائمة كل الملاءمة لهذا المشهد العسكري الحافل . فعلى سفوح المنحدرات ، حيث تزحف كوكبة من الخيالة ، لمعُ سنان امتد الى المراقي الصعبة ، خلال المسلك الضيق ، حيث لم يكن يستطيع الا قلة من رجال ان يتقدموا دفعة واحدة ، وبصدور معرضة . وعلى المهابط في وجهة اخرى تدفق جماعات من المشاة الجبليين على غير نظام . فالبنادق والرماح والسيوف كثيرة على المعابر الجبلية كغلايين التدخين في مقهى . لكن زحف الرؤساء وهم يمتطون جيادهم في ابهة ، بينما تسير وراءهم بطاناتهم ، كان ابدع ألواناً . وكانت الجياد ، وقد اعتادت امداً طويلاً هذه السبل والمسالك الوعرة ، تمشي حثيثة متلهفة كأنما ارجلها تطأ سهلاً بسيطاً ... هذا ، واصبحت الساحة الكبرى امام القصر مكتظة بمن وصل من الرجـــال والجياد ، بعضهم متكئون لا يفعلون شيئاً ، وبعضهم يدخنون ، وبعضهم يتحدثون جماعات . وكثير من اصحاب الفضول وقفوا على السطوح والمصاطب يطرحون النظر بعيداً ليشهدوا الرايات والجنود اللبنانيين



بيت الدين ، قصر امير الدروز



المقبلين . وامتلأت الاروقة والباحات بالضباط والعساكر خارجين داخلين في شوق ولهفة ، بينا الامير في ديوان الاستقبال مجدٌّ في تقليب الرأي مع الوجوه من مستشاريه واصدقائه . كان الجميع يشعرون ان هذا المحبوب اليوم ليس في سبيل نزاع مألوف ، او خصام موضعيّ ، لا يقاتلون فيه إلا بمقدار ما يروقهم من حماسة ، حتى اذا ضجروا نكسوا الى بيوتهم - اجل ، كان الجميع يشعرون ان هذا المحبوب اليوم انما هو في سبيل عراك مستميت تتوقف على مصيره الممالك . وليس ابراهيم ممن يتحملون الفتور في قضيته . اما قائد عساكر الجبل في المناسبات الاخرى ، فكان الشيخ بشير الزعيم الدرزي الذي حكم عليه بالقتل بعد بضع سنوات . لكن الامير في هذه المناسبة ، ابداء منه لحمية ظاهرية ، اكثر منها حقيقية ، في قضية ابراهيم ، رافق الحملة شوطاً كبيراً من الطريق الى دمشق محمولاً في محفة .

والمسيحيون هم الاوفر عدداً من السكان . على ان الدروز هم الاوفر غنىً . غير ان الفريقين نزاعان الى الحرب . وينفر[1] المسيحيون من اسم الدروز نفرة شديدة حتى ليستحيل ان يستسلموا يوماً في هدوء الى رئيس درزي . وانهم لمتعلقون بالامير الذي اعتنق الايمان المسيحي هو وعائلته منذ اجل طويل . وطالما لقي الامير عضداً من باشوات عكا وطرابلس الذين ما زالوا لمائة واربعين سنة يكلون حكم الجبل الى عائلته . هذا ، والامير الآن في حلف حميم ووالي مصر الذي حضنه في منفاه ولطف به وسخا

[1] ولعله ضرب من تعكير الماء للصيد فيه . - المعرب .

عليه . وقد تخلص الامير من منافسه الشيخ بشير . وكان من قبل مجبراً على مشاطرته كل ما يبتزه من الجبليين .

ولعل الدروز هم الشعب الوحيد الذي لا يحب الموسيقى غناء او عزفاً . فاذا اتفق ان سمعت في اكواخهم او حفلاتهم واعيادهم ألحانُ القصائد ، او النشائد القومية ، او الانغام الجبلية ، فقليلا ما يكون ذلك اذا كان . ويعدم الدروز ايما نوع من انواع الآلات الموسيقية ، فهم يزحفون الى الحرب دونما بوق او مزمار او نشيد .

دير القمر وقصور بيت الدين

القصر في مقدمة الرسم هو قصر الامير بشير . اما قصر اولاده فعلى الهضبة في اعلى . وقد انتهى اجتماع الرؤساء وحشد الجنود المسارعين الى لواء ابراهيم . وأخليت قاعات الامير من جماهير الخيالة المتلهفين وجماهير المشاة. وخيم صمت نسبي ، « صمت على قاعات كوتولتين » ، وطفق رأس نبات القرقفان الشوكي ينحني في مهب الريح ، والقرقفان كأنه يقول : « دنا أجل ذهابي ! » كذلك الشيخ سيد القصر ، المتربع على ديوانه في الداخل ، ولحيته البيضاء تمسح صدره ، لا بد له ان يكون شاعراً بان أجل ذهابه اصبح غير بعيد جداً . فهل هو يستطيع ان يلقى تلك الساعة دونما قلق ، دونما ألم ؟ قليلاً ما يبدي الامراء الشرقيون في شيخوختهم صورة من ذلك الغروب ، غروب شمس القلب الذي يكون آخر شعاعه وختام مجده عزيزاً جداً مغبوطاً جداً ، يغوص ويتوارى في بطء ، لكن ليستيقظ مرة اخرى مع ذلك اليوم الذي لا ليل بعده !

إن سيرة ملأى بشديد الانفعالات والتصاريف والتبدلات ، سيرة مفعمة احياناً بالعنف والاجرام ، لتحمل المرء – اذا كانت مباركة قد قيض لها الفوز والظفر – ان يتشبث بالحياة برغم ان

يده القابضة على الصولجان تكون معروقة ذاوية . ويد الامير قانئة بالدم ، يعجز ان يكسف لونها الصارخ جلبابه الابيض الجميل الذي يغطيه من الرأس الى القدم وما يلمع في ثناياه من ألماس منقطع النظير في توقده واشراقه . لقد قضى على زعماء العشائر الاقوياء المنافسين له ، قضى عليهم وعلى اطفالهم بين جدران قصره . وسمل عيون الكثير من الامراء وصادر املاكهم ، فأصبحوا الآن يعيشون وأسرهم في قرى لبنان المحذوفة النائية . وهو يبرر هذه الافعال بشافع من الضرورة ، ويدّعي ان كل حاكم عادل مسالم مكتوبة له الخيبة نظراً لاستبداد السلطان الاناني وتطاحن الولاة السوريين وتغايرهم وتحاسدهم . لكن مياه لبنان كلها لا تستطيع ان تنقع ظمأ امرائه الى السلطة والمغنم . الدم وحده يقدر على نقع هذا الظمأ . وإذن فليهرق الدم غزيراً سخياً .

المشاهد حول قصر بيت الدين ملائمة للتأملات القاسية التي لا رحمة فيها . فاذا بقيت ثمة في الضمير خلجة ضعيفة ، فان هذه المشاهد تكون ملائمة ايضاً للندامة والتبكيت . ليس هذا القصر في موقع يودّ فيه المرء ، الذي يهوى مناظر هذا العالم العذبة الناعمة ، ان يجتمع بعدوّه الاخير . هنا على كل جانب احراج قفرية ، وجلامد قاحطة ، ومعابر مسننة الانحدار . وفي اسفل تنبسط المهاوي العابسة ، المقفرة من الشمس ، كاشفة عن احضانها المستحمة في سيول غير حبيبة الى النفس ، كأن لسان حالها يقول : ايها الغريب ، هذه هي مطارح لبنان المظلمة القاسية لا امجاده ! وفي اعلى ، بلدة دير القمر . فهل فيها من جواذب حلوة ؟ تلك منازلها الصلعاء مصعدة في المراقي الخشنة ، وتكاد سقوف بعضها تتكىء

على سقوف بعض . ومع ذلك ، ففي اعلى ايضاً ، قمم لا جمال فيها ولا سموّ . لقد امضى الكاتب اثني عشر يومـاً في دير القمر وبيت الدين ، فكانت أشد ايام رحلته إمحالاً وبعـداً عن السلوى والعزاء . ظلت تأتيه زمجرة من شلال طاحون غير بعيد ، على علو خمسين قدماً ، — زمجرة تطغي عـلى عجيج سيول الشتاء . وراحت الشمس ، في فترات متفاوتة جداً ، تطل بابتسامة منغّصة على القصر ، على الأودية الشبيهة بالجبوس ، وعلى القمم الشرسة . ذلك مشهد شديد النتأة ، قوي التلوين ، يضرب العـين ويعجب لاول وهلة . على انه سرعان ما يتحول الى منظر قمطرير ، باعث على الضجر ، قابض للصدر . فلشد ما يتمنى المرء ان يشرف على البحر البعيـد الذي كان يطلّ بهجاً مؤنساً كمحيا صديق في الصحراء ، يطل من فجوة واسعة بين الهضاب والشمس ، تتكسر الاشعة على امواجه الزرقاء التي بدت كأن صوتها يقبل من بعيد ويقول : « تعال ، اقترب من مشاهد أروع وأحبّ . » إلا اننا ، ويا للأسف ! لم نكن نستطيع ان نلبي الصوت . فقـد عادت العاصفة ، كأن الفصل شتاء هبطت فيه الغيوم مظلمة ثقيلة على افاريز الجبال ، وغدت الطريق مستحيلة على العبور . ومع أن في المكان ، هنا وهناك ، طوائف من الشجر موزعة على المنحدرات ، فانها لتبدو بمظهر الغريب ولا توفر إلا مأوى يسيراً وظلاً هزيلاً . هنا وهناك شجرة النخل والتوت والتين . لكن آه لك يا مغارس مصر التي بكى زوالها الشعب وارتفع عويل الامة كأنها تنوح على فقد اول مولود ! شد ما كنت يا مغارس مصر تظهرين بهيّة مجيدة على هذه المنحدرات !

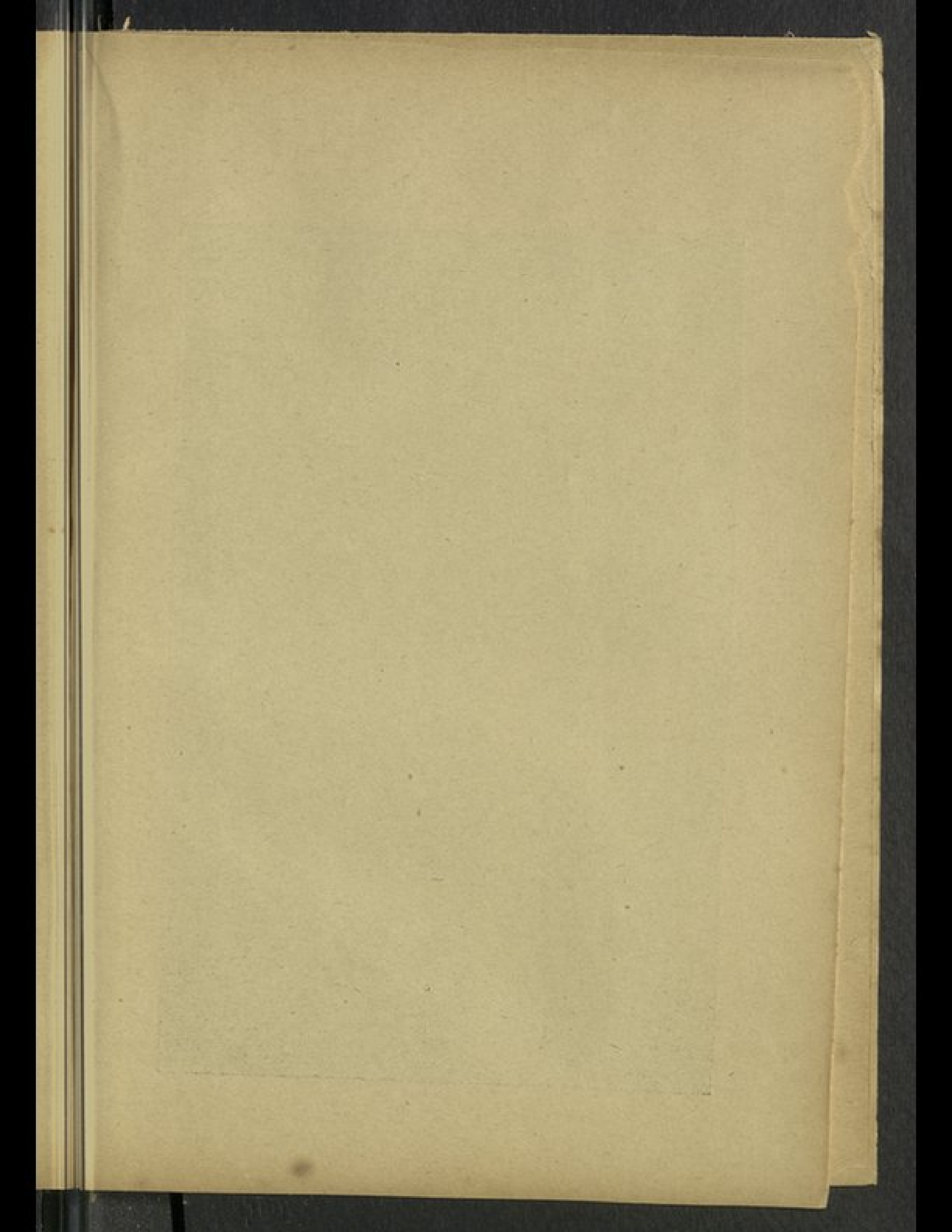
ليس يسوغ ان نفترض ان دير القمر غنية بالجنائن . ولقد كانت سميراميس تجد صعوبة في ان تعلق في هذا الموضع جنائنها الفضائية . اما صبايا البقعة فهنّ جنس جميل معافى ، بشرتهن أميل الى الرقة والاشقرار والازهار ، تطول قاماتهن بتلك الزينة الفذة التي يرتدينها على قمة الرأس : قرن فضي يبلغ ارتفاعه القدم ، عليه رسوم ونقوش غريبة محفورة فيه . وهو يُنصب على الرأس نصباً ، ومنه يُدلى الجلباب او العباءة بحيث تنسدل انسدالاً حلواً على جانبي الوجه . ولعل هذه العادة القديمة هي التي يشير اليها المزمور في قوله : فلن ينصبوا قرنهم على ارتفاع ، ان قرنهم ليكوننّ مرتفعاً .

هذا ، والاهلون متمدنون يحترمون الغرباء . اشخاصهم وملابسهم نظيفة ، وهندامهم انيق . ولا يتمتع النساء إلا بحظ يسير من النحافة ورشاقة القالب ، على ان ابدانهن قوية تتدفق عافية ، وسيماهن سيماء الجبليات الصريحة الوديعة . وقلّ ان يدخل بيوتهم الترف والرخاء . ويندر ان يدعى المسافر الى اجتياز عتبة منازلهم . وهم يحرثون الكرمة حرثاً صالحاً فتنتج شراباً قوياً حلواً ابيض ، يمكن شراء الربعية منه بشلن . كذلك يمكن الحصول هنا ، كما في معظم الانحاء اللبنانية ، على لحم البقر الممتاز ، المساوي في جودته لحم بقر انكلترا . اما الزراعة فتكون في الجلالي التي تسورها الجدران حفظاً للتراب من ان يجترفه ماء المطر .

يقول بركهاردت Burckhardt : « تستحق قبور المسيحيين ان تكون موضع نظر . كل عائلة لها بناء حجريّ نحو اربعين



دير القمر وقصور بيت الدين



متراً مربعاً ، تدفن فيه العائلة موتاها ، وتبني على المدخل سدّاً بعد كل دفن . وهذا النحو من الدفن خاص بدير القمر . والارجح انه نشأ نتيجة لصعوبة احتفار القبور في هذه الارض الصخرية التي عليها يقيمون . اما الاسر المسيحية الغنية فتكون على مقابرها قبب صغيرة . » ويبلغ عدد الاهلين نحواً من اربعة آلاف ، موارنة ودروز ، يحوكون كل ادوات الالبسة التي يرتديها الجبليون . وهم مهرة على نحوٍ خاص في عمل العباءات النفيسة او الجلابيب الحريرية المنسوجة بالذهب والفضة ، وهي لباس الرؤساء من مشايخ الدروز . ويسكن هنا عدد يسير من عائلات تركية معزولة في هذه العاصمة الجبلية بالنظر الى اختلاف المذهب والعادات [1]. واليوم بعد ان كسف سعد ابراهيم سعود سلطانها ، فان وضع هذه العائلات التركية اصبح غير مقبول اكثر منه بالامس . اما دير الموارنة فهو على مسافة يسيرة الى اعلى ، ويشرف على البلدة والاودية . واما خاوات الدروز فموزعة في الجبل على تفاوت . وهي محجوبة عن عيان المراقبين . ولا يؤذن لغريب ان يطلع على عبادة الدروز السرية الغامضة وطقوسهم . إلا ان الغريب ، اذا اتيح له الاطلاع ، فلن يكافأ بمعرفة عبادة وطقوس مؤثرة هي بقايا عهود قديمة اشد صفاء ونقاء . فديانة الدروز هي في شطر منها بدعة محمدية ، مختلطة بطقوس زائدة ، وبمفهومات مستعارة من المسيحية ، وبجوّ من الغموض والسرية اسبغ على ذلك كله اسباغاً . ويحتفظ اصحاب

١ استغنينا هنا عن عبارة لا تزيد في المعنى ولا تنقص منه . — المعرب .

هذه العقيدة[1] بسر عقيدتهم احتفاظاً شديداً ، برغم ما لهـا من تأثيرات بعيدة عن ان تعزّي النفس - تأثيرات تستولي مع ذلك استيلاء اشبه بسحر على عقولهم[1] شأنها شأن الفرماسونيّة واشياعها المتشبثين بها .

في قصر بيت الدين كثير من البذخ والابهة . ففي الجناح الجنوبيّ العربيّ يكسو الرخام الارض وتقوم في الوسط نافورة . اما الجدران فمكسوّة بالعـاج ، مطلية بالذهب ، مزينة بالنقوش العربية في حروف مذهبة كبيرة . ومثلها جدران قاعة الديوان الاميريّ ، ومنها جانب سدلت عليه أنفس شالات الكشمير فوق بطانة من الاقمشة الجوخية .

يقول لامرتين Lamartine : « ملء القاعات والماشي تمتد الجسور السقفية النحيفة الرشيقة كجذوع النخل ، وتقوم الاعمدة المشوقة الهيفاء . وهنـا درج رخامي ، مزين بحواجز حديدية مشبكة على صورة نقوش عربية ، يقود الى مدخل دار الحريم حيث يقف عبيد زنوج يرتدون الملابس البهيـة ويتسلحون بالمسدسات ذات المقابض الفضية وبالسيوف الدمشقيـة المرصعة بالذهب . وخمسمائة او ستمائة من الخيول العربية مربوطة الرؤوس والقوائم بحبال تتقاطع ممدودة في الساحة . وكتّاب فضفاضو الجلابيب ينتظرون في ديوان الامير وفي زنانيرهم محابر قصبة مشكوكة كالخناجر . اما الحمامات فهي خمس قاعات او ست ، مبلطة بالرخام ، وجدرانها وسقوفها مطليـة بالجبس ، ملونة

[1] حذفنا هنا نعتين لا يليقان . - المعرب .

بالدهان ، صنعها فنانون من دمشق علـــى نحو يفيض ذوقاً واناقة . ثم تقدمنا الى زيارة الساحات والاصطبلات . وان المرء ليعجز عن تصور الخيول العربية اذا لم يزر خيـول دمشق او خيول الامير بشير . اجل ، على المرء ان يشهد هذه الجياد في كسوتها البديعة المطرزة بالذهب واللؤلؤ ، بينا تغطي رؤوسهـا شبكات من الحرير الازرق او الاحمر منسوجـاً باسلاك الذهب والفضة ، وهي تهز باعرافها الطويلة السوداء وتضرب باذنابهـا جوانبها المصقولة صقلاً جميلاً ، بينا تثبت عيونها النادية الذكيـة المملوءة انفة وإباء في وجه الغريب ... وتلبس امرأة الامـير ، الاثيرة عنده ، طنطوراً على رأسها تبعاً لعادة اللبنانيات . لكن طنطورها مذهب مرصع بالحجارة الكريمة . »

أفليس من اشد المرارة ان يغادر المرء هذه الاشياء : هـذا القصر الذي وضع تخطيطه وشيـــده على افريز الجبل ، وهـذه الامبراطورية التي احرزها بجهد نصف قرن وجرائم نصف قرن ، وهذه السلطة التي تحول الشيخوخة الى امر رهيب ؟ أفليس من المؤلم ان يمضي المرء كالحشرة ، بينا الجياد تتلفت الى مولاها ، والامراء يتطلعون الى مشيرهم ، ولبنان يشخص الى سيده عبثاً وسدى ؟ لتقبلن نساؤه الجميلات فيعولن عليه ويقلن : « اين مجده ؟ واأسفاه ! » ومع ذلك فان هـذا الرجل برغم ما يلقى من مشقة في استجابة داعي القبر ، سيواجه المنية رابط الجأش ، هادئاً كجزار عكا وعلي باشا يانينا . فلم يكن في موتهما جوقات . لم يكن فيه تكدير وازعاج . »

ان طباع الامير بشير لينة ، سهلة ، مشفوعة بالوقار . وبشرته

طريئة ملأى بالعافية . وفي ابتسامته عذوبة . وسيماؤه واحاديثه هي سيماء الشيخ واحاديث الحكيم . لقد بلغ الخامسة والسبعين ، لكنه نشيط لا يعيا . يفيق قبل مبزغ الشمس ، مواجهاً ضغط اعماله اليومية برأس محنك بمرس هادىء ، وسواء أكان هذا الضغط عصياناً او ابتزازاً او تجارة او تمرداً وخيانة . ثم يطوف في مملكته الجبلية على جواد رائع من خيوله العربية . فاذا كان المساء قعد ينظر في شؤون وتفاصيل اهدأ وأبسط ، واستقبل الرؤساء والغرباء . ما من ساعة ، ما من هنيهة ، إلا لها قيمتها في نظر هذا البشري الخارق . فكأنه يشعر مع سيسل Cécil بروعة المستقبل وجماله :

لاني اسمع دائماً ورائي
عربة الزمن المجنحة تقترب مسرعة .
وفي الاتجاه ، امامي ، اشهد
صحاريَ من اللانهاية الرحبة !

ومع هـذا ، فلا تنقضي بضع سنوات او بضعة اشهر حتى تنطفىء وتبرد في بيت الدين هـذه العبقرية الحية ، وهـذا الفؤاد الذي لا يرأف . لكن ، الى اي مشهد ، ترى ، تعبر هذه الروح ؟ الى قصر آخر كقصر بيت الدين ؟ الى مباءة اخرى للبذخ والكبرياء والجمال والرهبة ؟ — ولم تتب هذه الروح عن شيء ولم تكفـِّر عن شيء ؟

قرى الباروك

يقطن هذه القرى جبليون من الدروز . وهي قائمة في موقع من افقر المواقع في لبنان . ويندفع تيار نهر الباروك في الوهدة تحتها ، وتشمخ وراءها قمم ارفع منهـــا ، على مسافة ساعة او ساعتين . اما في الشتاء فهي مضرب بارد للعواصف . واما في الصيف فهي ملجأ محبوب لهوائها النقي المنعش .

ان لبنان في نظر الراهب والراعي لأغنى بقاع العالم تلويناً وسحراً . يستطيع الراهب في هذه المنعزلات ، ذات الجمال الرائع والخلاء والبساتين والمغارس ، ان يشرف من جلاليه على البحر مغطى بألف شراع . ويستطيع الراعي في كل يوم ان يقتـاد قطيعه الى المنحدرات الخصبة والوهاد العميقة وافاريز الجبال التي تمد ظلها على الاغوار . وحتى هذه القرى الباروكية التي تبدو معلقة في السحب ، او على حفافي المهاوي ، لا تعدم زناراً رقيقـاً يحيط بها من شجر الارز والصنوبر وسائر الشجر ، مما يحجب الجلامد الهائلة ويخفف من وحشة المشهد .

اما الطريق التي تسوق هذه القرى فمسلك يرهق الاعصاب ، يبدو انه نُحت نحتاً في اكداس الحجارة الكلسية التي منها تتألف

تلك الآكام . والمنازل مبنية من الحجر الكلسي ، سطوحها مبسوطة بسطاً ، ونوافذها ابداً صغيرة ، والباب قائم في الوسط ، وواجهة البيت غير مغسولة بالبياض . ومن هنا كانت سيماء المساكن اللبنانية ترتدي – على صورة عامة – طابعاً ترابياً ارضياً . فاذا كان الجو شاتياً عاصفاً ، حُبِس المسافر وراء الابواب ، وفي ذلك ما فيه من الكدر وفقد الراحة لأن الشبابيك لا زجاج لهـــا . فيضطر المسافر ان يقفل المنافذ ودرف الخشب ويقبع في عتمة تشبه الظلمة . ولقد سألتُ اهل البيت كيف يتدبرون امرهم في اوقات الشتاء الطويلة الموحشة الرديئة الطقس ، فأجابوا انهم يعمدون على إقفال الغرف إقفالاً ضابطاً ويضيئون القناديل في النهار ، حتى اذا كان المساء اجتمعت العائلة وبعض زوّار من الجيران فدخنوا لفائف التبغ وتسامروا وقطعوا الساعات حتى يأزف اجل النوم .

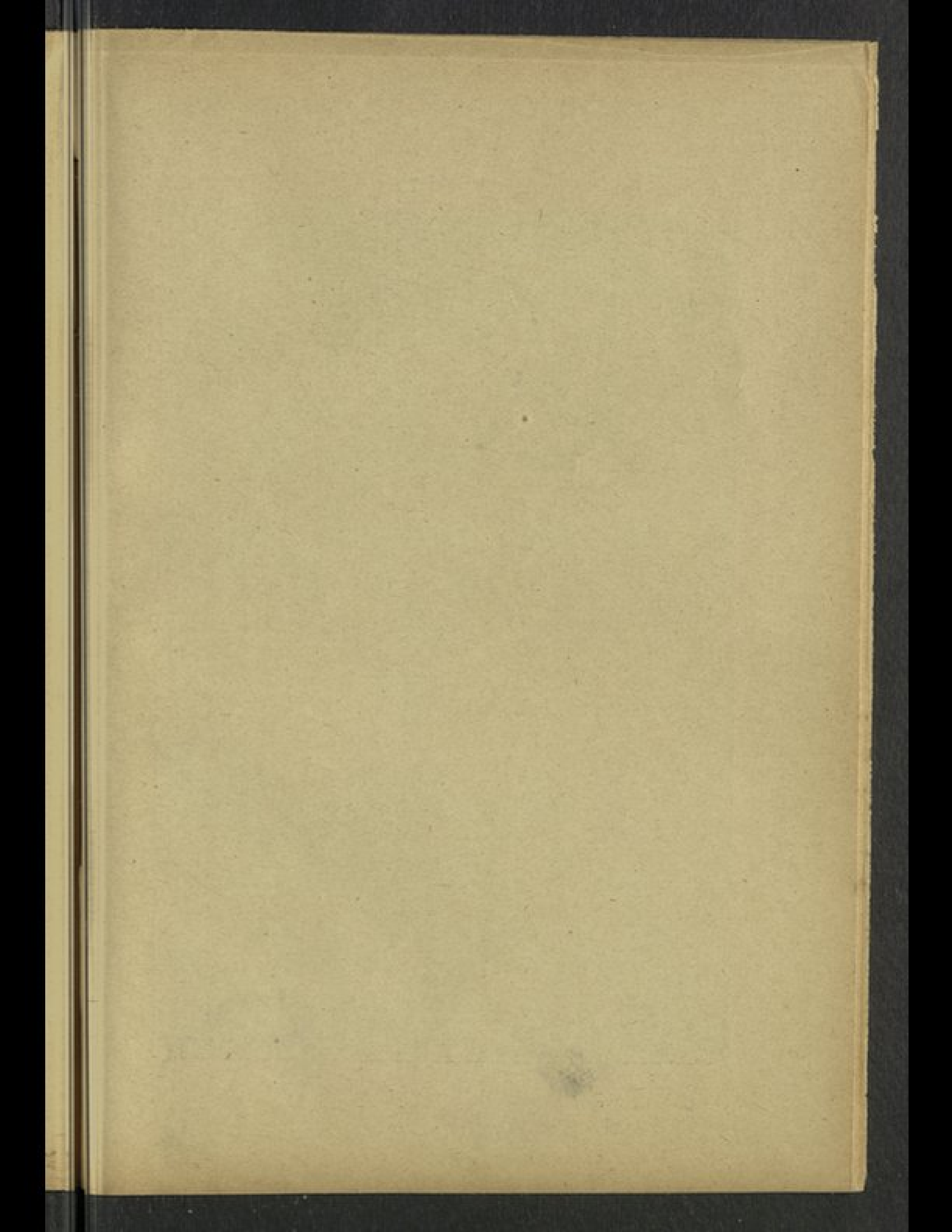
ينبغي لبيوت هـــذه القرى ان تكون موحشة كئيبة اذا قارب فصل الخريف نهايته فانطلقت فوق هذه البقعـة عواصف الرعد والبرق والشتاء ، وزحف الضباب الكثيف فحجب الجبال طوال ساعات بل ايام . على ان الفقر غريب عن هذه المنازل ، فكثير من اهلها اصحاب املاك لا بأس بها . ذلك بان هـذه القرى إنما هي المسكن الرئيسي لعشيرة اليزدكيين [1] ، ويستطيع المسافر ان يجد دائماً لدى شيوخها ضيافة وترحيباً . وليس في اللوحة ، صحبة هذا الفصل ، سوى طائفة من البيوت .

ان بعض نساء هذه القرى على وسامة وملاحة. تراهن في الحفلات

[1] لعل المؤلف يقصد اليزبكيين . – المعرب .



قرى الباروك



والاعياد يلبسن على زيّ عشيرتهن القديم لباساً ترفاً غنياً ، بل هن يبرزن احياناً في الثياب ذاتها ، والحليّ ذاتهـــا ، التي كانت ترتديها جداتهن . وان قضاء بضعة ايام ، في هـذا الموقع المنعزل ، لينطوي على غبطة منفعلة قوية . فهنا المآكل الموفورة التي يشارك بها المسافر العائلات ، وهنا الاستماع مع المساء الى الغناء الجبليّ ، وهنا التدخين والسمر مع الشيوخ الشيّب . وبعـد ان يكون المسافر قد جَهِد شطراً من نهاره ، مشياً في المسالك القـائظة ، وصعوداً في المراقي المضنية ، تراه يستحلي الراحة على هـذه القمم الصديقة ، ويستعذب الوقفة قليلاً قبل ان يستأنف سعيه عبر سبل أشقّ واوعر . وحتى هنا نجد الصبايا لا يزلن يدرجن على الزيّ القديم – ومتى كان للزيّ ان يتبدل في هذه الخلوات الجبلية ؟ فهن يلبسن على الرأس القرن الفضي العالي ، ويدلين منه الوشاح الطويل ، فاذا مشين على المنحدرات بدا لهن هندام مسرحي انيق منسجم . وحُبّ اللباس والهندام في الباروك منتشر كحبّه في باريس ولنـــدن . لكن ، ألم يكن هـــذا هو الشأن في فلوات « بادان – آرام » في عهود ابسط واوفر حظاً من البدائية ، يوم كان لرفقة كنزها من الحليّ ويوم فرحت بجواهر أليزر ، مع ان رفقة هذه كانت تنتشل المـــاء من البئر للجمال ولا تعرف من الرجال إلا انهم سكان خيام او قفار ؟

وفي هذا الصدد ، يقول احد الرحّالين في ذرى لبنـــان : « لقد صادفتُ الليلة نموذجاً تاماً من هذا الولع باللباس والهندام ، صادفته عند ربة البيت . فلقد اخرجت من خزانتها مـا لا يقل – على ايسر تقدير – عن عشرة جلابيب خارجيـة وبرود ذات

ألوان مطرّزة مرصعة بأزاهير ذهب وفضة . بعض هذه الثياب قديم يرقى الى عهد زواجها ، وبعضها اقدم . وهي لا تلبسها إلا في الاعياد الكبيرة ، حين تجلس جلستها الرسمية لاستقبال الاصدقاء ومناولتهم القهوة والشُبُق للتدخين . لكن من دواعي الاستغراب ان يعارض المرء بين ثيابها النفيسة البديعة واشغالها اليومية الوضيعة . فانها ، لدى القيام بواجبات البيت العادية ، تكنس المطبخ وتغلي القدور الخ...، ولا تتناول طعامها إلا بعد ان يفرغ زوجها واصدقاؤه من الاكل ، فتقعد ارضاً هي واولادها والخدم عند عتبة قاعة الاستقبال . وتلك هي ، على الاغلب ، حالة النساء في هذه الاصقاع . ورأيت لها جدائل كثيرة تتدلى على طول ظهرها ، منتهية بـ « شراريب » من نقود ذهبية ، اذا أضيفت الى النقود على رأسها ، فربما بلغ ثمنها بين خمس وعشر ليرات استرلينية . لكن هذا شأن لا يستطيع احد ان يجاري فيه الاحبار والاكليروس انفسهم ، فانهم يتجلببون في الاعياد الكبيرة بجلابيب باهرة فخمة تكاد تكون انوثيّة . اما ذلك الضرب من الزينة ، الذي تكتفي به الروح الوديعة الهادئة ، فقليل ما هو معروف في هذه الارض . على ان التزويق في تصفيف الشعر ولبس الذهب وارتداء البزّ امر محروص عليه حرصاً مدروساً . واشهد انني ضجرت من ربة البيت وهي تريني ألبستها ضجراً ظهر عليها منه العجب . »

إلا ان هذا التحرّج الذي ابداه هذا الرحّالة في شأن عادة عريقة محبوبة – هي عادة الولع بالثياب الفخمة الترفة التي لا يصادف لبسها إلا مناسبات نادرة مخصوصة – انما هو تحرّج

يوشك ان لا يكون له موضع . ذلك بان هذا الولع بالثياب الفخمة ليس مبعثه الشغف بالزيّ ولا الاسراف في النفقة والشهوة الى التبديل والتغيير . صحيح ان حب المظهر الفخم في اللباس ، عند رجال الكهنوت ، ينطوي على مناقضة وميلٍ مؤذٍ . اما فيما يتعلق بتلك السيدة المستوحشة فان ملامتها على اهتمامها بتلك الثياب امرٌ لا يكاد ينطوي على كرم نفس او رقة . فما اقل ما يرافق حياة هذه السيدة من مباهج ، وما اكثر ما يعرض لها من ذل ! فاذا هي حرمت فوق ذلك ايام التبرّج والزينة ، وهي الايام الوحيدة التي تجلس فيها جلسة السيدة في بيئتها ، فانها تحرم لذاذة من لذائذها الرئيسية .

هذا ، وقد حصل لي يوم غادرتُ قرى الباروك وصعدت الى الذرى المجاورة التي هي اعلى علوّاً ، ان هبطت عن هذه القمم والليل يزحمني دون ان يتاح لي بلوغ بيت مأهول . فوقفت عند خربة من كوخ مهجور ذهب سقفه . فلم يكن ميسوراً لي ان آوي اليه ، فاضطررت الى التماس المأوى في كهف صغير يتدلى من سقفه ركام مخيف من حجارة ، نزعنا منها ما يمكن نزعه واخرجناه من الكهف . وبُسطت السجّادة ارضاً . ففرحت بان اريح عليها مفاصلي التعبة . وكان العشاء نزراً يسيراً تناولته من بقية الزاد ، ثم انتقلت ، في هذا البيت القفري ، الى نوم عميق عمق نومي فيما لو كانت الفرش الوثيرة في غرفي وراء الاتلنتيك حاضرة لدي .

معبر في غاب الارز

فوق الباروك

يقع هذا المعبر في الطريق بين دمشق ودير القمر ، على بعد نحو ثلاث ساعات من دير القمر . الوقت لا يزال غدوة ، والنسيم الجبلي منعش في عذوبته ، رحّبنا به ترحيباً على اثر مبيتنا الليلة السابقة في كوخ سوري لم نصادف فيه راحة . والثلج على اشجار الارز وقنن الجبال يخفف ما في طبيعة المشهد من وحشة وجفوة ، وقمم لبنان تتجلى امامنا اشبه بأمواج البحر ينقلب بعضها على بعض . وتعرض لنا صخور عن يمين الطريق تخيم على ممشانا ، وتطل من بين شقوقها — هنا وهناك — شجرة مسنّة ترعى عندها قطعان من ماعز يبدو انها تحس المكان إرثاً لها منذ الفطرة .

انها لمعارضة قوية بين هذا المعبر القفري واللذات والمباهج التي عرفناها في دمشق خلال ايام عدة قضيناها فيها . لكن أليست أخصبُ عواطفنا واطيبُ متعنا هي ، في الغالب ، نتيجة لمثل هذه المعارضة القوية ؟ فمن الجنة الى الصحراء ، ومن الرمل المحروق الى الينبوع ، ومن دمدمة العالم المنهمك ، حتى عالم الجمال ، الى اندفاع السيل الجبلي وزعقة النسر وضراوة الجبال !..

وكانت غابة الارز والبلوط التي اوشك المسافر ان يدخل فيها ، هي الغابة الوحيدة الماثلة للعيان . شد ما كانت توحي بشعور

الصداقة ، حتى ظلامها نفسه كان شيئاً جميلاً . وقدام هذه الغابة وخلفها وعن جانبيها ، كانت سلسلة من المرتفعات ، مسننة عارية ، او ذات طابع كطابع الحديد ، قائمة على شكل ابراج ما زالت عواصف لبنان الشرسة تلطمها لأجيال وأجيال . واحياناً تخترق هذه المنحدرات ثغرات هابطة ، صعبة على النزول ، منهوشة الجوف لشدة ما جرف منها ، مثلمة الحفافي مقلصة ، يلوح انها تنتظر في وجوم ووحشة ساعة الانهيار ، فقد تعبت من امتداد الاجل . على انّ الانحدار الى الغابة كان احلى جداً وادعى الى البهجة . فالممر هنا مكسو الجانبين بالاعاشيب والازهار البرية ، يهبط برفق ولطف صوب قلب الغابة ويمضي ملتوياً خلال ظلالها ومنفرجاتها ، ليفضي من ثم الى اعماقها الحافلة الغارقة في الصمت ، لا يرتفع فيها إلا رنين جلجل الجمال بصوت غريب كئيب . ذلك موضع لم يكن ليجوز تركه على استعجال . فالكوخ السوري لم يقدم لنا ما ينعشنا ساعة الرحيل . ورأى المسافر ان جذع واحدة من هذه الاشجار الشريفة — اشجار الارز — يكون موضعاً طيباً للراحة وتناول طعام الافطار . فما اسرع ما أوقدت النار وهيئت القهوة ، وبدت تلك البقعة المعشبة ، المظللة كالسرادق ، أبعث على النشوة من اترف قصر عثماني في دمشق . ولم تكن في الحرج البعيد القريب رتابة مما تدفع السآمة والملل . كانت جاداته ومسالكه تمر فوق منحدراته رأساً ، او تلتف حولها التفافاً ، او هي تشد طوقها على كتل من الصخر القديم مبطوحة او مقببة ، تبدو كأنها اسرى ضاغنة تأسرها هذه الغابة الازلية ذات البأس والعزم .

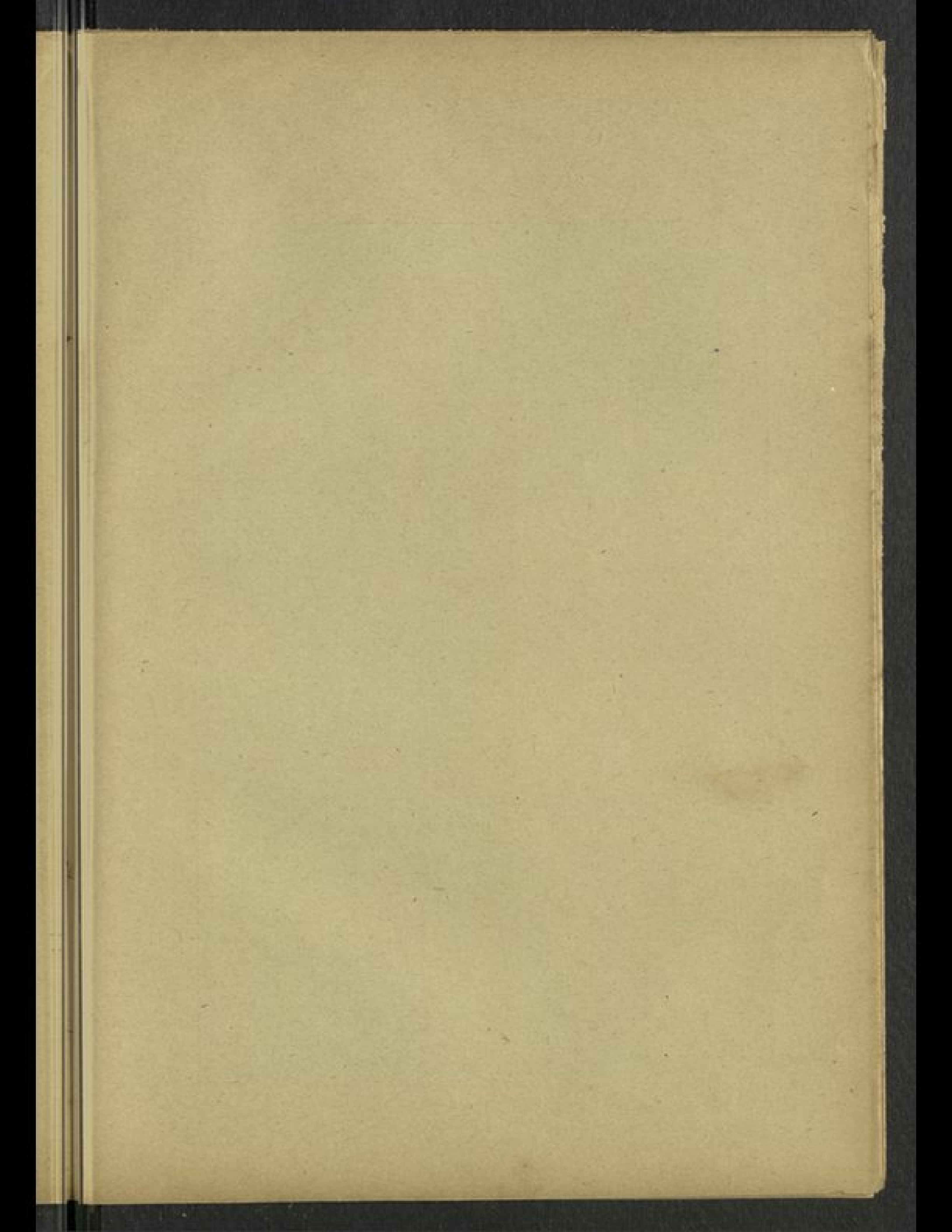
اما مكان هذا المعبر ففوق البـــاروك : قرية درزية كبيرة واقعة على الضفاف الطليقة – ضفاف نهر الباروك . وقد أجرى الشيخ بشير فرعاً من هذا النهر الى قصره الجبلي في المختار [1] . وكان مصير هذا الرجل الوجيه الذي نافس الامـــير بشير في بيت الدين ، اجلا طويلا ، على النفوذ والشهرة ، مصيراً محزناً ومسرحياً على التقريب . كان الشيخ بشير غنياً فطناً ، فارس حرب يبز الامير نفسه . وكثيراً ما كان يتولى قيادة القوات المشتركة بينهما . ومن هنا لم يكن الامير يستطيع عمل شيء ذي اهمية إلا بموافقة الشيخ ومساعدته . ومن هنا ، ايضاً ، كان الامير يضطر الى مقاسمته ما يدفعه الجبليون او ما يبتزه منهم . ولقد كان الشيخ بشير درزي المذهب ، يحبه اتبـــاع هذا المذهب جميعاً [2] . وعلى هـــذا كان يلوح ان الزعيمين متساويان في الوجاهة والنفوذ . إلا ان الامـــير كان في الحقيقة اوفر قوة واكثر حكمة . ومضت سنوات جملة ظهر فيها الرجلان على احسن علاقة . فكان الشيخ ، في كل اسبوع على التقريب ، يأتي من قصره في المختارة ليزور الامـــير في بيت الدين ومعه موكب صغير من الخيالة . اما الامير فكان يستقبله دائماً بأعظم ترحاب . والمشهور عن هذا الشيخ انه كان امرءاً سخياً شجاعاً . وقد شاهده الكاتب في زيارة من زياراته الى قصر بيت الدين ، فرأى فيه رجلا مديداً ، معـــافى ، مستدير الوجه ، زهري

١ كذا في الاصل : Mochtar . والمقصود : المختارة . – المعرب .

٢ استغنينا عن عبارة لا تزيد في الموضوع ولا تنقص منه . – المعرب .



معبر في غاب الارز فوق الباروك



البشرة ، له عين زرقاء سريعة الومض ، ولباس بسيط على الطراز الدرزي ، وملامح تعبر عن القوة والطيبة وشيء من شراسة الجبليين .

فلما فر الامير الى مصر ، ولبث فيها شريداً منفياً ، دخل الشيخ بشير هذا في محالفة وشقيق الامير ، بغية الاستيلاء على امارة لبنان . على ان الباب العالي ما عتّم ان اعاد الامير الى امارته بتدخل من والي مصر . فما رجع الامير بشير الى بيت الدين ، حتى بات شيخ المختارة عرضة لانتقامه . فطلب منه الف كيس عوضاً من خسائره ومن نفقاته في المنفى . فأبى شيخ المختارة ان يدفع ، وانسحب من قصره ، ودخل للمرة الثانية في محالفة وشقيق الامير ، واستدرج الى الشركة في هذه المؤامرة ثلاثة آخرين من صغار اخوة الامير [1] ، وكان هؤلاء قد لبثوا في اقاليمهم دونما اختلاط بالمكايد التي تحاك ضد شقيقهم الاكبر صاحب البأس والنفوذ . وكان محتملاً ان تؤدي هذه المؤامرة الى القضاء على الامير ، لولا النجدة التي تلقاها من صديقه عبد الله باشا والي عكا . وطورد الشيخ بشير واعتقل في سهول دمشق ومعه حرسٌ من مائتين من اتباعه . وكان بوسعه ان ينجو بنفسه في سهولة ، إلا انه وثق بما قطع له الضابط التركي من تأكيدات بأسم باشا دمشق ، فاستسلم واقتيد الى تلك المدينة ، حتى اذا بلغها جُرّد من ثيابه وشُدّت احدى يديه الى امام كما شُدّت يده

[1] لم يكن للامير بشير اخوة اصغر منه ، بل كان له شقيق واحد اسمه حسن . ومن المؤكد ان المؤلف يشير الى بعض انسباء الامير بشير ممن اشتركوا في المؤامرة ضده ، فبطش بهم وشردهم . — المعرب .

الاخرى الى وراء، ودُفع به الى السجن، فمكث فيه شهوراً، ثم حوكم في اسطمبول وحكم عليه بالموت[1]. لم يطرأ ايما تغير على سيمائه ساعة أدني منه حبل المشنقة. لقد واجه مصيره بجأش رابط. والتفّ الحبل على عنقه فخنقه. ثم فصل رأسه عن جسده الذي قطع إرباً ورمي للكلاب. اما اخوة الامير الثلاثة الصغار فاعتقلوا عندئذ، وقطعت ألسنتهم، وسُملت اعينهم، ثم نفي كل واحد منهم مع امرته الى قرية خاصة بعيدة عن الاخرى.

ومنذ ذلك العهد، اصبح الهدوء يخيّم على لبنان بصورة نسبية. فليس للامير منافس الآن. وقد عزّز شرطته وثبتها في امارته تثبيتاً اوفر منه في السابق. وكانت صداقة عبد الله باشا، والي عكا، حصناً واقياً له الى ان قهر ابراهيم وجيشه المصريّ

١ لم يؤخذ الشيخ بشير جنبلاط الى الاستانة، ولم يكن مصرعه فيها. وانما قتل في عكا. اما تفصيل الامر فهو ان الامراء والمشايخ الذين تمردوا على الامير بشير، في «حركة المختارة» المشهورة، اضطروا بعد اخفاق حركتهم ان يفروا الى قرى الجيدور فنزلوا قرية نوا. فلم يلبثوا حتى جاءهم العسكر الذي ارسله وزير دمشق في طلبهم. وخادع قائد العسكر الشيخ بشير فاستسلم هذا اليه، فاقتيد الى دمشق وحبس في قلعتها، ولبث حتى طلبه عبد الله باشا والي عكا من وزير دمشق، فأنفذه اليه. فلما اصبح الشيخ بشير جنبلاط في عكا، كتب الامير بشير الى عبد الله باشا يسأله ان يقتله. فماطله عبد الله باشا في الامر. فكتب الامير بشير الى محمد علي باشا عزيز مصر يسأله التأييد في حمل والي عكا على قتل الشيخ بشير. وكانت لمحمد علي باشا يد على عبد الله باشا، فهو الذي انقذه من غضب السلطان واعاده الى ولايته بعد عزله عنها. فلما قدم رسول محمد علي على والي عكا طلب منه قتل الشيخ بشير، نزولا على رغبة الامير بشير، حتى اسرع هذا في تلبية طلبه. فقتل الشيخ بشير خنقاً، وطرح جثته ثلاثة ايام امام باب عكا (عن تاريخ الامير حيدر الشهابي، طبعة نعوم المغبغب، ص ١١٣، ١١٥). - المعرب.

عبد الله هذا . واليوم يتوقف بقـــاء الامير بشير على دوام حكم ابراهيم في سوريا . فالامير قد واطأ الفاتح المصريّ مواطأة ذهب فيها الى حد بعيد ، بحيث يتعذر عليه ان يفوز بعد اليوم برضى البـــاب العالي . على ان بوسعه ان يترقب ، آمناً في قصره الجبليّ ، نجم السلطان الذي يشحب نوره شحوباً سريعاً كما تدل الاحتمالات كلها . وبوسعه ايضاً ان يتحدّى الاقدار نفسهـــا ان تستطيع تنغيص سنواته القليلة الباقية بنبأ من المشنقة او من خلع السلطان له في اصطمبول .

ونرى في اسفل الرسم ، صحبة هذا الفصل ، اعـــالي وادي الدروز . لا تبعد عنه قاعدة بيت الدين إلا مسافة ثلاث ساعات . كذلك على مسافة ثلاث ساعات من هذا المكان ، يقع على جانب الجبل قصر المختارة الذي خلا الآن من سيده . وهو قصر يقوم وسط عشيرة الدروز اليزدكيين [١] واوجه شيوخهم . وكان منتظراً من هؤلاء ، بما يبذلونه في الوقت المناسب من ولاء وشجاعة ، ان ينقذوا رئيسهم الكبير من مصيره القاسي المفجع .

١ لعل المؤلف يقصد اليزبكيين . – المعرب .

جبل الشيخ وحرمون

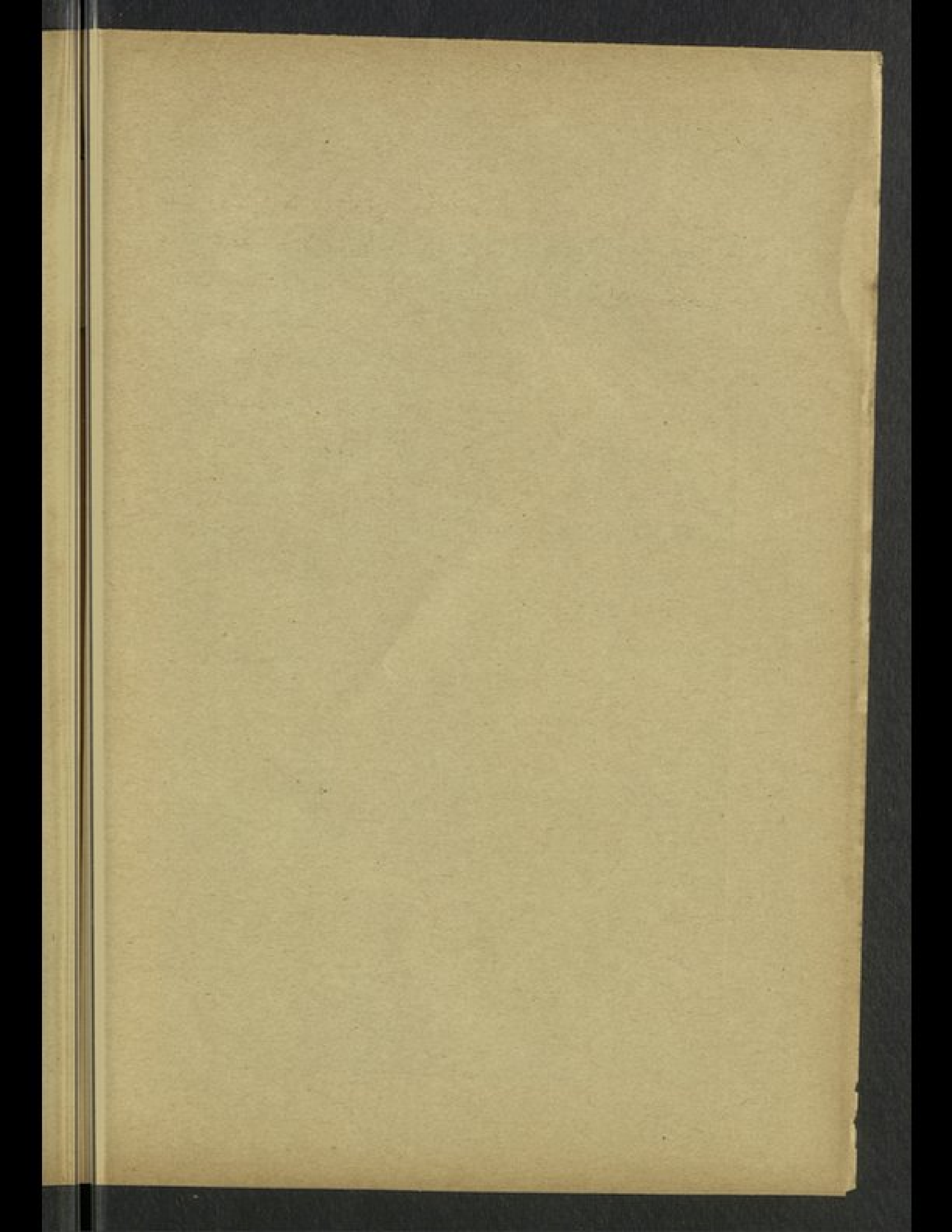
من على راس لبنان

يتراءى هذا المشهد البديع من على رأس الممر الذي يمتد من قرية الباروك الكبيرة الى قرية جب جنين ، على الطريق من دير القمر الى دمشق . ورأس الممر هذا نقطة تشرف على مدى سهول البقاع وبعلبك ، لتفسح من ثم في مرمى للنظر الى فلسطين — الى بعيد . حقاً ان هذا المشهد لشرقي على التمام ، مطبوع بسيماء كآبة ، وقفري بري لم يعالج — او لم يكد يعالج — بجرائة ، لكنه يوحي بالمجد والجلال . اما الجبل في مقدمة الرسم فجبل الشيخ ، مغطّى القمم بالثلج ، علوه اعظم علو في سوريا . وهو يندمج بسلسلة جبل حرمون الطويلة ، السلسلة التي تمتد الى فلسطين .

يكاد لبنان هنا ان يكون مكشوفاً ، تبدو منحدراته موزعة عليها الجلامد الضخمة . اما الحس الذي ينمو في نفس من يجتاز هذا الممر فحس الكآبة ، حس يستولي على المسافر بينا هو يدرج على مهل في طريقه تحت غمرة من ضوء القمر . وتزيد في رهبة المشهد عبوسة الليل وسكينته ، فيبدو كل شيء خلاءً موحشاً . وتتأمل العين ، في شوق ولهفة ، سهول آسيا ، وتتساءل عن



جبل الشيخ وحرمون من على أوج لبنان



مدنها ودساكرها ومواضعها المأهولة ، فلا تبصر إلا جبالاً نحاسية عارية مخيفة ، وإلا سهولاً يبدو ان حلّق فوقها ملَكُ الفناء . وليست بعلبك البعيدة سوى محض بقعة خضراء تتراءى منعكسة على الآكام الكلسية .

ومع ذلك ، فالمسافر لا يملك ان يتأمل ويتأمل ، برغم صعوبة الطريق ووعورتها ، ويكاد يعجز ان يسلخ بصره عن هذا المشهد الذي يسري أثر مهابته وكآبته سرياناً سريعاً الى افكار المسافر وتصوراته . ولاحت لنا في البعد بحيرة تتلألأ بين الجبال . كانت تلك على الارجح مياه ميروم (؟) Merom [1] . لكن الدليل قال انها طبرية . على ان تقديره كان مستحيلاً .

في الشتاء ، لا تجتاز هـــذا الممر الوعر الوحشي إلا قوافل صغيرة . ومن عادة المكارين ، في مثل هذه النقاط الصعبة ، ان يبسطوا امام بغالهم سجاجيد تمنع حوافرها ، إذ تمر ، من أن تسوخ سوخاً عميقاً في الثلج . يقول بوركهاردت Burckhardt : « لقد عبرت هذا الممر في آذار . كانت القمة يومئذ متوجة بالثلج ، وعليها ضباب كثيف . وكانت قد مضت علينـا ساعة ونصف الساعة ونحن نصعد صعوداً من قرية الباروك القائمـة على الضفة الطليقة - ضفة نهر البـاروك الثجاج . ولو لم يكن قـد سبقنا ببضع ساعات رجلٌ مر بالمكان ، فخلف آثار خطاه ، لتعذر علينا ان نهتدي سبيلنا . مراراً غرقنا الى الخواصر في الثلج ، حتى اذا بلغنا القمة اضعنا آثار خطى الرجل . على اني اكتشفت نهراً

[1] لعلها الحولة . - المعرب .

يجري تحت الثلج ، فاتخذت من مجراه دليلاً . وبرغم ان صاحبي الدرزي استولى عليه القنوط وألحّ بالرجوع ، فقـــد استأنفت الزحف ، أقع مراراً وأقوم ، حتى افضيت الى سهل البقـاع ، على مسافة ساعتين من القمة .

الثلج لا يريم عن قمة جبل الشيخ على مدار العام . ويرى هذا الجبل رؤية حسنة من صور . ومنظره مـــن سهل مدينة دمشق ، في الصيف والخريف ، منظر جلل مريح لارتكاز العين . وشد ما يطيب للبصر ، بعد اذ يكون قد شبع من المزارع والعرائش والبساتين ، ان يمرح متكاسلاً على رقاع ثلجه المقفرة . وكثيراً ما اشتهينا ـ ونحن نجوس خلال المواقع الضيقة الحارة ـ ان نتطلع الى قممه الباردة البـاهرة ، كأن مشهد هذه القمم بالذات يهدىء من قلق الوهم ويلطف من حدة الحرارة والظمأ .

مشهد عام لبعلبك ولبنان الشرقي

كان جمع من خيّالة ابراهيم باشا قد توقفوا عند الخرائب لبضعة ايام ، يستغرقون في كل يوم بضع ساعات في تمارينهم العسكرية ، ويدل مظهرهم على النشاط والصحة وهم فوق خيولهم العربية ، وبينهم عدد من الخيّالة اللبنانيين الذين أمدّ بهم الامير بشير حليفه ، وما من هؤلاء إلا من هو مسلح برمح وسيف وبعضهم مسلح ببندقيات علقوها بالاكتاف وراء الظهور .

كانوا يقومون بتمارينهم في السهل عند سفح جدران الهيكل العظيمة . وكان مشهدهم بين الخرائب ، وهم في ملابسهم الملونة تلويناً خفيفاً ، مغرياً جداً بالتصوير والتأمل . وكانت حركاتهم رشيقة ، يندفعون احياناً اندفاع الريح بازاء الاعمدة والجدران ، ويمزقون سكون المكان بصيحاتهم العالية . اما خيامهم البيضاء ، وراءهم ، فكانت تضفي على السهل حياة . وكانت اسلحتهم المركومة ، وخيولهم المربوطة الى جانب ، واشكالهم البربرية المتحركة تحت الاشجار او المستندة الى حجارة الهيكل المتداعي ، تبدو جميعها في معارضة قوية مع الهيكل وروعته وجلاله العبوس القطوب .

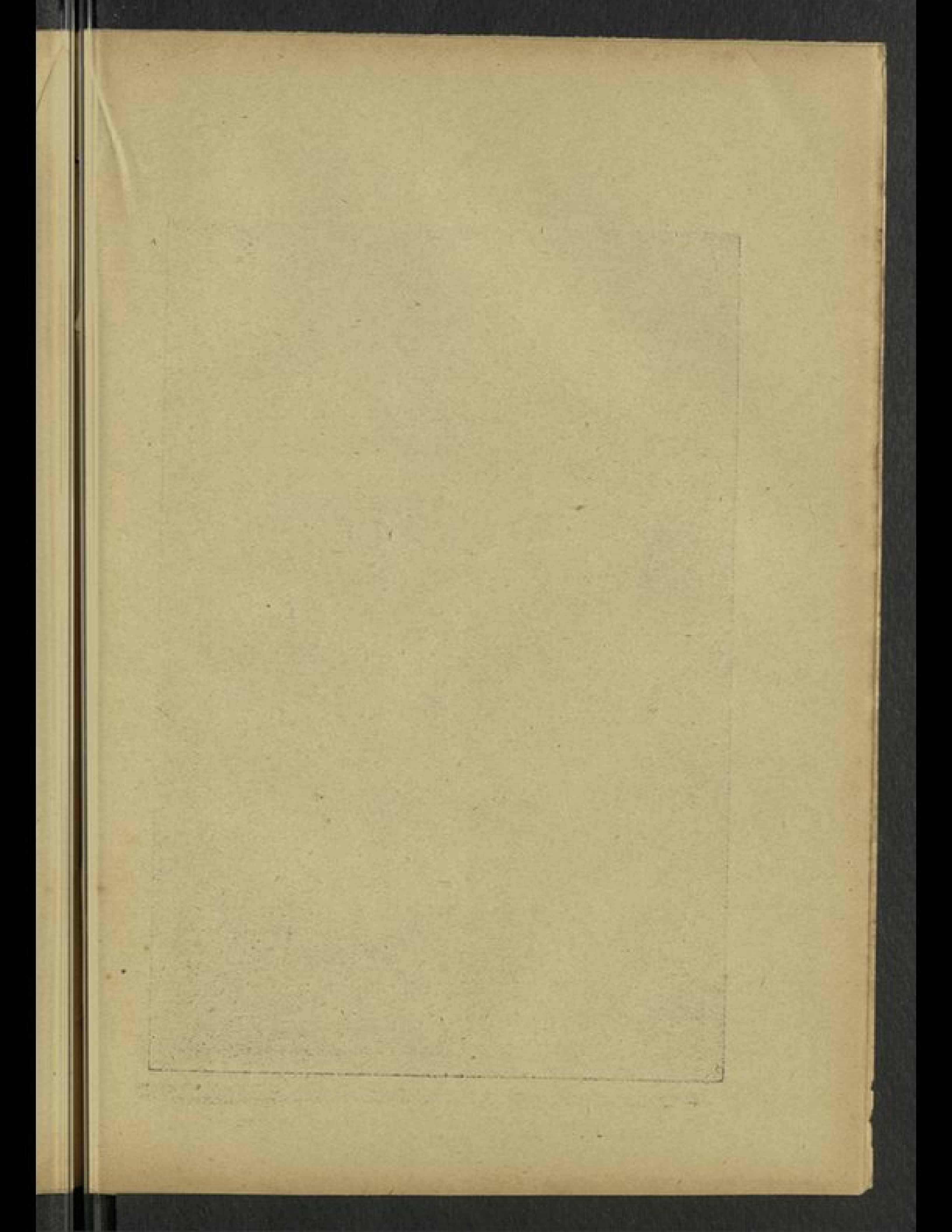
ينقل هذا الرسم منظراً مجملاً لبعلبك . ويتراءى هنا ، على وجه خاص ، الجدار الخارجيّ العظيم المصدّع تصديعاً شديداً ، ومعه جزء من باب الهيكل الكبير يبدو بنصف اعمدته وحسب ، فانه الى هذه الناحية ، وقد مال احد هذه الاعمدة ولم يزل متكئاً بتاجه على جداره الأم ، بينا يستنقع اسفله في البركة الصافية تحته . وفي وراءه ، تمثل الاعمدة الستة المنفردة المستوحشة الكئيبة ، وهي مشرفة بعلوّها على الخرائب كلها ، وفائقة في روعة جمالها .

ويحيط بالهيكل العظيم جدول من الليطاني يعكس على صفحة مياهه الاعمدة النبيلة ويغمغم ويصحل حول الانقاض المنهارة . ومن حسن حظ بعلبك ان ابراهيم باشا لم يكن له ذوق في التخريب كمن سبقه من الفاتحين الذين نزلوا المكان : الاتراك مثلاً ، وفخر الدين الامير الدرزي الشهير ، عدا الزلازل الارضية . وان من العجب ان يكون قد بقي هذا المقدار من هذا الركام الجليل المهيب . مراراً حُوّل هذا البناء الى حصن حربي ، فاستعملت مواده الاثرية لتشييد الابراج ومعاقل الدفاع . ومع ان زحوفاً من قوات ابراهيم قد عبرت مراراً بهذا الموضع وتوقفت فيه ، ومع ان موقع الحرب قريب من بعلبك - الامر الذي يعرض للخطر سلامة هذه الآثار النفيسة - فانها قد ظلت بمأمن ومنجى . ولا تبعد حمص - المدينة التي دارت فيها رحى اول معركة كبيرة - سوى يوم ونصف يوم من بعلبك .

... الى الطرف الاقصى ، من عن يمين ، يتجلى الهيكل الصغير المستدير الشكل ، هيكل منفصل عن سائر الخرائب مسافة ستين ذراعاً انكليزية تقريباً ، بسيط في جماله وله طابع اثري مريح



مشهد عام لبعلبك ولبنان الشرقي



مؤنس بعد عظمة الهياكل الاخرى الكبيرة وسعة انفساحها . ويشبه هذا الهيكل سائر الهياكل المجاورة في انه مبني بالحجر الكلسيّ المرصوص ، حجر يقبل الصقل الناعم ويحكي المرمر المبرغل ، ويوجد على مقربةٍ من المحلة ، يكون ابيض عند اول اقتطاعه فاذا تعرّض للطقس انشح بمسحة صفراء او حمراء . وقد سبق لهذا الهيكل في زمن ما ان كُرِّس للعبادة المسيحية . فان شكله غير العاديّ وزخرفه ليجعلانه موافقاً لايمان اهدأ وانقى منه لهيكل وثنيّ . ويُرقى الى هذا الهيكل بسلسلة من ادراج بهيّة تقود الى عتبة فسيحة مزينة تزييناً سخيّاً بالافاريز تعلوها قنبطرة بديعة الصنع . ويقدّر باطن هذا الهيكل باربعين قدماً طولاً وعرضاً . اما ظاهره فيبدي ستة اعمدة كورنثيّة الطراز ، مصفوفة على ترتيب خاص ، ومفصولة عن الحائط ، يرتكز على كل واحد منها في حالة الاكتمال صفيح ناتيء مزركش ، مما يسبغ على ظاهر الهيكل عن بعد سيماء مضلّع سداسيّ الاضلاع . وبين كل عمود وآخر منصب لنصب التماثيل . وشدّ ما هي جميلة هذه الاعمدة النحيفة المشوقة التي لم يبق منها على حالة مرضية سوى اربعة . اما السقف فقد هبط . واما مادة بناء هذا الصرح فيخيل لرائيها اول الامر انها مرمر . وكثيراً ما أخطيء في تقديرها على هذه الصورة .

والوسائل لراحة المسافر في بعلبك رديئة . والدير الارثوذكسي [1] فيها ، اذا استحق مثل هذا الاسم ، حقير قذر ،

[1] ليس في علمنا ان في بعلبك ديراً ارثوذكسياً . — المعرب .

تقوم في باحته الصغيرة بضع حُجَرٍ موحشة هي مكان النزول المعدّ للاوروبيين . وقد كان نصيبنا واحدة منها . على ان الاقبية الفسيحة المعتمة ، تحت الهياكل ، كانت تكون لنا ملجأ انظف وادعى الى التأثر .

ولا تقيم في بعلبك إلا بضع عائلات مسيحية يخدمها كاهن فقير . وسائر السكان جميعهم محمديون .

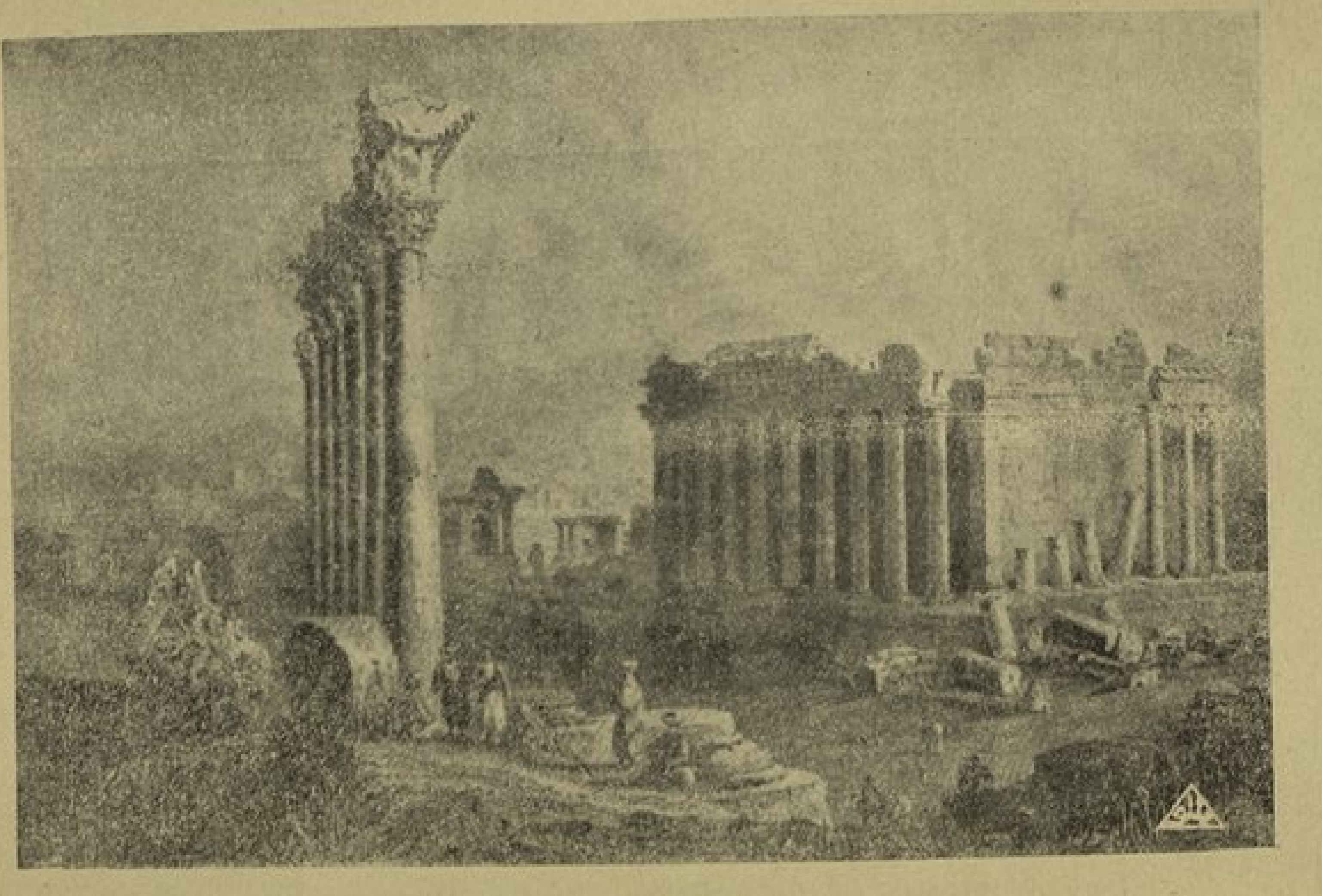
خرائب بعلبك

الطريق من دمشق الى خرائب بعلبك ملأى بالطرافة والمتعة . تراها قفرية صخرية في مواضع ، ثم تنقلب جميلة مؤنسة تحاذي بقاعاً محروثة حرثاً طيباً . وعلى مداها قرى فاتنة المواقع تعترضها اصوات ومشاهد باعثة على النشاط ، هي اصوات الجداول ومشاهدها في انصبابها السريع . اما تدمر ، فان الساعي إليها لينطلق عبر ارض حارة عطشى ، لا تتخللها واحة تدعو المسافر الى التريث او تدعو خياله الثائر الى الوقوف عندها . لكن مع ذلك ، فقد يكون ان الحرمان الذي يستوجبه بلوغ تلك الخرائب ، وقد يكون ان هذا العياء الشديد ، كلاهما يزيد في قيمة هذه الخرائب في رأي العين .

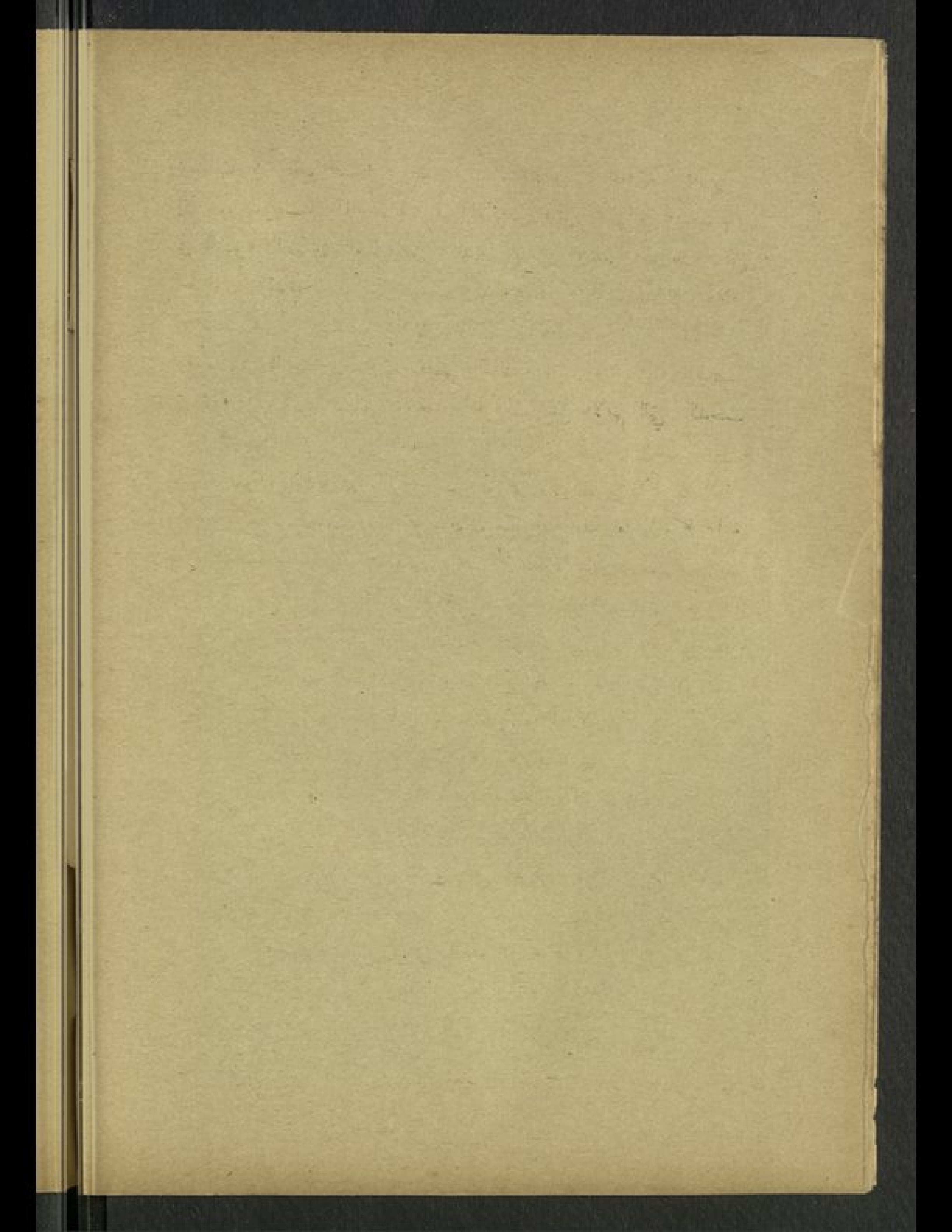
ان زيارة بعلبك لأقرب الى ان تكون نزهة بديعة ، يتخللها – هنا وهناك – من البقاع القفرية الوحشية ما يسبغ عليها طابعاً من التنوع الرائع المدهش . ويزيد موقع هذه الخرائب في شدة تأثيرها في النفس . فالسهل الذي تقوم عليه الخرائب يكاد يكون خلواً من مرأى الاشجار . لكن على جانب الهيكل يتجلى بستان صغير من شجر الجوز والصفصاف والحور والدردار ،

بينا ترتفع ، على كثب ، السلسلة الطويلة : سلسلة جبال لبنان الشرقية . اما مدينة بعلبك الصغيرة ، فمركزها على نهر من الارض مجاور ملاصق ، يتعارض مشهد مآذنها البيضاء الرقيقة تعارضا فذاً ومشهد كتلة الخرائب السوداء . والحق انها دنيا كاملة من الخرائب ، دنيا منعزلة مقدسة ، لا يحل فيها العربي الصحراوي شأنه في تدمر ، ولا تدنسها يد الاجنبي شأنها في مصر . والناس المقيمون حولها شعب رعائي مسالم . ويبدو ان الشمس ، التي شيّد الهيكل على اسمها ، لا تزال متريثة في المكان تشرق بمجد اعنف وأشرس ، ترسل اشعتها القرمزية ، الاولى والاخيرة ، على الخرائب الباكية الكئيبة : خرائب كالقبور العربية المعزولة في البوادي لن تفتح احشاءها عمن تنطوي عليهم ، او تطأطيء رؤوسها ، حتى يُنفخ في البوق الاخير .

تنقضي ايام وأسابيع كثيرة قبل ان تشبع من بعلبك شهوة الاطلاع ، او تضعف المتعة واللذة بها . لكن لنفرض انك عييت باستقراء هذه الحيطان المرمرية ، والقناطر المزينة تزييناً غنياً سخياً ، والابواب المرمرية ذات الجوانب الضخمة العظيمة ، والحجارة الصوانية المنزلة في الجدران الخارجية : تلك الحجارة التي استغرق تنزيلها في مواضعها جهد امة بأسرها على التقريب ، اذن فاجلس على هذا العمود الاسطواني الهاوي ، او على هذا التاج الحجري الذي كان يكلل رأس احد الاعمدة : ها هو المساء يقبل . وها هو العربي يخرج قصبته (للتدخين) . ثم ها هو الغسق – الغسق المشرقي البديع الراعش الظلال – يسترق الخطى جواساً خلال الانقاض . يا لها من هنيهات جميلة تعلق الذكريات



خرائب بعلبك



هنيهات لا يطفو فيها صوت على الانقاض الدفينة والافاريز ، إلا صوت مسيل الماء يموج زبده الابيض وتغور بحيراته الصغيرة ، في الضوء السري الغامض ، الذي يتلاشى ويمحى سريعاً عن الخرائب المهيبة . فيا ايها الزمان ! نداء هذه الخرائب نداؤك وجلالها جلالك . ولن يستطيع الملاك ، الذي سيحط قدماً في الشاطىء وقدماً في البحر ، ان ينطق برسالة ادعى الى رعشة الغبطة وخشعة المهابة مما تنطق به هذه الخرائب عن الامم التي كدحت هنا كدحها في سبيل الخلود . هنا بذل الهنود والمصريون والعبرانيون واليونان والرومان قواهم ومواهبهم بذلاً سخياً . كل امة منهم تمجدت هنا ، ثم غاصت متساقطة بدورها . وكل امة هنا انتفعت بجهود التي سبقتها . فمن الحجارة هنا ما هو منحوت ومشغول تماماً كالحجارة في اعمدة القدس تحت الارض . حقاً ان التشابه في الصنعة ليستوعي الانتباه بقوة ، حتى ليرد الرائي عمل هذه الحجارة الى شعب واحد وعصر واحد . فاذا هي قورنت بأجزاء اخرى كثيرة من البناء – وهي اجزاء لا شك في انها رومانية – اتضح انها على الارجح ترقى الى ما قبل ثمانمائة وعشرين سنة ، الى العهد البعيد ، عهد سليمان ملك يهوذا واسرائيل باني حماة وتدمر في الصحراء . « لقد شيد اللاجئون الذين اشتركوا في إقامة هذا الاثر الضخم بناءهم على اساس ممن سبقوهم . نحتوا للحجارة القديمة وجوهاً جديدة كيما يبدو ان العمل كله ينتمي الى عصر واحد ، وكيما تتمثل العصور المختلفة التي اجتازها هذا الاثر بضرب واحد من الحجارة الجبارة . »

ويتوارى الغسق في الليل . على انه ليل لا حنادس فيه .

نجومه شاحبة على صدر الجبل ، واشد شحوبا فوق الهيكل الذي تعجز اضواؤها عن بلوغ اعماقه ومخابئه . فما عليك الساعة ان تطوف بالمكان الخالي الموحش . لقد انصرف البدويّ الى راحته . وتلك ناره الحارسة تضطرم تحت الجدار اضطراماً ضئيلاً . وعباءته البيضاء تغطي النائم تحتها كالكفن . فما عسى ان تعني له امجاد العصور الماضية او الاجيال التي كدحت هنا وفنيت . ولو ان هذه الالوف من الاجيال اتيح لها ان تلتمّ من سحيق العصور ودائر الامم فتهب من راحتها تحت انقاض اعمالها الجبارة ، لتصاعد عويلها المتمازج فكان احفل بالكآبة والمرارة من الصراخ المأتميّ الذي يطلقه هذا البدوي فوق الضريح الصحراوي : ضريح من احبهم .

اما ما يبدو في الرسم ، صحبة هذا الفصل ، فهو الهيكل العظيم على شكل مربّع غير منتظم ، وموقعه الى اقصى اليسار . ثم يظهر ، الى ادنى ، ذلك البناء المرمريّ الصغير على شكل مضلّع ، ثماني الاضلاع ، بأعمدة على الطراز القورنثي . بقيت الاعمدة الستة المهيبة السمراء في مقدمة الرسم ، وقد مثلناها ووصفناها تمثيلاً ووصفاً أدق في فصل ورسم مستقلين . وفي مقدمة اللوحة ايضاً بناء اتمّ واكمل . فهذا يعرف بالهيكل الثاني .

الهيكل العظيم في بعلبك

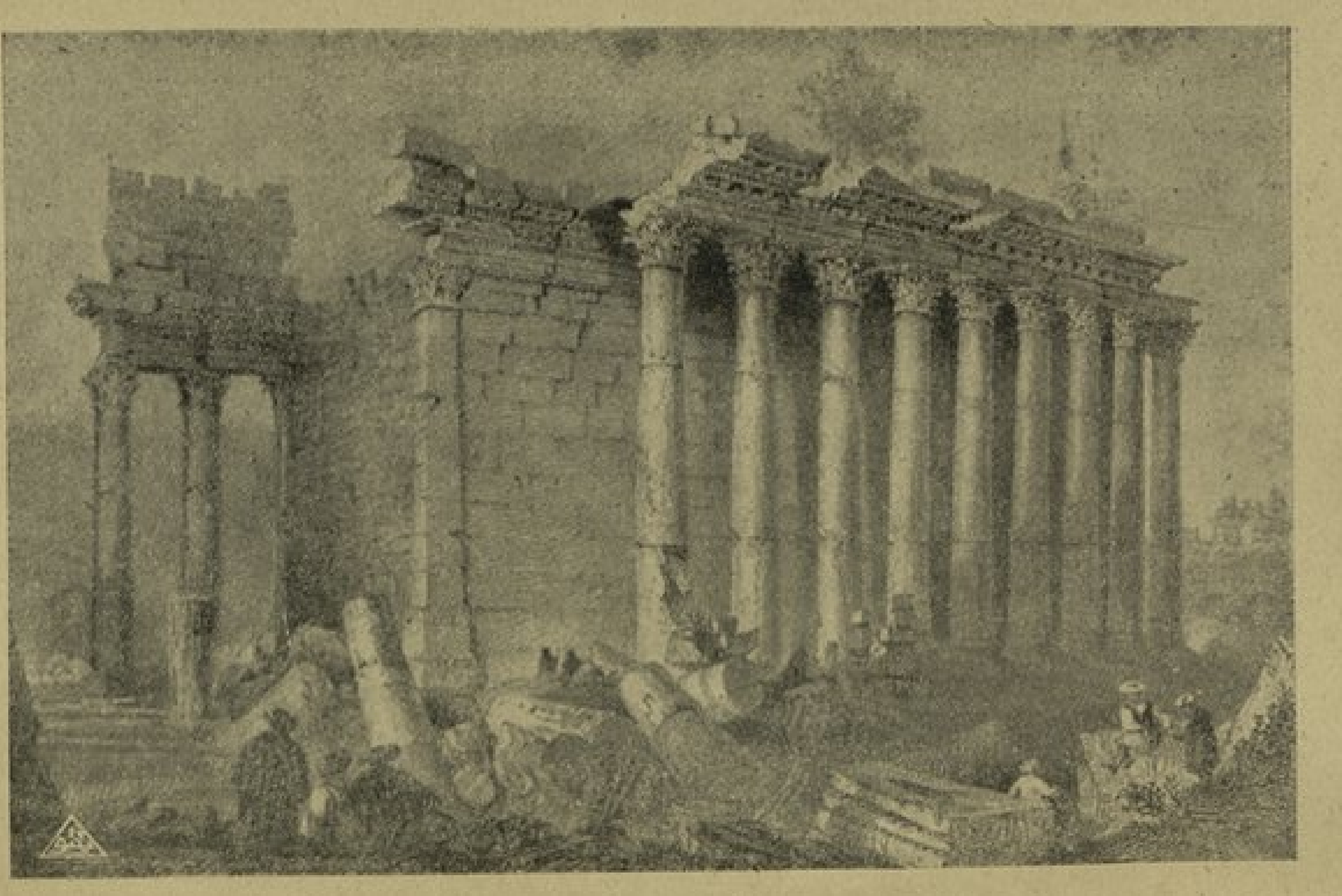
خلال السنوات القليلة ، الاخيرة ، ازداد حظ السفر في الشرق ازدياداً عظيماً من السهولة والراحة . واصبحت الاماكن لقضاء الليل غير نادرة ولا باعثة على الاشمئزاز شأنها في الماضي . واصبح المسافرون — وكانوا من قبل قلائل مفرقين — يفدون كل سنة موفوري العدد . كذلك بات المكارون واضرابهم يرون في مصلحتهم ان يكونوا اوشق حركة ، وبات شيوخ القرى يجدون لزاماً ان يكونوا اكثر مساهلة ومجاملة ، واسخى بذلاً في تلبية الحاجات . وفيما كان قطع المسافة من بيروت الى بعلبك يستغرق يومين ، اصبح الامر الآن لا يستوجب أزيد من يوم واحد طويل المدى . فاذا غدا المسافر غدوة على السفر من الشاطيء ، استطاع ان يبلغ الخرائب في الليل . وقد اتفق يوم ان زار الكاتب هذا المقام ، ان كان هو الزائر الوحيد ومن معه من جماعة قليلة . وليس هذا بالحظ اليسير .

اصبح السائح يستطيع اليوم — لدى زيارة بعلبك — ان يدخل في حسابه لقاء المواطنين من جميع اصقاع العالم المتمدن : الاميركي من ماستشوستس او نيويورك ، — وربما جاء في فئة

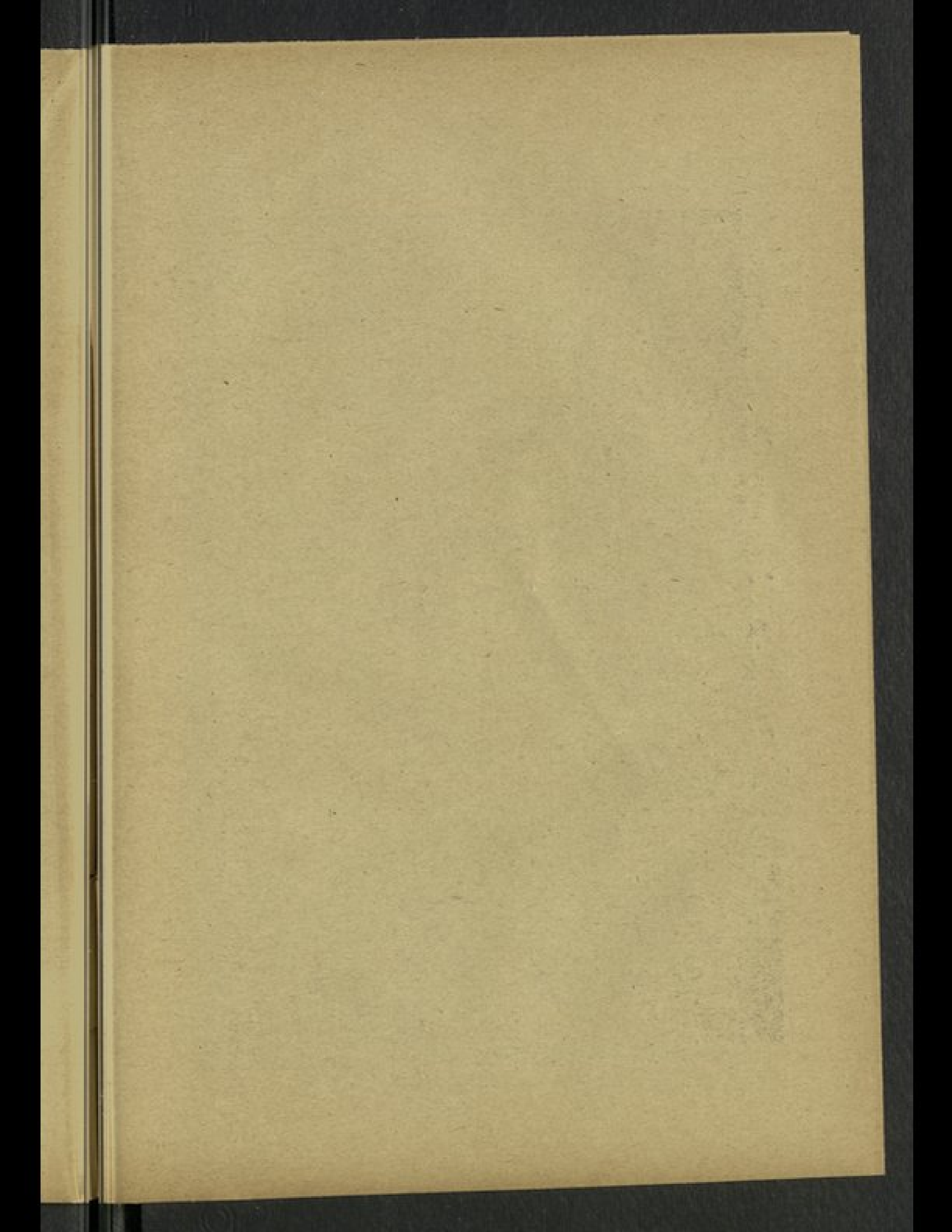
من اهله : زوجته واولاده – والروسي من بلاده البـاردة ، والالماني والبولوني واليوناني . فاذا لم يتح للسائح ان يشـاهد بعلبك في جلال عزلتها الصحراوية ، اتيح له ان يجتمع فيهـا بالناس والخيمات والنيران المشعلة والاصوات المختلطة والمشارب والمذاهب المنوعة يتعارض بعضها ازاء بعض في قوة وبروز .

وفي الوقت نفسه ، انخفضت نفقات الرحلة . واعتدلت في عهد ابراهيم باشا الضرائب التي كان يبتزها الزعماء والحكام الصغار ، وقلّت الضرورة للهدايا التي كان لا بد من تقديمها اليهم ، بل ألغي هذا الامر في بعض الاماكن الغاء باتاً . وحتى لو قدّر للسائح ان لا يحمل توصيات الى القناصل في المدن ، فانه مع ذلك يستطيع ان يعثر على منازل معتدلة النفقة ينزلهـا في بيروت وطرابلس والشام . اما الاديرة التي كثيراً ما يضطر المسافر الى اللجوء اليها فانها رخيصة . وارخص منها الخانات التي قد يضطر السائح الى اللبث فيها اياماً عدة لرداءة الطقس او لمواقعها الشاذة . لكن من المؤسف ان اشهر مقامين للآثار في الشرق – اعني تدمر وبعلبك – قلما يلقى الغريب فيهما سوى الازعاج وفقدان اللباقة . على ان المأمول ان يأتي زمان يقام فيه فندق صغير خلال موسم الزيارات في بعلبك اذا استمرت مواكب السائحين . غير ان توقع مثل هذه المحاولة في تدمر شيء عبث ، لان اعراب البدو لن يأذنوا بان يبنى حجر على حجر . انهم يحتكرون السائحين احتكاراً تاماً لا يطاق ، وليس منه مناص .

واية كانت الآلهة التي شيدت على اسمائها هياكل مدينة الشمس هذه ، واية كانت الحقب التي شيّدت فيها ، فانها لتشهد بما كانت



الهيكل العظيم في بعلبك



عليه المدينة التي تزدان بها من ازدهار وثروة . وبالطبع ، غير معقول ان يكون لهذا الازدهار والثروة من مصدر سوى التجارة . فموقعها البديع في هذا المركز الوسط مكنها تمكيناً كبيراً من ان تساهم في ذلك التبادل النشيط الرابح الذي اضطرد زمناً طويلاً بين الهند والمدن العظيمة على هذا الساحل المتوسطي .

امتد خضوع هذه البقعة لسلطان الرومان هي والبلدان المجاورة لها . فكانت بعلبك ايام القيصر اوغسطوس ثكنة لاحدى الحاميات . اما بعد عهد الامبراطور قسطنطين ، فالمرجح ان هذه المباني الفخمة قدّر لها ان تكون نصيب الاهمال والانحطاط ، إلا ان تكون كرّست للعبادات المسيحية ، كما يدل حقاً مشهد ما بقي من هذه المباني على اكمل حال .

ويصوّر المؤرخون الشرقيون بعلبك مدينة عظيمة الاهمية في اوائل الفتح العربي . يصفونها بانها كانت من ابدع المدن الشامية ، غنية بالقصور الفخمة ، مزينة بالآثار العريقة ، حافلة بالاشجار ونوافير الماء وكل ما يزيد في المتع المترفة . ويوم زحف المسلمون ، أنبيء الامبراطور هرقل بان المدينة تحميها قلعة عظيمة القوة قادرة ان تصمد على حصار طويل . حتى اذا سقطت دمشق ، تعرضت بعلبك للهجمات المتواصلة . على انها كانت زاخرة بالسكان ، مزودة تزويداً وافياً بالمؤن والمستودعات العسكرية ، فدافعت دفاعاً باسلاً . إلا انها استسلمت آخر الامر . ومما يدل على اهميتها التجارية المستمرة ، ان الجيش المحاصر لها استولى اثناء الحصار على قافلة فيها اربعمائة حمل من حرير ، والف صدار من دمقس ، وسائر البضائع النفيسة . ثم فرضت عليها بعد الاستسلام غرامة

بمقدار الفي اوقية من ذهب، واربعة آلاف اوقية من فضة، والفي صدار من حرير، والف سيف عدا سلاح الحامية. وكأنما اريد تعويضاً عليها من هذه الخسائر، فأصبحت فيما بعد سوقاً لتداول الغنائم النفيسة المغنومة من سوريا. إلا ان ازدهارها هذا لم يكن إلا شيئاً طارئاً عابراً. ففي السنة ٧٤٨ م، اباحها خليفة دمشق للجند، فأعملوا السيف في معظم سكانها.

وجاء عهد الصليبيين فاذا بالمدينة عاجزة عن المقاومة. فآثرت ان تخضع بسلام لمشيئة الاقوى.

وفي العام ١٤٠٠ نهبها تيمور التتري، وهو في زحفه على دمشق بعد احتلال حلب.

ثم تملكتها عشيرة المتاولة [١]، العشيرة التي كاد يفنيها الجزار باشا يوم اخضع الاقليم كله اخضاعاً دائماً لسيطرة الترك.

ليس في بعلبك بقية ما من مقبرة قديمة. وليس ثمة كهوف ولا اضرحة في الصخور والآكام حيث يحتمل ان يكون القدماء اتخذوا لهم مراقد. ويخلو السهل من كل ركام اثري. لقد اندثر، فيما يبدو، كل اثر قديم من عظمة سكان المدينة وثروتهم. وهذا نهر الليطاني، في مجراه الهادىء خلال السهل وبين انقاض الهياكل نفسها، يمرّ فلا يغسل ايما قبر موحش متروك قد ذريت عظامه المفتوتة منذ اجل بعيد، وبقي لها صدى يترجّع في غماغم النهر. اولئك حكماء المدينة واعيانها وقادتها هلكوا جميعاً دون ان يبقى لهم تذكار على يد المؤرخ او النحات. ولشد ما هي ضئيلة يسيرة

١ حذفنا هنا كلمتين غير لائقتين – المعرب.

معرفتنا ببعلبك القديمة ، حتى ليبدو انها مدينة من مدن الحكايات العربية ، لا مدينة كانت لاجيال عدّة مباءة ثروة حقيقية ونفوذ ومشارف . ولعل ذلك هو الافضل ، او لعل المقدر ان لا يدوم هذه المدينة إلا خرائبها العظيمة تروي قصتها . واية قصة باستطاعتها ان تكون اشد فعلاً في النفس ؟ واي تذكار للموتى باستطاعته ان يكون اشد شجواً ؟ لكن ، أليس جميلاً رائعاً ، في زحمة الاجيال المتسارعة وانهيار الاشياء المقدسة العظيمة المصنوعة على اسم الخلود ، ان يستطيع الانسان اتكاءً على واحد من هذه الاعمدة ليفكر في ان القرون ليس شأنها دائماً شأن حكاية تحكى، وليدرك ان الحياة ليست ابداً عبثاً عقيماً بل هي قديرة على توريث مثل هذه الآثار !

فمتى تعبر هذه الهياكل عبورها الى الفناء ؟ متى تغوص شمسها ؟

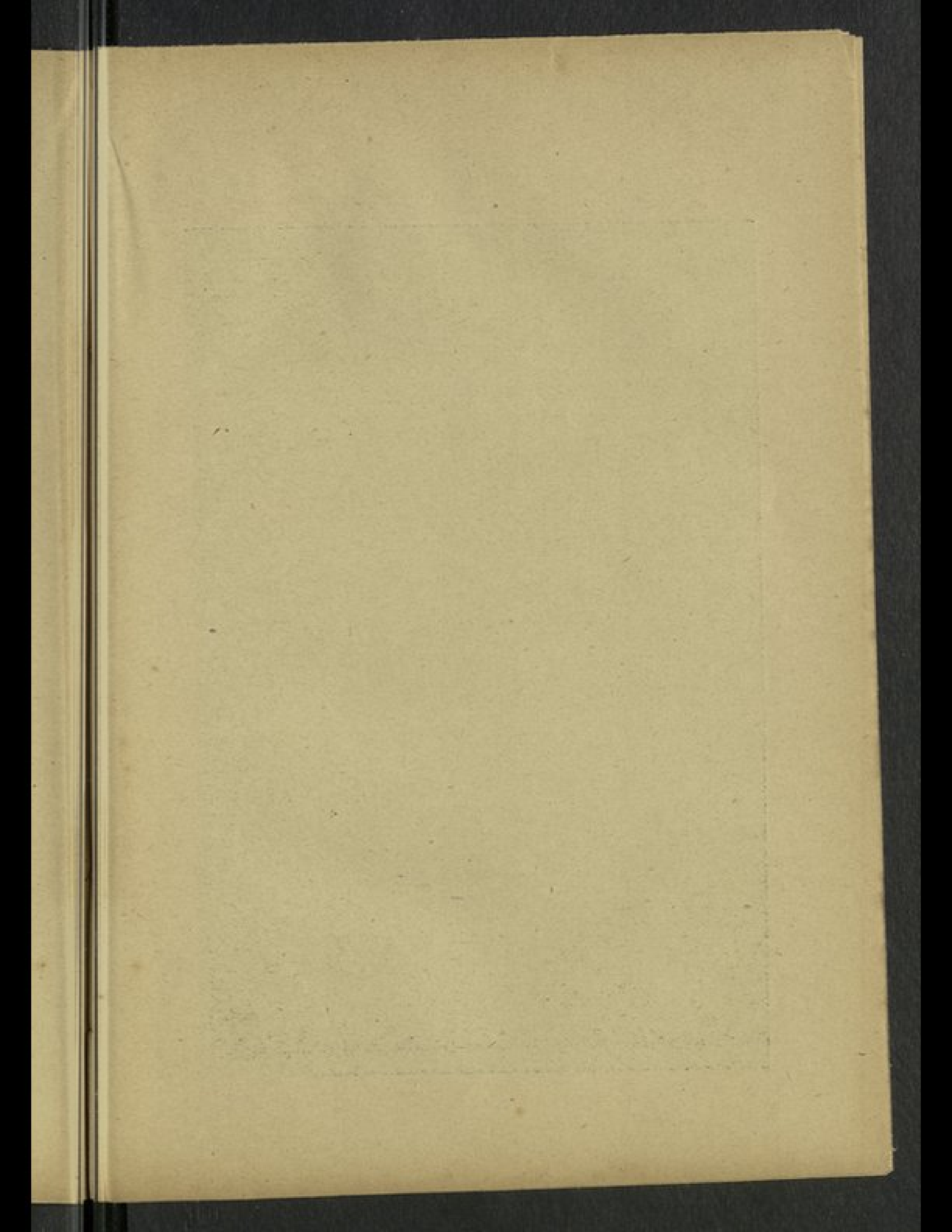
في داخل الهيكل العظيم

وجدنا حالة بعلبك حسنة جداً ، وهواءها صحياً نقياً . وتحيط بهذه المدينة ارض واسعة ترويها النهيرات رياً وافيـــاً : ارض تنبسط على مساحة اثنتي عشرة ساعة في سهل البقـاع ، ومسافة اربع عشرة ساعة من مدينة حمص ، حيث تنتهي سلسلة جبال لبنان الشرقية ... ما من قرية في هذا الاقليم إلا لها ينبوعهـــا وتربتها المتناهية خصباً . ولثلاثين سنة خلت ، كان السهل وقسم الجبل الذي يقع على بعد فرسخ ونصف الفرسخ حول المدينـة ، مكسوّين بعرائش الكرم . لكن ظلم الحكام واعوانهم ادّى الى تلف هـذه الكروم ، فأصبح اهل بعلبك اليوم مكرهين على اجتلاب العنب من زحلة ، بدل ان يأكلوا عنبهم المشهور بنكهة طعمه الفائقة .

حقاً ان العين ، ساعة تشارف تدمر لاول مرة ، فتعانق ببصرها جميع انقاض المدينة تغطي الصحراء ، لتجد ان تلك الآثار اعظم روعة بما لا يقاس من آثـار بعلبك او من ايمـا اثر آخر في الدنيا . ان قصور تدمر لتلوح كأنهـا رؤيا من مجد غبر ، رآهـا المرء في المنام ... فها هي ارتال الاعمـدة الرشيقة المشوقة تتجلى



في داخل الهيكل العظيم



شبحيّة غريبة جميلة مهيبة بمقدار عظيم ، في هـــذا القفر الرملي ، فكأنها لم تولد هنا ، او كأنها انتظرت موعدها حتى انتقلت الى هذا المقام . على ان في هيكل بعلبك ضخامة وفخامة تعوزان الخرائب التدمرية . هيكل عظيم يرتفع في قـاعدتـه عن مستوى الارض حوله نحواً من ثماني عشرة قدمـاً او عشرين . فلا بد ، اذن ، ان يكون في الاصل قد جهّز بمرقاة بديعـة من الادراج تؤدي الى واجهة مدخله الكبير . على ان هذه المرقاة لم يبق منها اثر . هنالك ممشى الى البـاب ، مسدود بعض الشيء ، يؤدي الى اول بهو في الداخل : بهو عظيم الجوانب ، يتـلوه مستطيـل منطلق مفتوح اعظم منه حجماً . وعلى مـدار هـــذا المستطيل صوامع متعاقبة ، صومعة منها مربعة الشكل ثم صومعة مستديرة ، وهكذا بالتتابع . ويظهر ان هذه الحُجَرات انما قُصِد بها ان تكون محاريب ، مستقل بعضها عن بعض ، كل محراب منها مزيّن بتزايين هندسية ملائمة موفورة ، ومزخرف بزخـارف غنية ، شأنه في ذلك شأن سائر اجزاء البناء وما فيه من تجاويف جميلة في الجدران مضلّعة القشرة . وينتأ فوق البناء كله طنف بارز قوي يسبغ على مجموع البناء سيماء بديعة التأثير .

في مثل هذا الركام العظيم ، وهذه الدقائق والتفاصيل التي لا نهاية لها ، توشك ان تكون المبـالغة في الترف الفني مستحيـلة . ومع ذلك فيقول واحد من كبـار السائحين : « ان الحجر ليئن انيناً تحت ثقل باهظ من المغالاة في ترف الصنعة . المعابد كلها والتجاويف في الجدران والافاريز والاطنـاف تشفّ جميعـاً عن أدق صنعة واتمّها . صنعة تنتمي ، على الارجح ، الى عصر تدهور في

الفن يميزه ذلك الافراط الذي اتصف به عهد الانحطاط الفني عند الاغريق والرومان. على ان هذا الشعور لا يمكن ان يحسّه إلا الذين مرنت عيونهم، من قبل، في تأمل الآثار الصافية في اثينا وروما. كل بصر آخر لا بد ان تخلبه ابهة القالب وتمام الصنعة في زخارف بعلبك.»

بقي، الى اقصى الجهة اليمنى من هذه البقعة، ممشى الى الباب فسيح مزين تزييناً عظيماً. فهل كان هذا الممشى يقود الى جناح آخر من البناء تهدّم اليوم، ام ان هذا الممشى كان مدخلاً آخر ثانوياً الى الهيكل؟ لسنا نستطيع الجواب. فان اعتراض السور الخارجي يحول دون البت في هذه المسألة.

درجت قرون عدة وهذا الهيكل عادم السقف، مجرّدٌ في داخله تجريداً تاماً. فلشد ما كان الدهر رفيقاً به رحيماً اذ عف منه عن مثل هذا المقدار. غير ان التماثيل الكثيرة قد تلفت كلها فلم تبق منها شظيّة. وطبيعي في مثل هذا المناخ الجاف، والجو النقي، ان يكون عمل الخرائب بطيئاً جداً. تشهد بذلك الاقبية الرحبة تحت هذا الهيكل، وهي اقبية متصل بعضها ببعض، مبنية بقدد الصخر الضخمة الهائلة. ولا تزال حتى الساعة بريئة من كل رطوبة، تستعمل اهراءً للقمح.

الاعمدة السبعة المنفصلة

من هيكل بعلبك

في مثل هذه الرقعة الواسعة من الخرائب والانقاض، كثيراً ما ينصرف اهتمام الزائر الى مشهد محبب او موقع مفضل، تتجه اليه خطاه دون سواه من المشاهد والمواقع . هنا، مثلاً، النهر الذي تتراءى الانقاض الهاوية في قراره الصافي . وهناك الهيكل الصغير في السهل الى وراء . ثم اشياء اخرى موفورة . لكن ما من قطعة منعزلة من هذه الآثار تتناهى في جمالها تناهي الاعمدة الستة التي تقف على حدة، منفردة، منجذفة . يا له من جوّ شجيّ كئيب يحيط بهذه الاعمدة : جو جذاب تستحيل العبارة عنه، يطالعه المطالع فيشعر كأنه يهمّ بالقعود على اقدام الاعمدة ليجهش بالبكاء والعويل !

اعمدة اعلى علوّاً واخف واشد هيفاً ورشاقة من سائر اقرانهن في المكان . يبدو ان الشمس تختارهن لتضفي عليهن اشعتها الاولى . ثم يبدو انها تتلكأ مساء قبل ان تجرّ عنهن آخر اشعتها .

وتشمخ هذه الاعمدة على مستوى من الارض اسمى ارتفاعاً من قاعدة الهيكل الكبير الذي يبعد عنها خمسين قدماً . وهي لا

تزال في نحتها وحليتها وتيجانها تامة او كالتامة . ويظهر انها البقية الوحيدة التي بقيت من صرح من الصروح الفخمة الجليلة .

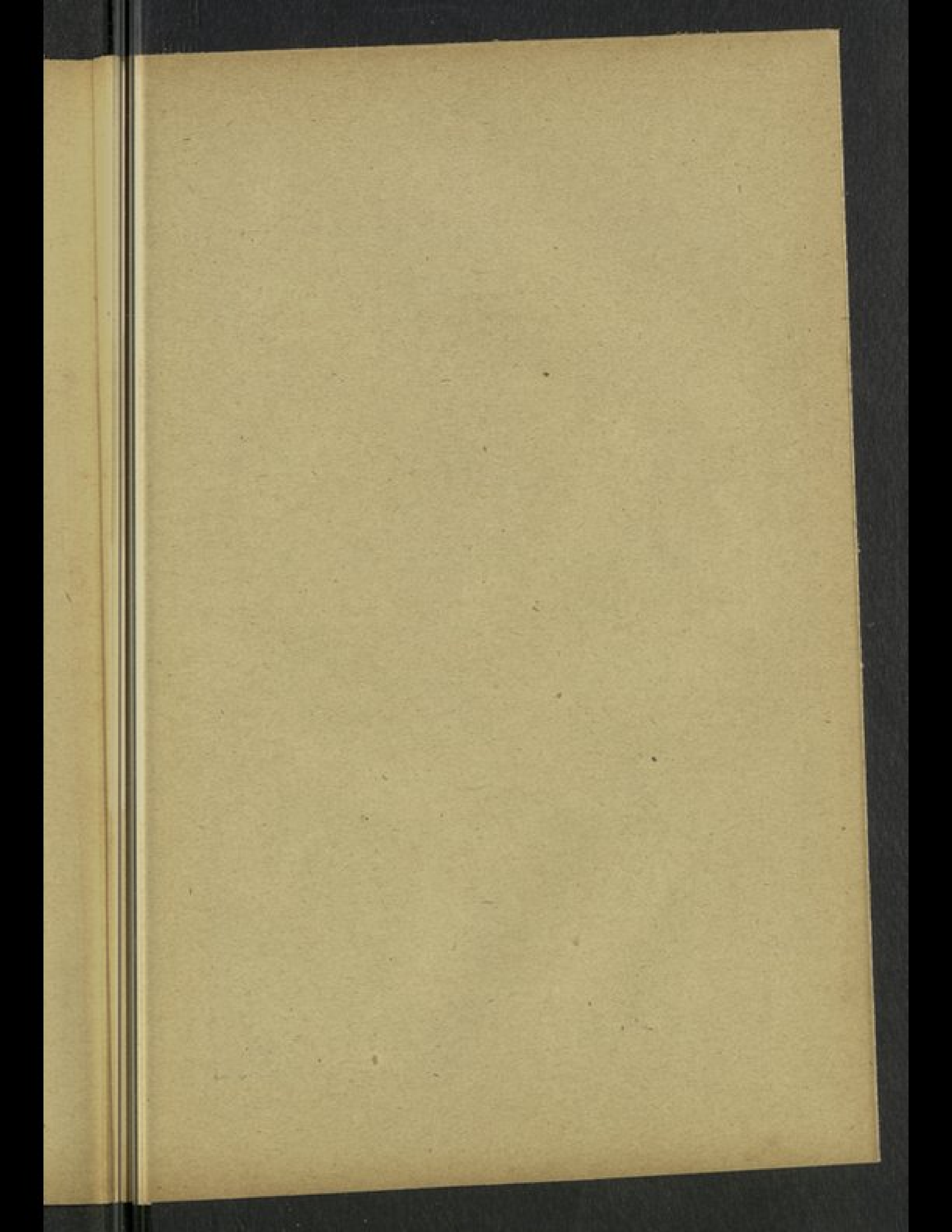
على ان قيامها في الظل يحول دون رسم دقائق الصنعة في تيجانها رسماً وافياً ... ها هو ضوء القمر واقعاً على الهيكل . وقد توارت الحمائم ذوات الريش الملوّن ، وكن نهاراً يطرن ويجثمن على الانقاض . وانبرت الخفافيش ترفرف باشكالها القبيحة . وتكاثفت الظلمة على القطع الضخمة : قطع الجدران والاعمدة الهاوية . وبدت ، على بعض البعد ، كدسةٌ جبارة تشمخ في وجه الفضاء ، وتحاوط كل شيء بسعة نطاقها الفائق . ذلك هو السور الخارجي ، شاهق وسميك ، لو اتيح مثله لبابل القديمة لحماها .

سور ملء سيمائه قطوب وعبوس وروعة . حتى اشباح الظلمة تستقر ثقيلة عليه . فتغتبط العين ان تتحول عنه الى الاعمدة والمعابد والنوافذ والقناطر ، وقد جلاها القمر فكفّن تكفيناً رقيقاً كل صدع في الافاريز الجميلة ، والتجاويف النفيسة وفي كل منها تمثال . ان هذا النور وهذا الظل ليلائمان مشهد الاعمدة الستة المكتئبة وجمالها العجيب ووحشتها التي لا توصف . فلو ان وردزورث [1] اتيح له ان يجلس ساعة على هذه الانقاض لكان لتلك العبقرية ، التي اعطت « يارو » ، الشجرة المسنّة ، صوتاً ناطقاً ان تمسّ بسحر البلاغة هذه الاعمدة البديعة فتوقظها ، وان تستوقد ناراً من على مذبح الهيكل الذي باخ وخمد .

[1] شاعر انكليزي من جماعة الرومنطيقيين الانكليز المعروفين بشعراء البحيرة . — المعرب .



الاعمدة السبعة المنفصلة



اما مادة هذه الاعمدة فمن الحجر الاصفر الخفيف . ولا تزيد قطعها التي تتألف منها على ثلاث ، ملحوم بعضها ببعض لحمة دقيقة بحيث لا يبين فيها اثر لخطوط فاصلة . ويبلغ قطر العمود سبع اقدام ، وعلوه بين خمسين وستين قدماً ، عدا الركيزة التي يبلغ عمقها عشرين قدماً وتتكوّن من قدد ضخمة من الصخر مبنية في طبقتين ، كل طبقة عشر اقدام . والعمود في مجموعه مزخرف زخرفة معقدة الصنعة ، ومحلى بحلية منحوتة نحتاً مترفاً على اشكال منوعة .

ويعلق احد السائحين ، على مشهد رآه من هذه الاعمدة ، تعليقاً ظريفاً فيقول : « كانت تلك الاعمدة تنهض فوق افق الخرائب كأنها منارات ، تحلق فوق تيجانها طيور كبيرة مثل النسور بنت اوكارها في تلك التيجان . وقد ذعرها وقع خطانا فاندفعت مرفرفة ، ثم عادت فجثمت فوق نواتيء الافاريز تضربها بمناقيرها وتصفق باجنحتها ، كأنها زينة حيّة ألحقت بجهاد هذه العجائب . »

مخيم في رأس العين

يقع هذا المشهد القفري في سهل بعلبك ، على مسافة ميلين من انقاض الهياكل . وتبدو في المقدمة سلسلة جبال لبنان الشرقية . اما الجدران المتداعية التي ينعكس عليها لهب النـار ، فهي آثار كنيسة مسيحية . واما المخيم فهو مضرب جمـاعة من الانكليز استشرقوا بملابسهم وعمائمهم ولحاهم كيما يظهروا بمظهر المؤمنين الصادقين بالقرآن ، ويؤثروا بهذا الهندام حتى في ابناء جلدتهم .

ان ليلة كهذه الليلة ومشهداً كهذا المشهد لا يندران في رحلة شرقية . والحق انها مبعث متعة وسرور . فلا المخـادع المريحة المبهجة ، ولا الحدائق او نوافير الماء ، تشتمل في نظر المخيلة على نصف الترف الذي تشتمل عليه مثل هذه الليلة في سهل بعلبك . فهناك الهياكل العظيمة تشمخ مرتسمة على بعض البعد ارتساماً ضعيفاً ضئيلاً ، إلا انه مهيب جليل . وهناك الراعي وقطيعه على الضفة المقابلة يوشحها ضوء القمر ، هي والنهر الذي يغسلها ، بوشاح شفاف رقيق .

وكان المسافر قد تزود من القنصل برسائل الى الجماعة المخيمة في رأس العين . فاستأنف الطريق الى هـذا المخيم وهو مغتبط

ان يغادر بعلبك وبيوتها التي تُرِك قسم كبير منها للخراب كما تُرك مسجد المدينة . وقد وجدت البيوت ، التي تبدو مأهولة ، قليلة جداً حتى في شوارع المدينة الرئيسية .

اجل ، سرعان ما خلفت بعلبك ورائي ، ودخلت في السهل الطلق الذي تحدّه عن كثب جبال لبنان الشرقيـة . كانت الليلة طريئة ملأى بالالهام ، والريح تهب منحدرة علـيّ من الجبل . ويبدو لي مجرى الليطاني بارداً منعشاً كالجداول في هضبات وطني المحبوب . والجو حولي عبق بشذا الاعاشيب البرية وانفـاس البساتين . وعلى صفحة النهر اضواء تلمع منعكسة من بعض اكواخ قريبة . فما رحتُ اسعى في طلب هذه الاكواخ حتى انتهيت الى المشهد الذي تمثله اللوحة صحبة هذا الفصل .

شد ما كانت هذه النقلة مدعاة حبور وبهجة . ذلك بان منزل الكاهن الكاثوليكي الذي نزلت فيه كان قذراً يليق بالمخـلوق الخرافي الذي نصفه بشر ونصفه ماعز او حصان . والمدينـة التي غادرتها ، لهنيهة سلفت ، كانت كلها قفراً موحشاً ، لا يُرى فيها شيء إلا شوارع مثقلة ، وبيوت مصدعة مهجورة . فلقد ساء حظ هذه المدينة ، في هذه البقعة التي وهبت لها الطبيعة هبات سخية وزينها الفن في وقت مضى تزييناً غنياً . فتأذت بعلبك مراراً في غمرة المطاحنات التي تثيرها المصالح المتعارضة بين الزعماء المتجاورين . وتفككت عرى عادات الحيـاة البيتية ، واضمحلت الحوافز على الصناعات ، ورحل السكان شيئاً فشيئاً الى منـازل اخرى ... وكان الكاهن يتوقع من ضيفه ان يعود الى صومعته . إلا ان رأس العين كانت بقعة اقوى سحراً وجاذبية من ان استطيع

التخلي عنها . فعهدت بحصاني الى عنـــاية واحد من الخدم ، ودخلت المخيم ، فوجدت الجماعة متكئين في راحة عظيمة ، على نحو الاسلوب التركي . وقد استقبلوني بترحيب حار .

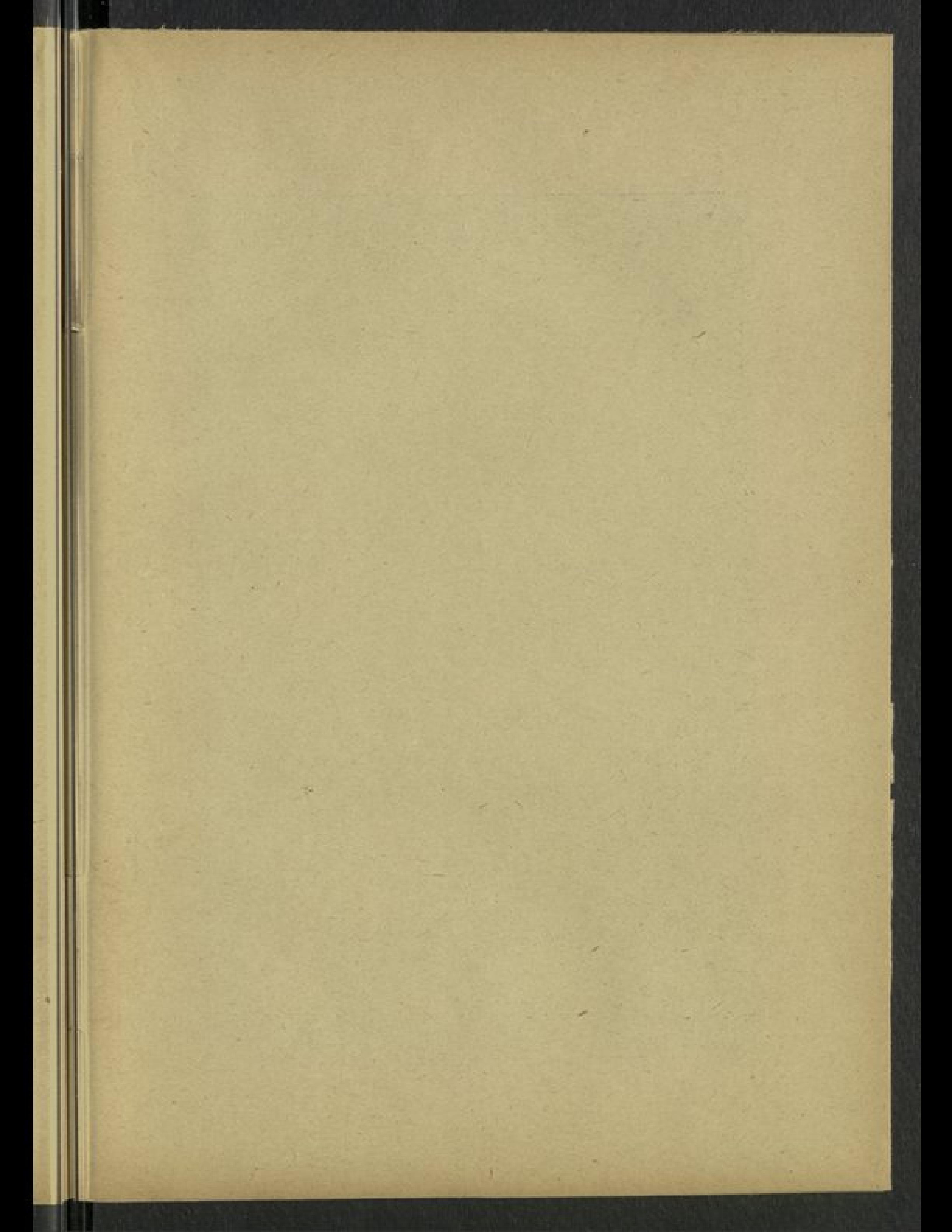
ما اسرع ما يتآلف الناس في بقعة منعزلة كهذه البقعـة ! ما اسرع ما يشعر بعضهم ازاء بعض كأنهم اهل بيت واحـد ! حتى ذلك الانغلاق والانطواء الذي يعرف به الانكـليز – وهم احرص شيء عليه في المدن والصـالونات – يذوب هنـا ويتلاشى كالثلج عن الجبل . فمن كان دأبه في بلاده ان يكون جافياً بارداً محترساً في مخالطاته ، تجده في الصحراء قــد تحول في بدء الامر الى رجل صريح مستوثق ، ثم الى صاحب مخلص محب .

كانت سيدة انكليزية شابة ، هي السيدة ... ، متكئة على طنافس تركية ، تلبس كزوجها الذي كان رئيس الجماعة لباساً على الزي التركي زادها حسن مظهر . ومعهم فنانة مشهورة طال الزمان على اقامتها في مصر وسائر انحاء الشرق . فاديرت علينـا مرطبات ذكرتنا طبيعتها ووفرة انواعها بموائد انكلترا . وانه لأمر غريب في مثل هذا العراء . ومـذ كان مضيفونا اهل نضج واطلاع ، سبق لهم ان سافروا اسفاراً واسعة ، فقد دارت بيننا مسامرات ممتعة مفعمة حياة ، وانقضت الليلة على غبطة وحبور .

وهل كان لهذه البقعة ان تبدو في الذهن والخيـال والتقدير سوى واحة في صحراء ؟ لقد دخلتُ هذا المخيم على حين فجأة ، وانا خارج من قفر ينيره القمر انارة رقيقة ضعيفـة ، بعد ان أضطررت لعبور النهر . ثم اذا بي اصادف المجلس النادر : مجلس اللطف والتهذيب الانثويّ ، بدل ما كنت تعودت من طلعة



مخيم في رأس بعلبك



الراهب المستهجنة وفظاظة اتراك المدينة . وما اطول ما كان الوقت الذي مرّ عليّ دون ان اصادف سيدة ، حتى اذا لاقيتها ، وانا لا اتوقع مثل هذا اللقاء ، في هذا القفر ، بدت لي احاديثها ونبراتها الانكليزية ضرباً من الموسيقى .

ثم خرجنا من الخيام لنقف الى جانب النـار الكبيرة التي اضرمها الخدم . فرأينا مشهداً رائعاً . رأينا الخدم – وقد تسلحوا – ممتدين في حلقة حول الشعلة المتأججة . ورأينا وهج اللهب ينعكس على القماش الابيض الذي صنعت منه الخيام ، كما ينعكس عـلى جدران الكنيسة المكمدّة . ولاحت لنا ، على مقربة ، عيون النهر الـتي تسمى « الينابيع الحلوة » – ينابيع تفيض وتجتمع مياهها في بركة كبيرة بلورية الصفحة كثيراً ما يأوي اليها الرعيان بقطعانهم . فأما المجرى الذي ينطلق ، من ثم ، عذباً شفافـاً فوق نبات الحلفاء الاخضر ، فقد وجدته ، على اثر اجتياز سهل بعلبك الحار ، مشهـداً يستغرق النفس استغراقـاً . فما اصدق الصور التوراتية الطبيعية والشعور عندما تشبه الغبطة والفلاح « بعين ماء في موضع قحل ، او بجدول بارد ينساب على تربة عطشى . »

هذا ، وكانت البقعة الصغيرة المعشبة ، التي نُصب فيها المخيم ، مظللة بجدران الكنيسة القديمة وبشجرة عتيقة ينهلّ علينا ، خلال اغصانها ، ضوء القمر .

ثم قدم القنصل الانكليزي من بيروت بعد بضعة ايام . فأقيمت له خيمة اخرى رفع عليها العلم الانكليزي . ودبت في المخيم حياة خاصة . وشدّ ما كانت وقعات طعامنا إنسيّة مرحة . اما المؤن فكنا نستجلبها ، دونما صعوبة ، من النواحي المجاورة لنا . والحق

ان الخبز والزبدة الطازجة وأباريق الماء من الساقية – كل تلك كانت ترفاً عظيماً . وكان امير بعلبك يقبل كل يوم بعد الظهر ، فيجلس هو وبطانته واصدقاؤه في فيء الشجرة على ضفة النهر المقابلة ، يشرب القهوة ويمتع نفسه . وكان جماعته كثيري الصخب . حتى الشيوخ البيض اللحى كانوا لعابين كتلاميذ المدارس ، يسابق بعضهم بعضاً ، ويتراشقون بتواسيمهم . وقد اتفق للامير ان دعا جماعتنا كلها لشرب القهوة معه . إلا اننا امتنعنا ، لان القنصل لم يكن يرى في هذا الامير إلا رجلاً لصاً ، او كاللص ، نصبه ابراهيم باشا مدة ما من الزمن [1] .

ثم ازف موعد التفرق وتقويض المخيم . فشعرنا جميعاً بالاسى والوحشة ، ساعة راح الخدم يقتلعون الخيام ويضعون الامتعة في الحقائب . وقد لبثت اعاين رحيل الرفاق حتى تواروا عني . وبقيتْ رأس العين هي رأس العين جمالاً ولطفاً . غير انها خلت من كل حركة للحياة ، وعادت مباءة للكآبة : الكآبة الحلوة العذبة . وبهذه الكآبة تقترن بعض ذكرياتي لرأس العين . ذلك بان القنصل صديقي ، ورفيقي السابق ، لم يلبث ان لقي حتفه في اعدن بعد بضعة ايام ، وكان قد اخذ يشعر بوعكة في رأس العين . ثم مرضت انا فنقلت الى خربة الكنيسة القديمة ، وهي الملجأ الاوحد هناك . لعل شراً ما ، لعل عاملاً من العوامل المؤذية ، كان كامناً ، يضطرب ، تحت تلك السعادة وذلك الجمال في رأس العين !

[1] لا يغرب عن بال القارىء ان موقف انكلترا الرسمي من محمد علي باشا وحركته كان موقف قلق ومعارضة . – المعرب .

صيدا ومدخلها من جهة بيروت

... كثيراً ما [1] اثارت هذه المدينة في العصر القديم حسد صور . ذلك بان صيدا كانت مدينة تجارية غنية ، يرجع الفضل في تجارتها وغناها الى مينائها البديع الملائم ، وهو ميناء اصبح بما بُذل فيه من جهد ومهارة فن يتسع لعدد كبير من السفن .

فقد المسيحيون مدينة صيدا سنة ١١١١ ، ثم استولوا عليها من « السرازان » [2] واعاد الملك ، القديس لويس ، ترميمها سنة ١٢٥٠ . غير ان « السرازان » استولوا عليها كرة اخرى سنة ١٢٨٩ . ثم كان عهد فخر الدين ، امير الدروز ، فدمر القسم الاكبر من مينائها ليبقي اعداءه الاتراك على بعد منه .

ان الركوب من بيروت الى صيدا ، مدى سبع ساعات ، لنزهة باعثة على السرور . إلا ان الانتقال من جوار بيروت ،

١ استغنينا في مستهل هذا الفصل عن عبارة لا علاقة لها مباشرة بالموضوع . — المعرب

٢ Saracens : لفظ نحته الافرنج من كلمة : « شرقيين » ، ليعنوا به شتى الشعوب التي قاومت الغزو الصليبي . ويترجم بعضهم كلمة « سرازان » بالعرب ، وليس هذا بصواب . — المعرب .

الجميل المنوع في جماله ، الى جوار صيـــدا وشدة رتابته امرٌ لا يكون البتة في مصلحة المسافر . فبيروت في نظر الانكليزي هي المكان الوحيد الذي نمكن سكناه في سوريا .

على بعد ساعتين قبل الوصول الى صيدا ، خـــان فقير جداً يقوم منعزلاً على مقربة من بقعة رملية تجتازهـــا الطريق الى المدينة . ويستحيل الفوز في هذا الخان بفنجان القهوة المرغوب فيه . فالعربي البائس المعدم لا يقف ببـاب هذا الخـــان يدفع بالفنجان الى شفتي المسافر او الحـاج ، كما يفعل على باب الفنـدق الموحش بين صيدا وصور .

وكان الوقت مساء ساعة دخلنا ابواب صيدا . وكان الطقس جميلاً . لكن لم تكن تهب نسمة ما حتى من جهة البحر . اما محطة القوافل – اذا صحّت تسميتها بهذا الاسم – فكانت موضعـــاً موحشاً . وقد أضطررنا ان نتخذ من احدى غرفها الخربة مبيتـاً لنا . ولم نتمالك ان نفكر في كيف انقلب حظنا دفعة ، فصرنا الى هذا الملجأ الموحش في صيدا ، بعد ان كنا في ضيافة احد الاصدقاء ومنزله الرحب وادراجه الرخامية وغرفه المريحة وعشرة اهله الطيبين . ولم نكن مزودين ببطاقة توصية الى الاغنياء والمتنفذين ، كما كان دأبنا . شد ما كان الموضع حولنا مدعاة حزن . فحتى سلة الفحم – وما اكثر ما كنا نشتهيها ساعتئذ ! – لم يكن لها وجود . واخذت نسمات الليل تهب باردة من قبل البحر وتنفذ الينا خلال المعابر الطويلة وزجاج الشبابيك المحطم .

قمنا في هذه الليلة بزيارة اسرة من اسر التجـــار في صيدا . فكان الاختلاف بارزاً قوياً وباعثاً على الفرح والبهجة . قعدنا على

سجادات وثيرة ، واتكأنا الى مساند ناعمـــة ، وقدمت لنا القهوة والقصبات للتدخين . دعينا الى تناول شيء من طعام شرقيّ خفيف ونبيذ ممتاز . وترأست المائدة سيدة البيت ، وهي امرأة جميلة متقنة اللباس . وامتد بيننا حديث سهل طلي باللغة الفرنسية التي تحسن التكلم بها هذه الاسرة من المسيحيين السريان . واكدت لنـــا السيدة انها أعدّت بيدهـــا واحداً او اثنين من هـذه الصحون الطيبة .

وكان من نتيجة اختباري هذه الليلة ان عزمت – حيثما ذهبت في المستقبل – على ان التمس بيوت الاهلين ، فقراء كانوا او اغنياء ، مؤثراً جدران هذه البيوت على جدران الخانات ، وحتى الاديرة بعض الاحيـان . واتيح لي في القدس ان استيقن من صحة هذا العزم الذي عزمت عليـه . فقد اقمت في منزل احد الاهلين على مقربة من باب بيت لحم . وكانت نوافذ غرفتي تنفتح على ابراج السور القوي القديم ، فأراه يرتفع قبالتي غير بعيد من برج النبي داود . واعتاد اهل البيت ان يقدموا لي الطعام كل يوم على مائدة علوها قدم ونصف القدم ، يوضع عليها لوقعة الصباح زبدة طازجة وعسل وخبز وقهوة . اما وقعة الظهر فتكون معها خمرة القدس التي اشاد بطيب طعمها شاتوبريان . فاذا كان المساء ، اجتمعت الاسرة فأنشدت بعض اناشيد بلدية على عزف القيثار .

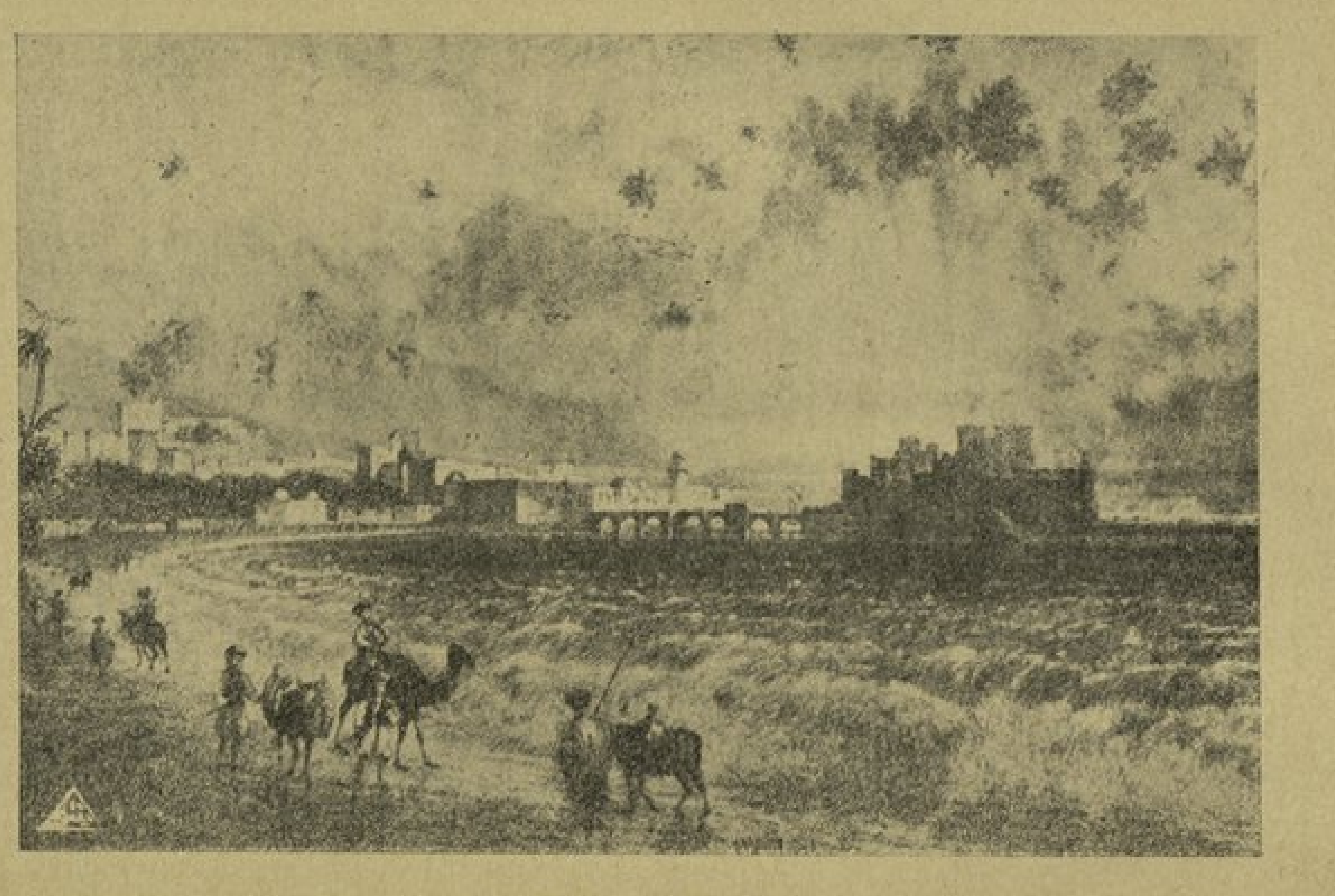
غير أن رهبان الفرنسيسكان ، في دير القديس سلفادور ، استدرجوني الى دخول ديرهم حيث وقع من نصيبي ان اقيم في حجرة بائسة مبلطة بالحجر ، يقتصر اثاثها على كرسي وطاولة وفراش حقير حشي بالصوف كما يكون في حـالة الجز . يضاف الى ذلـك كله

هواء قارس وجو معتم لا يتخلله إلا ضوء ضئيل ينفذ بجهد خلال الكوة المنخفضة المشبكة بالحديد . وكان الدير يقفل ابوابه دائماً لدى غروب الشمس . فأجدني اسيراً في هذا القبو اتطلع الى الجبل والجدول بشوق لا يقل عن شوقي وانا سائح ، ادرج في المماشي والقاعات المعتمة ، اتأمل خرائب المدينة وامكنتها الاثرية واغتبط بالتطواف في الجو المسائي الرقيق اللين .

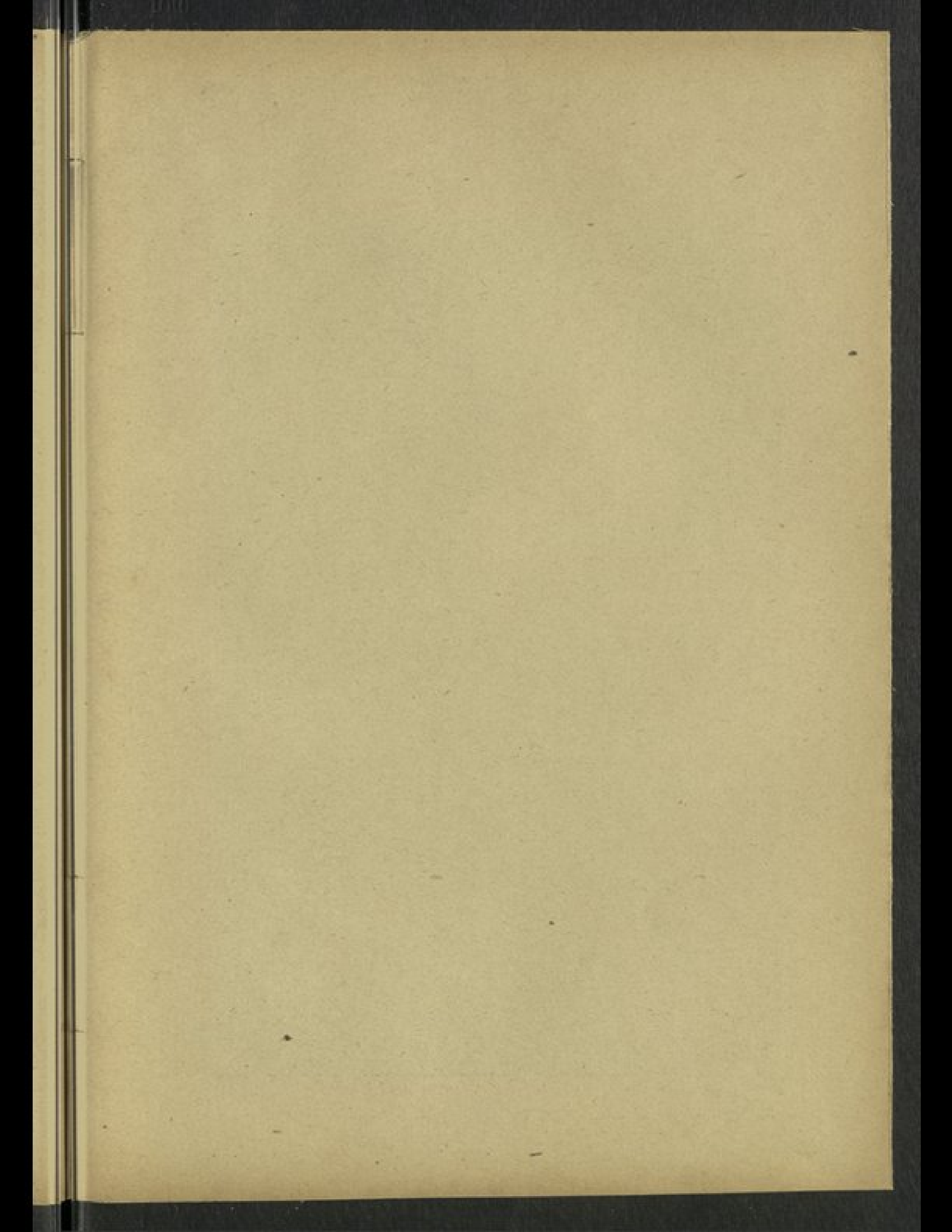
•

دخلنا مقهىً من مقاهي صيدا، وكان مليئاً بأتراك حسني اللباس والهندام ، يجلسون كسالى على المقاعد الوثيرة ، وكثير منهم يجاورون النوافذ المفتوحة المطلة على البحر وامواجه الزاحفة الى الشاطىء زحفاً بصوتٍ يفتر الاعصاب . وإذ لم يكن معي تبغ ، فقد تطوع جاري – وهو تركي وسيم الهيئة – فقدم لي كيس تبغه الحريري الصغير لأملأ منه غليوني . وما من تركي يحترم نفسه إلا يحمل معه كيس تبغ ، شأنه شأن الانكليزي الذي يواظب على حمل ساعته .

وعلى هذا النحو ، ينفق هذا الشعب المتراخي اللامبالي معظم النهار ، ابداً يتمزّز القهوة ، ابداً يردد الاقوال الحكيمة المؤثرة ، ويمسح باليد، على اللحى ، وينزع العمائم والطرابيش ليحك الرؤوس الصلعاء . وربما دخل احياناً – وعلى فجأة – « حكواتي » فتوسط الجمهور ، وشرع يقص قصته متدفقاً بالكلام تدفعاً سريعاً ، ملوّحاً بذراعيه تلويحاً عنيفاً . ومن عادة التركي ان يصغي إصغاء استغراق عميق ، ثم ينفجر في قهقهات عالية ، ترتجّ معها خاصرتاه البدينتان ، وتهتز ثيابه الفضفاضة ، وهو ماضٍ مع المرح والغبطة



صيدا ومدخلها من جهة بيروت



الى حد يمتع بترف النكتة وروعتها .

على ان المنازل والبساتين ، خارج السور ، تكشف عن مشهد اعظم طرافة وأملأ بالحياة : مشهد من الازدهار والكد الهادىء . ذلك بان كل فلاح في هذا الاقليم يتمتع بثمار جهده ويقيم في ظل كرمته وتينته . وقد وجدنا هؤلاء الفلاحين محبي الاشخاص ، حسني الهندام ، يلبسون المناتين [1] والطرابيش ذات الشراريب فتجلو للعيان قاماتهم الرشيقة اللطيفة . وكثير من الصبايا يعلقن بشعر الرأس حلى من نقود ذهبية تتدلى عن جانبي الوجه حتى النهدين . وبعضهن يجدلن الشعر الى وراء ، ويرسلنه على الظهر ضفائر طويلة . اما في اقدامهن فيلبسن « الصنادل » .

وتبدو صيدا لمن يزورها قادماً من بيروت اقل جمالاً منها لمن يأتيها مقبلاً من صور . ومع ذلك ، فحوض الميناء القديم والجدار الصخري المقابل وحركة المراكب كلها تُشاهد من جهة بيروت مشاهدة افضل . وقد دمّر الامير فخر الدين حوض الميناء فعطل مرسىً بديعاً للسفن . ولو ان اللايدي استير استنهوب اختارت لها منزلاً على بعد ميل او ميلين من صيدا ، على سفح الهضاب ، فشجّرت البقعة واصلحتها بذوق كذوقها في تشجير « ماريليبوس » [2] واصلاحها ، لتمّ لها بيت ظليل بديع مترف : مقر كمقر « ارميدا » ، [3] ليس هو واحة صغيرة انتزعت من

[1] جمع منتيان . وهو اللباس المعروف في القرى . — المعرب .
[2] يعني مقر اللايدي استير استنهوب في قرية جون . — المعرب .
[3] لعله يشير الى الفتاة التي ذكرها الشاعر تاسو في ملحمة : « اورشليم المنقذة » . — المعرب .

جبهة الجبل، واحة يمكن القول ان ليس من واقٍ يقيها ما دامت في برية موحشة تجول فيها العواصف وتصول. حقاً إن رفيقاً او صديقاً يصادفه المسافر، من بني جنسه، ليعادل في هذه البقعة كنزاً ثميناً. لكن ليس هذا ما يشعر به السائح في ملجأ ماريليوس مع من فيه من خدم وحشم جميعهم اجانب. اما الآنسة «و» التي أقامت مع اللايدي استير جملة اعوام وأفادت من خدمتها إفادة شريفة – على انها مريبة – فقد اقترنت منذ اجل بفتى لبناني من بيروت كان ترجمان اللايدي. ولهذا صُرفت الآنسة «و» من الخدمة، اذ تجاسرت ان تقع في حب الفتى اللبناني. وكانت العاطفة بينهما متبادلة. إلا ان عائقاً من العوائق المؤلمة حال امداً طويلاً دون تحقيقها. وشرب الحبيبان من ماء الغيرة والريبة، ذلك بان المقر الاستنهوبي كالاليصاباتي[1] لا يطيق ان يصبح واحد من البطانة او الحشم عبداً للحب. غير ان الازمة انقضت، وانتصرت المشاعر الاوفر حظاً من الحنان والمساهلة. فصدر الاذن بالزواج بعد كل تلك المماطلة القاسية. وتخلصت الفتاة الانكليزية من قبضة ماريليوس – تلك القبضة التي دخل حديدها الى روحها – وانتقلت الى عهدة زوجها الذي أفاد هو الآخر من مولاته السابقة.

فأين هو اليوم جلال الشرق؟ لو ان ما يعتلج في قلب اللايدي من اسرار امكن اليوم كشفه لوجدنا على الارجح انها تتمنى العودة الى انكلترا لتنهي ايامها. ومع ذلك فانها لن تعود.

١ نسبة الى اليصابات، ملكة انكلترا المشهورة. – المعرب.

ان كبرياءها وخوفها من الهزؤ والسخرية ، وانفتها المصطنعة من الذوق الاوروبي والعادات الاوروبية – كل ذلك مضافاً الى انحيازها نحو النزعات الشرقية انحيازاً يمكن القول انه متأصل في ايمانها ، لا بد ان يدفع بها الى نزول القبر دونما صديق او حبيب يعول عليها ويقول : « وا أسفاه لمجدها ! » اما قوى اللايدي العقلية ومسامراتها فلا تزال كعهدها ناشطة مفعمة حياة . على ان محياها الاصفر وهيكلها المتراخي اصبحا ينمّان عن ضعف متزايد . ولعلها في احيان ينتابها التفكير بمرارة الدنو من القبر في ارض غريبة بعيدة عن جميع الاقران ، عن جميع الذكريات والمشاعر التي ترافق بكرة العمر وشطره الافضل .

لكن ينتظر ان يقل نفوذ اللايدي استير على حكام البلاد بعد استيلاء ابراهيم باشا على سوريا . وكان عبدالله ، باشا عكا ، مفتوح الصدر دائماً لتدخلاتها ، متساهلاً ازاء مطالبها . كذلك لم تكن شفاعتها لتخيب إلا في النادر لدى والي دمشق ، سواء أكانت هذه الشفاعة في سبيل تاجر او سائح او احد الرعايا المظلومين ، او في سبيل ترفها وهنائها الشخصي . إلا ان ابراهيم حاكم مطلق قوي جداً ، وبعيد جداً ، بحيث لا يتأثر بنفوذ « السيدة العظيمة » ولا يلين لاهوائها . وقد انقضى زمن و « المملكة الشرقية » التي اقامتها هذه السيدة تفلت من يدها ، حتى ان نفوذها المحلي في البقعة المجاورة يتضاءل يوماً بعد يوم . بل ما زالت السيدة ، لبضع سنوات مرّت ، تؤدي الهدايا – واحياناً المقادير المالية الكبيرة – الى المؤسسات الدينية التركية ، او بالحريّ الى اوجه المساجد والهياكل ، تأميناً لعطف الكهنة

والمشايخ وأتباعهم .

وتبدو الارض حوالى صيدا غنية جداً ، لو حرثت لتجلى القسم الاكبر منها ، مرة اخرى ، بحلة «بستان الرب» .

ثم ان هذا الشاطيء كله مهيأ تهييئاً حسناً للتجارة . ومحتمل في ظل ابراهيم باشا ان يستعيد ماضيه كمباءة للنشاط التجاري والصناعة والثروة . ولا تزال التربة تشبه ما كانت عليه في الزمن القديم ، يوم جعل يعقوب بركته الاخيرة على بنيه[1]...

[1] هنا عبارة توراتية على لسان يعقوب استغنينا عنها . — المعرب .

مقبرة تركية في ضاحية صيدا

لصيدا الحديثة مطلعٌ بديع من بعيد . تتراءى عين المسافر ، القادم من جهة صور ، الى اسوارهـا الجليلة وكتلة الاشجار والبساتين المحيطة بها ، لا سيما بعد اذ يكون المسافر قد اجتاز السهل على مدى ساعات والبحر عن شماله وسلسلة الجبال المنخفضة عن يمينه . وقد سبق لهذه الشواطىء عند صور وصيدا – الشواطىء التي حملت اليها بشارة الانجيل ووطئتها اقدام المخلّص – ان كانت في القديم مأهولة جداً (كما تشهد الآبار الخربة) وما بين صور وصيدا من بقايا انقاض كثيرة مسوّاة بالارض . فلا بد لهذا الشاطىء ، اذن ، ان يكون عرف في عصور الازدهار جملة من مدن صغيرة بهجة انشئت للمرح والتجارة والزراعة .

ومشهد صيدا وخليجها ، من على المرتفعات المؤدية الى مقر اللايدي استير استنهوب ، انما هو مشهد غني بالصور الدقيقة . ولم نتمالك ان نشعر ، ساعة اشرفنا على هذا المشهد من فوق ، اننا انما نودع عالم الجمال والخصب لننتقل الى ما وراءه من بقاع مقفرة . وصيدا هي اقرب مدينة الى مقر اللايدي استير . وكثيراً ما يهبط خدّامها المدينة ليشتروا المؤن لأهل البيت

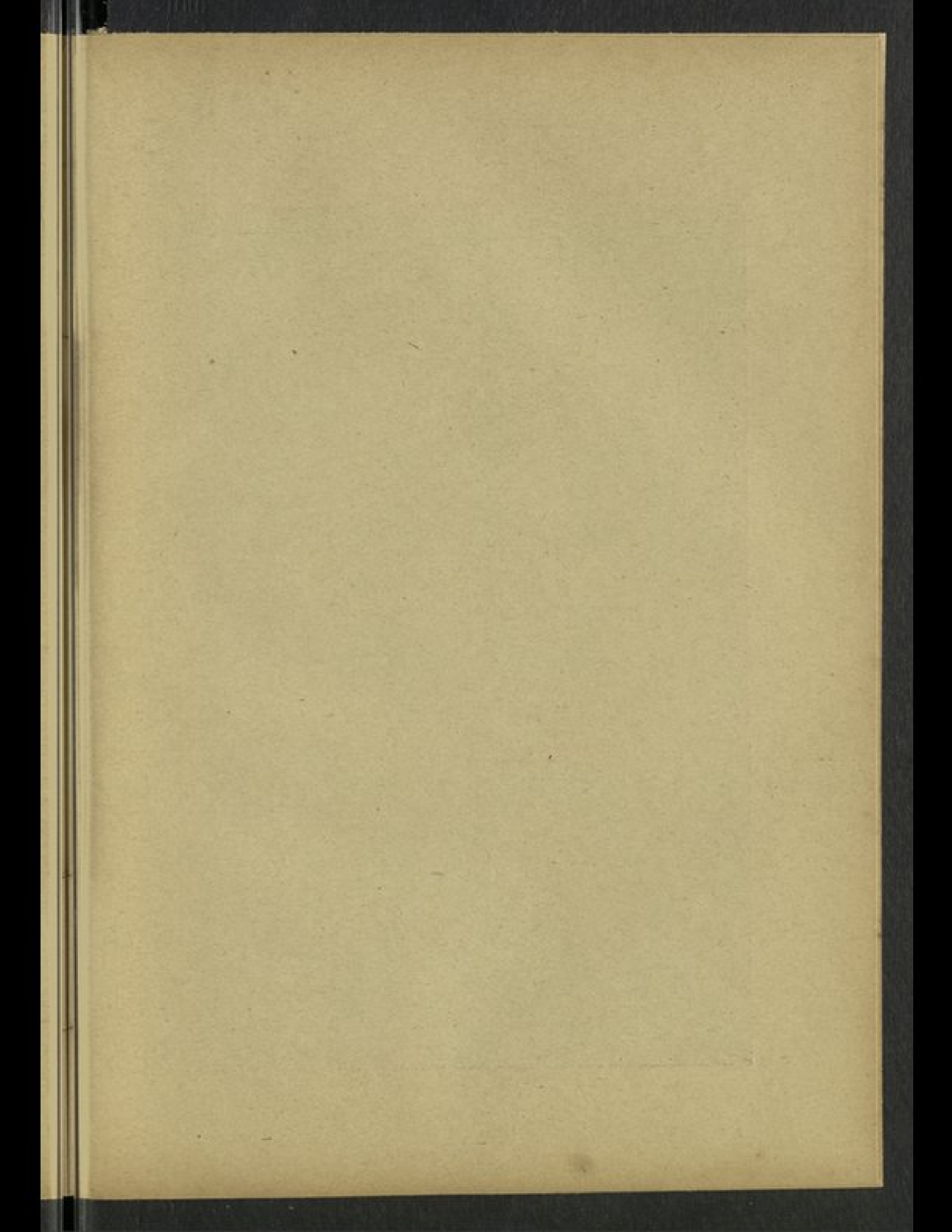
ويعودوا بآخر انباء الجوار الى سيدتهم ، وهي كسائر السيدات المنعزلات تشتهي ان تطلع على ما يدور بين جيرانها من حوادث واعمال واقوال صغيرة . وقل ان يخرج رسلها ، هؤلاء، فارغي الايدي من اسعاف للفقير ، او علاج للمريض ، او وعود للمصابين المنكوبين .

وشد ما يطيب للمرء ، في وقت السحر البارد ، ان يخرج من الشوارع المعتمة الى الجنائن خارج الاسوار . ففي مثل هذه الساعة يأخذ الناس بالانتشار في المقاهي والحوانيت . غير ان الجنائن تكون خالية . وتمتد هذه الجنـــائن الى بعض مسافة حول المدينة وتنتج مقادير من الثمر ، يُصدّر معظمها ، كالرمان والمشمش والتين واللوز والبرتقال والليمون الحامض والخوخ . ويكثر التوت : هذا الشجر الذي تعيش على ورقه مقادير كبيرة من دود الحرير ، كما يكثر الآس والصفصاف والدرداء والحور والنخل والجميز ، وشتى اصناف من نباتات مزهرة وخضر اوفر نفعاً .

وها هي الريح التي تهب من قبل البر — ومثل هذه الريح في الشاطىء اللبناني يغلب هبوبها ليلاً — تمسك لتخلي المكان للريح التي تهب من قبل البحر اثناء النهار . ويكون للريح هذه شذا عطر حلو كأريج الازهار والثمار . ويقوى إحساس الناشق بطيب هذه الرائحة غبّ روائح المدينة ، لان مدن الشرق ليست مواضع زكية شذية . وفي وسط هذه الجنائن تقوم اكواخ الفلاحين . وليست هي تلك الاكواخ البديعة التي تشاهد عادة في انكلترا وعلى جدرانها عرائش الورد والياسمين ، وفي داخلها النظافة والموقدة التي تدعو للغريب الى التعريج . والواقع ان وسائل الراحـــة



مقبرة تركية في ناحية صيدا



مفقودة في الشرق ، إلا في بعض القرى المارونية في لبنان .

وهنا كانت الشمس قد اشتدّت حرارتها ، فرجعنا الى منزلنا البائس ، العاري الارض والجدران ، لنتناول القهوة الممتازة . على ان السائح قل ان يعنيه بؤس مسكنه وندرة الراحة ، ما دام كل يوم يسوق اليه مباهج جديدة ومشاهد فائقة المتعة .

وليست صيدا بالمكان الذي يتجلى فيه الترف والذوق . وآثارها ضئيلة القيمة . فليس فيها إلا القلعة القديمة : قلعة فخر الدين الشهير وطريقها ، وبقايا قلعة لويس الحادي عشر . فأما أبهة المدينة الاصلية فقد ذهب منها كل ظل .

إن قلعة الامير فخر الدين ، هذا البناء الممتد الى البحر ، لأجمل شيء في المدينة الحديثة . وقد استهل الامير فخر الدين حياته ، في القرن السابع عشر ، بان عُين حاكماً على الدروز . فسار سيرة سياسية قوية مكنته من توسيع إمارة الدروز على حساب الاتراك ، حتى اصبح في العام ١٦١٣ سيّد الشاطىء كله من بيروت الى عجلون . فلم يلبث الباب العالي ان خشي امره ، وشرع في إعداد حملة لسحقه . فعزم الامير ، عندئذ ، على الذهاب بنفسه الى ايطاليا ، بغية عقد المحالفات ، وضمان المساعدة من اصدقائه الكثر اصحاب النفوذ والوجاهة في مدينة البندقية . وأحدث وصوله الى ايطاليا اهتماماً عظيماً لما كان يتحلى به من لطف سلوك وقوة فطنة . وطالت إقامة فخر الدين في بلاط فلورنسا تسع سنوات[١] ألف فيها حضارة المدينة وإناقتها واكتسب

١ في مؤلف الاب بولس قرألي : « فخر الدين المعني الثاني » ، (طبع حريصا ،

معرفة بالتصوير والنحت وهندسة البناء .

واستطاع ابنه علي ، مدة غيـابه ، ان يصد هجوم الاتراك ويحافظ على النظام في الامارة . فلم يبق ، اذن ، للامير فخر الدين بعد عودته إلا ان يستخدم ما افاد من خبرة في سبيل هنـاء شعبه . غير انه ، بَدَلَ ان يصرف همه الى واجبات الحكم ، استسلم لتلك الفنون العظيمة النفقة التي ابتهج لها في ايطاليا، وهي فنون لم يكن تمّ لها استعداد شعبه . بنى في كل ناحية منـازل ريفية ، وحمامين وحدائق وزيّنها خلافاً لمشارب الشعب بالصور والتماثيل التي حرّم استعمالها القرآن . واستـاء الدروز الذين استمروا على دفع الضريبة نفسها التي كانوا يدفعونها في الحرب . وبدأ الحزب اليمنيّ – وهم فئة معارضة – يتململون للانتفاض . وكثر التذمر العلنيّ من اعمال الامير الباهظة النفقة . وأوقدت فخفخة الامير الحسد في صدور الباشوات . وعلى هذا ، استأنفت المناوشات سيرتها الاولى . إلا ان فخر الدين افلح في قهر اعدائه . فحاول هؤلاء عندئذ ان يوغروا عليه صدر السلطان ويجعلوه في نظره موضع الحسد والريبة . فعزم السلطان على محقه . وأمر باشا دمشق بالزحف على بيروت ، وكانت هي في العادة مقر فخر الدين . وقد هوجمت المدينة براً وبحراً . لكن الامير ، بما ألف في السابق من حسن الحظ ، وبما استمد من حلفائه الطليان ، واجه

سنة ١٩٣٧) الصفحة ١٥ يقول الاب : ان الامـير فخر الدين وصل الى ليفورنو ، ميناء تسكانا ، في ٣ تشرين الثاني عام ١٦١٣ ، وعاد منها الى لبنان في ايلول عام ١٦١٨ . فتكون اقـامته قد استغرقت ستة اعوام الا شهرين ... – المعرب .

العاصفة مواجهة ثبات وصمود . وانتصر في معركتين . إلا أنه أصيب بالهزيمة في ثالث معركة فقتل ولده وشتت جيشه . وخانته فطنته لهذه الضربة القاسية ، فتقدم بطلب السلم ، فرفض طلبه ، فهرب والاتراك يلاحقونه حتى اعتصم بقلعة نيحا . فحاصروه فيها مدة سنة عبثاً ، ثم اقلعوا . لكن لم يطل به الامر حتى خانه بعض اصحابه وأسلموه الى الاتراك . فاستيق الى الاستانة . وكأن السلطان أعجبه ان يرى مثل هذا الامير الشهير جاثياً عند قدميه ، فعامله أول الامر معاملة حلم وأناة ، غير انه سرعان ما أمر بخنقه في السنة ١٦٣١[١].

وقد سبق لهذا الامير ان اوقع التلف بميناء صيدا القديم ، وردم قسماً منه ، ليحول دون اقتراب الاتراك .

وهواء صيدا صحي جداً ، شأنه شأن هواء اغلب المدن على هذا الشاطىء . وضروريات الحياة فيها حتى بعض الكماليات رخيصة . وارخص شيء اللحم وان لم تكن له سوق نظامية مخصوصة به . والثمار موفورة متنوعة ممتازة . والخمور اللبنانية تباع هنا بأسعار معتدلة . ومثلها خمور ساموس وقبرص ، وبعضها من صنف جيد وطعم طيب . ان تكاليف المعيشة في صيدا ادنى منها في بيروت . على ان صيدا فارغة فراغاً تاماً من شيء تتمتع به بيروت — أعني الحياة الاجتماعية . ولكن حوانيت التبغ فيها تظهر بمظهر جميل متنوع ، فتتراءى القطرميزات الزجاجية ، المحلاة بالازهار الذهبية ، ملأى بالتبغ من شتى الالوان : تبغ بغداد

١ راجع الحاشية في الصفحة ١٦ . — المعرب .

القوي الذي يسكر الغريب ببعض مجات منه كالوسكي ، وتبغ اللاذقية اللطيف المعتدل الذي يستطيع الغريب ان يدخن منه جملة غلايين في اليوم دونما كدر .

أما سكان صيدا فيقال ان عددهم بين ثمانية آلاف وتسعة آلاف . وتنفتح أسواقها المتعرجة الطويلة عن احتياطي لا بأس به من البضائع ، وعن زوار يلبسون الالبسة اللائقة . وصادرات صيدا عبارة عن القطن المغزول والحرير والقمح وأخشاب الدردار والزيت الخ . ومستورداتها عبارة عن الاقمشة والبهارات والحديد والاصبغة .

بقيت هذه المقبرة التي تتجلى في اللوحة الى جانب قلعة أثرية يفرض انها قلعة لويس الحادي عشر . تقع المقبرة هذه خارج المدينة . وفيها اشجار مديدة باسقة تطرح ظلالها على الاضرحة . بعضها مهدم خرب ، وبعضها جديد البياض مطلي بالاصفر الذهبي ، نقشت عليه عبارات بالحرف التركي[1] واقيمت فوقه أنصاب هي في العادة قواعد من حجر وعليها عمامة . واتفق يوم زرنا المقبرة ان كانت جماعة من النساء قد اقبلن يبكين على قبور أنسبائهن ، ويرتدين الحجب والجلابيب البيضاء التي تغطيهن من رأس الى قدم . رأيناهن يبكين في صمت ، جاثيات على ادراج الاضرحة او بين الزهور النامية صفوفاً على الارض . والوقت ساعتئذ اول شق الفجر . فنور الصباح يقع شيئاً على القبور فيضيئها وعلى

١ يقصد ، بالطبع ، الحرف العربي ، لان التركية ليس لها رسم لحروف مخصوص بها . — المعرب .

ابراج القلعة المحطمة . لكن الشطر الاعظم من المقبرة المكتظة بكثرة السكان ، كان لا يزال ملتفاً بالعتمة التي يشغف بها الشرقيون . فهم لا يحبون ان يفدوا على القبور في رابعة النهار، بل يؤثرون لمثل هذه الزيارة بكرة الصباح او العشية ، ولاسيا العشية .

وتعد هذه المقبرة في صيدا من اروع المقابر في شواطىء سوريا . وكأن انقاض قلعة لويس تقول كالقبور في جوارها : ان أماني هذه الحياة وغرورها انما هي كـ «الحكاية التي تحكى» . وعندما يسقط شعاع القمر على ابراج القلعة والاشجار والقبور تحتها ، والشخوص البيضاء الذاهبة الآيبة في بطء ، يبدو المشهد مهيباً يرسخ في الذاكرة فلا يعتريه نسيان .

جون [1]

مقر اللايدي استير استنهوب

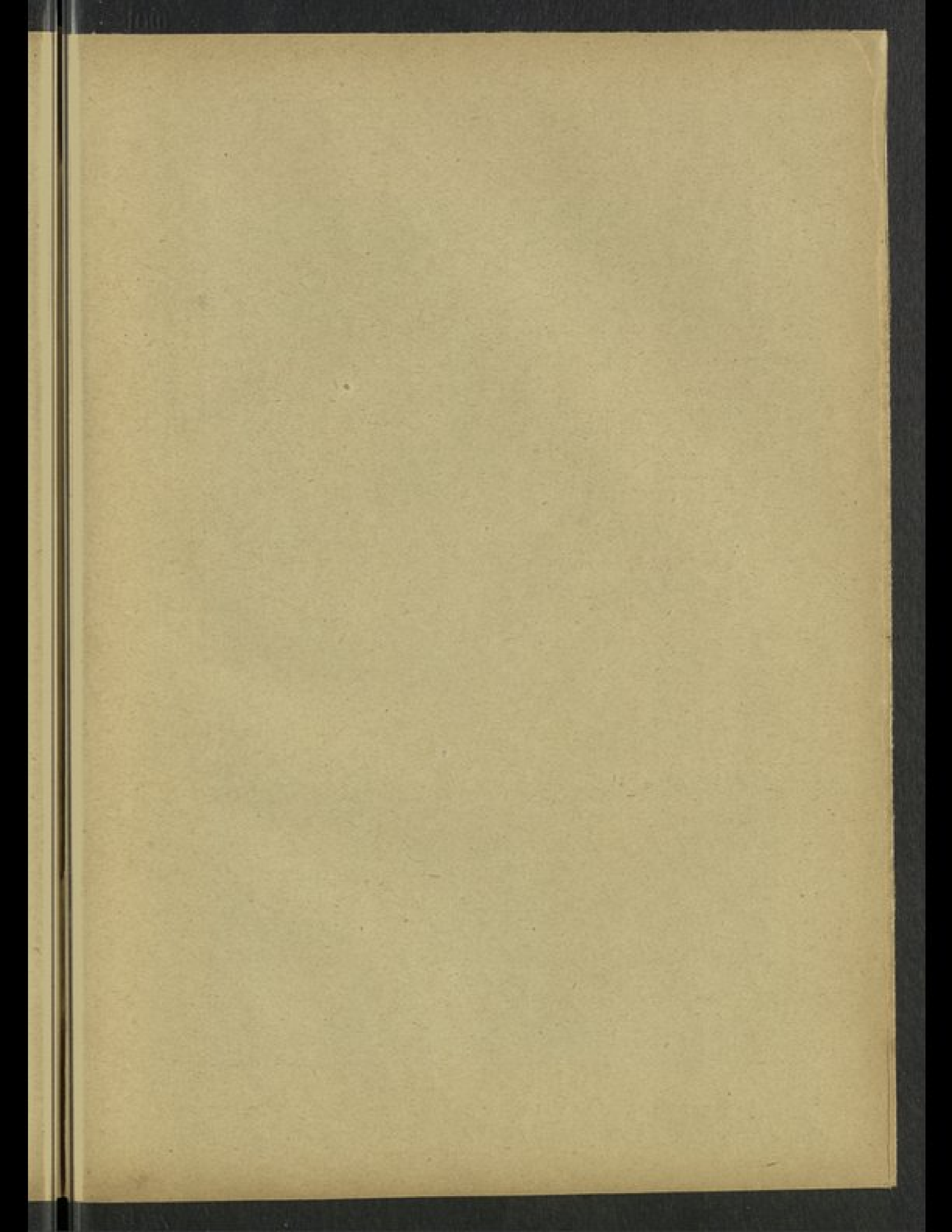
ُنقلت صورة مشهد هذا المقر ، الذي تنزله هذه السيدة الشهيرة ، من مدخل صيدا ... إن سيماء هذه البقعة ، بما يتجلى فيها من تعقيد ووعورة وتضاريس ، لتشبه كثيراً من البقاع في جبال الآبنين . وتبدو الطريق الى مقر اللايدي في مقدمة الصورة : طريق صاعدة متعرجة تستمر في التواءاتها حتى تنتهي عند القصر نفسه . حقاً إنها لنوع من طريق تعرّض الرقبة للكسر . فكأن اللايدي شاءت من كل مَنْ يحج الى مقرها ان يجهد قبل ان يصل الى مباهجه ويتململ « ويتكبّد المشقة » شأنه شأن « كريستشين [2] » وهو يتسلق « آكمة المصاعب » . حقاً ان دنيانا هذه لتزخر ببوادر من غرابة الاطوار والشذوذ . لكن يستحيل ان توجد بادرة ادلّ على غرابة الطور والشذوذ من اختيار اللايدي مثل هذا الموقع مقراً لها . إن المكان وجواره ليحفل بمشاهد الجمال والغنى ، وبالاودية والهضبات المظلة التي تحجبها هضبات اعلى علواً ، وفيها

١ تهجئتها في الاصل عند المؤلف : جوني Djouni ، وهو خطأ . — المعرب .

٢ « كريستشين » Christian بطل رواية « سياحة المسيحي » التي كتبها في السجن الاديب الانكليزي يوحنا بنيان . — المعرب .



جون ، مقر اللايدي استير استنهوب



الماء الموفور . وغنيّ عن القول ان لبنان يشتمل على مئات المجالي الطبيعية ذات المشهد البديع والسحر الخلاب . لكن هذه السيدة – وهي اشد شغفاً بوعر الاشياء ومهيبها منها بنواعم الاشياء في هذا العالم – أبت إلا ان تقيم وكرها النسري على قمة جلمودية تكسحها الرياح من كل صوب . وتلك الغياض الكثيفة العميقة اللون ، التي تبدو في الصورة فوق جدران القصر ، إنما هي الحدائق التي اوجدتها بيدها : حدائق رائعة الحسن والاخضرار . ويخلو الشرق كله من حدائق مثلها يستطيع المرء فيها ان يطالع هذا الجمال كله والتنوع كله على مثل هذا النسق الممتاز من سرادقات ، وبماشي تظللها العرائش ، ومرجات اعشاب ومغارس اشجار . وقد اتيح للرسام شرف الاجتماع بحضرة اللايدي ، في احد سرادقاتها ، مدة ساعات أنس فيها بحديثها . حتى اذا اقبل الليل لحق بالقرية التي الى يمين الصورة فبات فيها في الهواء الطلق . وبين هذه القرية وجون وهدة ضيّقة وعرة مسننة الانحدار منعته من ان يواصل المسير الى جون في حلك الظلام . وتشمخ على كثب من المكان سلسلة جبال لبنان الوسطى ، الشاهقة ، المغطاة ثلجاً ، فتغلق على النظر مداه . ولا يعدو مشهد هذه السلسلة من الجبال ان يكون في هذا الموقع ايضاً مشهداً رتيباً مملاً لا جلال فيه ولا فتنة . وهناك ، على القمة من هذه السلسلة ، تمر الطريق بين بيت الدين ودمشق : طريق يستطيع المسافر عليها ان يتناول ببصره مدى رحيباً جهة البحر ، ومدى رحيباً جهة الداخل حتى مياه ميروم ، او بحيرة طبرية .

اما الزي الذي تبدو به النساء في مقدمة الرسم فهو الزي

الشائع في لبنان .

ولا يحسدن السيدة المقيمة في جون شتاءً ، احدٌ من سائر سكان الارض المتواضعين ، او من سائر سكان صوامع الاديرة التي تملأ منحدرات لبنان . فاذا صح ان البال الهادئ والايمان المعزي هما اهم جوهَري السعادة في هذا العالم ، فان كاس اللايدي قلّ ان يمتزج فيه هذان الجوهران . ولقد اصبحت الاحلام وتكهنات الفلكيين هي الشغل المحبب الذي يشغل اللايدي في اعوامها الاخيرة . ولولا هذه الاحلام ولولا هذه التكهنات لكان هذا المساء — مساء حياتها — شقاءً عظيماً عليها ، ولكان شأنها شأن « نورا » المبتلاة بالغيبوبة ، لما ثاب اليها وعيها احست بان قدرتها على العناصر انما كانت وهماً في وهم . وليست آراء اللايدي في رؤيا المسيح بأقل شططاً وتهوساً من بعض تنبؤاتها . وفي جملة هذه التنبؤات ان المسيح سيعود ، ولن تبطيء عودته . ولذلك تحتفظ اللايدي بهذا الجواد العربي الجميل ، الابيض بياض الثلج ، فتأمر بالقيام على خدمته في اصطبلات جون وتنفق عليه إنفاق ترف لا يفوقه إلا إنفاق كومودس على جواده . فاللايدي قد اعدت هذا الجواد للسيد المسيح يدخل عليه القدس دخول الظافر ، وتكون هي وراءه في الموكب تمتطي فرساً سوداء رائعة الجمال . ويوم ان زار لبنان القس ل . و (لا اقصد وولف) ، هرع اليه مشايخ العرب جماعات جماعات يمتدحونه ، ويقدمون له سلاحهم وخدماتهم اذا كان ينوي — على ما يقال — ان يقيم نوعاً من ولاية جديدة . وبالطبع ، ان ما غر هؤلاء المشايخ لم يكن سوى ما سمعوه من انباء ثروة القس

ونفوذه .

إلا ان الشطر الافضل من مداركـــه تغلب على الشطر الاسوإ . وأعانه على هذا التعقل مرض طال امره . فلم يذهب مع تيار هذا الاغواء ... قضى القس ثلاثة ايام في جون بدعوة من سيدة القصر ، رغبة منها في ان يعنى طبيبه بخادم لها وجد عندها حظوة . وهكذا اجتمع ، تحت سقف واحد ، بشريان من اعظم متهوسي هذا العصر ، يناقض واحدهما الآخر مناقضة عنيدة في العاطفة والغاية . فواحد ، هو القس ، يكرس ماله ووقته وذكاءه لتبشير اليهود ، باخلاص لا ينضب وغـيرة لا تخمد . يجتاز كل ارض وكل مدينة ، ويدخل قصور الملوك ، في سبيل استنقاذ شعب اسرائيل الضـال . يبذل الف ليرة ، لا يرى في الامر غلاء نفقة ، لينصّر يهودياً واحداً . ويقطع الف ميل ، لا يرى في الامر بعد مسافة ، ليرد الى الحظيرة عبرانيـاً واحداً .

اما اللايدي استير فكانت تنظر الى هذه الشؤون كلها نظرة مقت لا يوصف . على انها كانت تجهل سيرة ضيفها ، فعـاملته معاملة لباقة عظيمة . لكن لم يلبث الامر ان انكشف عند انتهاء مدة الزيارة . وقد تم هذا الانكشاف بصورة ذات دلالة خاصة ... كان الضيف يرغب في انتهاز فرصة مناسبة يحول فيهـا افكار السيدة تحويلاً جدياً شطر الديانة . إلا ان مثل هذه الفرصة كانت نادرة في جون . ومع ذلك ، فقد حدث مرة ، قبيل اوان الرحيل ، ان جلسا يتحدثان ، فأغرقت اللايدي في بعض خطراتها التي لا يضبطها ضابط . فاذا بالضيف يبدّل لهجته فيلبس حديثـه طابع الجدّ . فأصغت اليه في هدوء ، وعلى صورة تخيّل معها انها متحمسة

لحديثه حماسة نامية . ثم عقب ذلك صمت امتد بضع دقائق . فهل يكون ذلك القلب المتكبر تأثر ولان ؟ أجل ، لقد تأثر ، ولكن بما مسّه من الدهشة والغضب . وارتسمت على شفتي اللايدي ابتسامة هازئة ، مرّة ، صعبة ، لا تطاق . ثم قالت له : « اعتقدت انني اؤوي تحت سقفي رجلا مهذباً ، لكن ها انا اكتشف انني إنما آويت مبشراً متعصباً ! »

يقال ان الممثلين العظام إنما هم هؤلاء الذين يمثلون دورهم بالقوة نفسها ، وسواء أكان دور امير او فلاح . إن هـــذا الاطراء لينطبق على حضرة اللايدي التي مثلت شخصيتهـــا بقوة واتقنت دورها ، على كل ما يمكن ان يكون اشتمل عليه هذا الدور من اختلاف وتغير . ففي السنوات الاولى التي اقامتهـــا في سوريا ، كثيراً ما وقع ان اجتازت الصحارى ومثلت دور ملكة للبدو ، على طراز نسوة الامازون ، تمتطي جواداً عربياً بديعاً وفي يدها الرمح . تزور الامراء والباشوات فتحظى ، في الاعمّ الاغلب ، باعجاب العظماء وبدهشة من هم ادنى مرتبة ، يجلونها إجلالاً ويوقرونها توقيراً . فقد كانت في سلوكها هيبة وجسارة هادئة ، وكانت في حديثها قوة وطلاوة ، وذلك ما لم يتعوده هؤلاء في النساء البتة .

ثم انتهى الفصل الاول من الرواية . اخذت قوة هـذه النفس الفوّارة وهذا البدن النضر تضعف شيئاً . فأقبل الفصل التالي من الرواية : فصل التنجيم . ومكثت جيادها الجميلة كسلى في الاصطبلات . وقلّت جسارتها عـلى اجتياز الصحارى ومجابهة المخاطر . وتحوّلت ملكة تدمر الى امرأة معتزلة ، غارقة في حياة بيتية عصبية . وبات المشايخ والامراء لا يرون مواكب « السيدة العظيمة » تخب خبباً

الى ابوابهم . لكن حماسة كحماستها وغيرة كغيرتها انقلبت بها شطر التصورات الخرافية . إنها تعيش الآن عيشة جهد تستمدّ لها الغذاء من رؤى المستقبل . وقد اقفر حاضرها إلا من مباهج قليلة جداً . اصبحت صحتها على انهيار ، وهوى بها نجم العمر ، وفارقتها الرغبة في بذل النشاط ، حتى باتت لا تفارق اسوار جون وحدائقها نهاراً او ساعة من نهار .

بقي الفصل الثالث من الرواية لم يمثل . ولن تكون الخاتمة مفجعة جداً ، ومؤكد انها لن تكون خاتمة سعادة او حظ . أية امرأة باستطاعتها ان تشهد « الاوراق الصفراء » تتساقط حولها في إسراع ، ثم تلقى مع ذلك مالك الاهوال في قاعات جون وهي رابطة الجأش برغم فقد الاصدقاء وانعدام الايمان وشدة الوحشة المحيطة بها ؟ أجل ، أية امرأة تطيق مثل هذا المصير إلا اللايدي استير استنهوب ؟

في طبيعة عقل هذه السيدة نقص تام يتجلى في خلوّها من البساطة . فهي تبدو دائماً بمظهر المخلوق المسرحي الذي يمثل دوراً ما ، يقصد به الى اثارة الدهشة في الاهلين او في الضيوف الزائرين . وفي اللقاء الذي تمّ بينها وبين لامرتين ، نرىَ ايهام المرأة المنجّمة يتعارض تعارضاً بديعاً وكبرياء الشاعر وغروره . على انني سأورد هنا وصف اللقاء الطريف بينها وبين السيد الذي رسم صورة هذا المشهد لجون . ولم يسبق لسائح زارها حتى اليوم ان اطرى مفاتنها الشخصية مثل هذا الاطراء ، قال :

« وجدنا بالباب جماعات من الالبان والانكشارية الشرسين . على ان حاجباً من مقدمي الحجاب ، متناهياً في اللطف ، قادنا الى

الحجرة المهيأة لنا : حجرة انكليزية ، شرقية الطراز ، بين بين .
فما انقضت دقائق حتى بعثت حضرة اللايدي في طلبنا لنتفرج
بحدائقها . وكنت اتوقع ان ارى امرأة مسنة مغضنة متغطرسة .
لكن فوجئت مفاجأة حلوة جداً بطلعة ضيفتنا الغريبة وسيماها
النبيلة اللطيفة . لا شك انها كانت في صباها فائقة الحسن . فهذه
قسمات محيّاها ناعمة دقيقة معجبة ، تجمع بين المهابة والحلاوة جمعاً
يأسر اللبّ . كان زيها على شيء من الغرابة ، لكنه شديد التأثير .
وكان لباس رأسها من موسلين شاحب اللون يظلل جبهتها الرفيعة
الشاحبة . وقد آنست في طلعتها – ولا ريب – بادرة ضئيلة من
بوادر الهستيريا التي تعتريها نوبات نوبات . لكن سيماءها ، مع هذا ،
تبدو بصورة عامة ، سيماء امرأة موقنة يقيناً هادئاً بصدق مبادئ،
اطمأنت اليها اطمئنان رضى عميق ... سارت بنا الى قنطرة ، في
الحدائق ، انكليزية المظهر . فما رددت ذلك حتى اجابتني : « لا تقل
هذا القول ، فاني اكره كل شيء انكليزي . » ثم اومأت برأسها
جهة صاحبي ، وكان اميركياً ، فقالت : « ان نجمه نجم سعيد – سعيد
جداً ! » وعادت فوجهت الي الخطاب : « إن مزاجك مرح ، ترى
كل شيء زاهياً بلون الورد . انت ممن يحسنون عبور الحياة .
وسترتفع حوالى اواسط العمر . ولك ميل الى ان تغضب احياناً
غضباً عنيفاً . وباستطاعتي ان ازيدك كشفاً عن ذاتك . » ثم رحنا
نطوف بالحدائق وكلها من صنعها ، فعجبنا لخضرتها وحسن نسقها .
ودعينا بعد ذلك الى تناول طعام الظهر ، وكانت اللايدي قد
تبلغت بطعامها الخفيف من قبل . واشهد ان الغداء كان محيياً
للروح . وكان لا يزال بي سخط عالق من ليلة امس ، فدفنت

البقية الباقيـة من سخطي في صحن من مشمش منقطع النظير .
حتى اذا ازف المساء بعثت في طلبنـا مرة اخرى . فوجدناها في
سرادق في الحديقة ، متكئة على مقعد ، وبين اناملها نوبيج طويل
مطرز ، مقعدها مزوّي في زاوية . فما رأتنـا مقبلين حتى ظللت
عينيها بكفها ، فجعلت من مكانها تتأمل قسماتنا في صمت كأننا
تريد ان تتمم او تثبت معرفتها بطباعنا على نحو ما خيّل لها .
وأتتنا بنيّة نوبية بالقهوة ، فشربنا عـلى حديث . فذكرت
خلال كلامهـا ان الجنّ الصالح سيظهر في اجل قريب ، وان
الارض يحتلهـا الآن الجن الشرير منهمكاً في الدسائس ، وهي
تعرف موضعه . فاذا ظهر الجن الصالح اسرع الناس الى لوائه ،
مخلفين النساء والاولاد ، فتقع معركة عظيمة حاسمـة تنتهي بفوز
الجن الصالح . وعلى الاثر ينقلب عالمنا ، هذا المسكين ، الى عالم
نظام . فتجرأتُ ان اسألها : ومن اين منشأ هذا العلم العميق
بالمستقبل ؟ فترددت اللايدي بعض الشيء ، ثم اجابت : « من القراءة
بالدرجة الاولى . » فلحظت وجهاً للشبه بين هـذه الآراء وآراء
إرفن Irving التي بناها على بعض آيات من الكتاب المقدس .
وذكرت لها ذلك ، فقالت : « لا بد ان يكون إرفن على حق . »
وجعلت بين الحين والحين تقلّب صفحات الكتاب المقدس زيادة
في التأكيد .

على ان اللايدي اذ تنزل من سبحات الغيوم الى المواضيع
الارضية المألوفة ، تصدر في كلامها عن فطنة عظيمة ونقاد دقيق ،
وتستمد من ذخر غزير من النوادر وسحر قوي في الاسلوب .
وقد اسبغ هذا كله على مقابلتنا الانيسة الطويلة بهجة كاملة تامة .

ثم لا ننس لطفها الشخصي ، فانهـــا نصحت لي ان لا اتعرض بحياتي للخطر فأزور المناطق المضطربة . واظهرت استعدادها لفتح باب الضيافة لي على مصراعيه ، اذا كنت عـازماً على مدّ اجل اقامتي في الجبال . »

مشهد صور من اليابسة

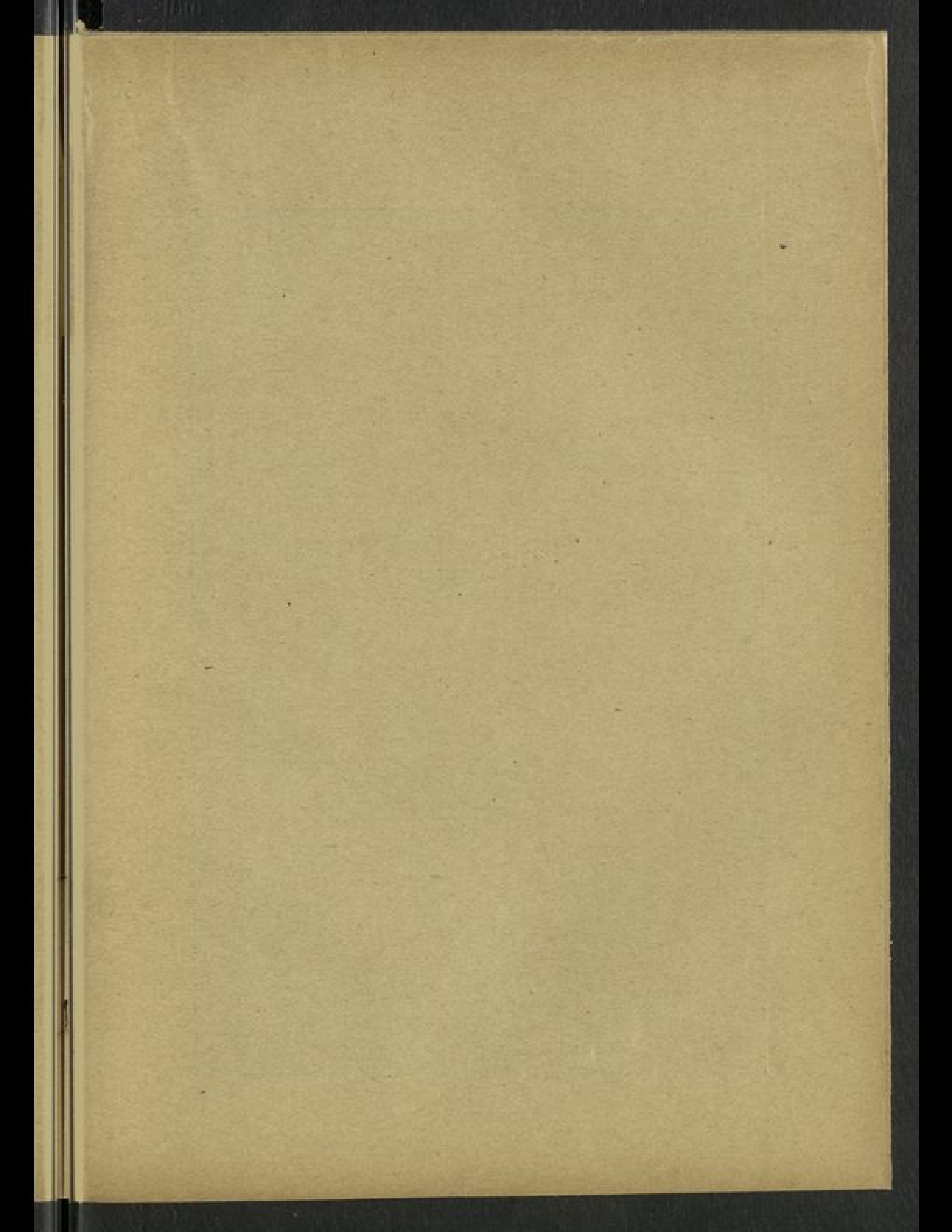
١

اخذ هذا الرسم من على هضبة عالية ، تبعد من صور ميلين في السهل ، وتتوّجها قرية ذات مسجد . وفي سفح الهضبة خرائب كثيرة من اقنية ماء تتجه في الظاهر شطر مدينة صور وجزيرتها ، ومنها ما ينصرف شطر بئر سليمان في رأس العين . امـــا في اللوحات الاخرى التي نقلناهـا عن صور ، فتتراءى هذه الهضبة والمسجد في مؤخرة الصورة ... حقاً ان المشهد الذي تشرف عليه هذه الهضبة ومسجدها لرائع الاثر في النفس . إلا انه جد موحش . كانت الساعة وقتئذ صباحية مبكرة ، فالشمس قد بزغت ولمّا توشك ، والهواء ما يزال نقياً طرياً ، والبحر هـادىء تنحدر اشعة الشمس على احضانه انحداراً بديعاً ، والزوارق الشراعية تكاد لا تصادف نسمة . وكانت اسوار صور وبرجها القديم وخرائبها لا تزال في ظل العتمة . شد ما هو صغير بائس هذا الموضع ، على نحو ما يبدو الآن قائماً في وهن فوق هذه التلبلات من الرمل ! ومع ذلك فهو موضع سلف له في زمن ان كان هو المدينة التي ملكت البحار وسادت امماً كثيرة حسدتها جميعاً لمجدهـا . « فهل صحيح ان مثل هذا الحدث وقع حقاً في التاريخ ؟ » انه سؤال

كثيراً ما يعرض للذهن في هذا الموضع وامثاله . فلا يلبث الايمان ان ينبري لنجدتنا . ولولا الايمان ، ترى كيف تثبت حماسة السائح ؟ ما اجدر الحماسة احياناً ان تجترح العجائب ! وذلك أمر تمثل في شخص رجل انكليزي كان زاده من المال زهيداً جداً ، اقل كثيراً من مقدار النفقة ،التي تستوجبها رحلة في سوريا وفلسطين . ومع انه كان على علم بهذه الحقيقة ، فلم تتزعزع عزيمته على القيام بالرحلة . ليلقَ الفقر او الاسر او المنية نفسها . اي بأس ؟ انه كان على اهبة ان يواجه هذه الآفات كلها في سبيل إتمام القصد الذي احبه وتوخاه . ومن اقوال غوته ان المرء اذا طوى نفسه على غاية ينشدها ، فصبر في سبيلها واثقاً مؤمناً ، تمر عليه الاعوام الطوال بالمماطلة وانكساف الاماني ، فلا بد – على وجه عام – من ان يظفرَ باتمام غايته في النهاية ، شرط ان تكون الغاية التي جهد لاجلها ملائمة عبقريته وخلقه . وبالفعل ، أتى على هذا الرجل الانكليزي اجلٌ طويل قضاه على انتظار ورغبة تعاظمت مع الوقت ، حتى تأجج قلبه في صدره وعجز عن الاطاقة والاحتمال . فلما طرح به مركب من اسطنبول على شواطىء سوريا ، لم تكن في جيبه إلا ثلاثون ليرة . وبهذا المقدار كان عاقداً النية على السياحة في البلدين وتغطية النفقات كلها ومشاهدة كل ما تمكن مشاهدته ... هي مغامرة جريئة ، وربما دعاها بعضٌ جنونية ... اشترى الرجل بغلين ، وارتدى ثوباً سورياً خفيفاً ، وابتاع كيسين كبيرين من ملح حملهما على البغلين ، وطاف بالبلاد مشبّاً كأنه تاجر ملح . وجعلت بضاعته تتناقص بالبيع ، فأصبح باستطاعته بين حين وحين ان يمتطي احد



مشهد صور من البابة



البغلين ، الى ان اتيح له تجديد البضاعة . ولا ريب ان خطته هذه لم تكن لتجديه نفعاً لولا إلمامه بالعربية . وكان قد سبق له وهو في اسطنبول ان عني بتعلمها بعض الشيء . وهكذا تمكن صاحبنا من اجتياز شطر كبير من لبنان وداخل سوريا . وقد درّ عليه بيعه الملح بعض ارباح نفعته النفع الجزيل . سوى ان معيشته كانت – على ما نستطيع ان نتصور – معيشةً قشفة جداً . وفي احيان ، كانت توهب له الاكلة من حليب وخبز وتمر مجاناً . لكنه كان ابداً يضطر لدفع اجرة لقاء مبيته في المدن والقرى الكبيرة حيث كان ملزماً بالظهور في مظهر لائق محترم كيما يتسنى له الاختلاط بالاهلين ، ومراقبة عاداتهم وطباعهم . ولم يكن ينزل في المدن إلا في الخانات .. فيهتم اول شيء بعلف بغليه ، ثم ينصرف الى تسلية نفسه ، فيطوف بالمكان ، حتى اذا اقبل المساء انضم الى حلقة التجار النازلين مثله في الخان . إلا ان نوع ثيابه وتجارته كان يحول بينه وبين الدخول في جماعة التجار الاغنياء .

واذا به يوماً يفاجأ بحادثة غريبة . فقد ادّى به السير مع المساء الى مدينة في داخل سوريا ، قصد خانها ، فدبر امر بغليه ثم جلس يدخن في غليونه الى جانب نافورة الخان التي تصب ماءها في الحوض النقي صباً رتيب النغمة . فما لبث ان بصر بجنديين من الاتراك يدخلان الخان ويسعيان اليه فيهزانه بايديهما الفظة الخشنة وهو في جلسته المتراخية المطمئنة . فأنبهما على فعلتهما وشحب لونه . فما كان جوابهما إلا ان اساقاه من الخان وهما يدفعان في قفاه بين الحين والحين . ومضيا به في شارعين او ثلاثة

من الشوارع الضيقة حتى اتيا بيت الوالي ، فدفعا بـه الى حضرته في غير ما رعاية او لياقة . وهنـا سرعان ما استطاع الرجل ان يدرك سبب تلك المعاملة الشاذة ... كان الوالي ، وهو امرؤ مسن ، مضطجعاً على مقعد تحت وطأة ثقيلة من الحمّى ، ونفر من عائلته وضباطه وحرسه وقوف حواليه . لقد قضى يومه كله يرمي الجريد . وكان النهار قائظاً فاشتدت حرارة الوالي حتى افرط في شرب الماء البارد . وبالطبع ، سبق لرجال الوالي ان رأوا المكاري الفرنجي يدخل المدينة . والاتراك جميعاً يعتقدون ان الاوروبيين ليس فيهم من يعدم معرفة الطب ، وان الكثير منهم حكماء ، او اطباء . لذلك جرّوا هذا الغريب الى الوالي المريض وأوماآ اليه بوجوب وصف علاج له في الحال . فاحتج بانه يجهل كل الجهل فن الشفاء . غير انهم لم يصدقوا قوله البتة . فلما استمر في طلب العذر ، عوض ان يشفي الوالي ، هددوه بجلده عـلى الفور . وعبثاً اعاد عليهم القول انـه يجهل الطب ويعجز عن شفاء واليهم . فقـد كانوا يسمعونه ولا يصدقونه . وازدادت إشاراتهم والفاظهم حدة ووعيداً وترهيباً . فاضطرب الرجل ، وفي اضطرابه وقنوطه ادار نظره في الغرفة فرأى بطيخة كبيرة ، فقال إنه يعتقد ان الوالي اذا اكل شيئاً منها نفعته . فما اسرع ما حزّت البطيخة وقدمت للمريض . وكان الوالي لا يزال على عطشه الشديد ، فالتهمها بأسرها التهاماً ، ثم غلب عليه النعاس فغاص في النوم . فاستنتج الضباط ان حالة واليهم تحسنت اذ رأوه يرقد رقاداً هادئاً ، واقتنعوا بان البطيخة نفعته جداً . فشكروا للتاجر المسكين خدماتـه ، واخلوا سبيله فانصرف وبه ذعر يدعو الى الشفقة والرثاء . على ان العلاج الذي

وصفه كان ابعد شيء عن ان يكون موافقاً . وساعة ابصر الوالي يلتهم البطيخة كلها ، انتابت شعوره نوبة من تشاؤم مظلم . لم يكن امامه وقت يضيعه . فقفل الى الخان . ترك اكياس ملحه ارضاً . ركب احد بغليه وساق الآخر قدّامه مسرعاً شطر باب المدينة ، وكان ـ لحسن حظه ـ لا يزال مفتوحاً . وقد واظب على السير طوال ليلته تلك ، دونما وقفة إلا ريثما يريح بغليه بضع دقائق . فما أشرق عليه الصبح إلا في قرية اخرى على قمم الجبال ، في باشوية اخرى لا يناله فيها حكم الوالي . فأقام هناك بضعة ايام . وهاله في اليوم التالي ، بعد مغادرته مدينة الوالي ، ان يسمع على لسان بعض المسافرين ان الباشا قضى نحبه في تلك الليلة التي اكل فيها البطيخة بوصفة وصفها الحكيم الفرنجي . وليس من شك ان « الحكيم الفرنجي » هذا لم يكن ليواجه ضوء الصباح ورأسه بين كتفيه ، لو انه تخلف في المدينة .

سلم صور

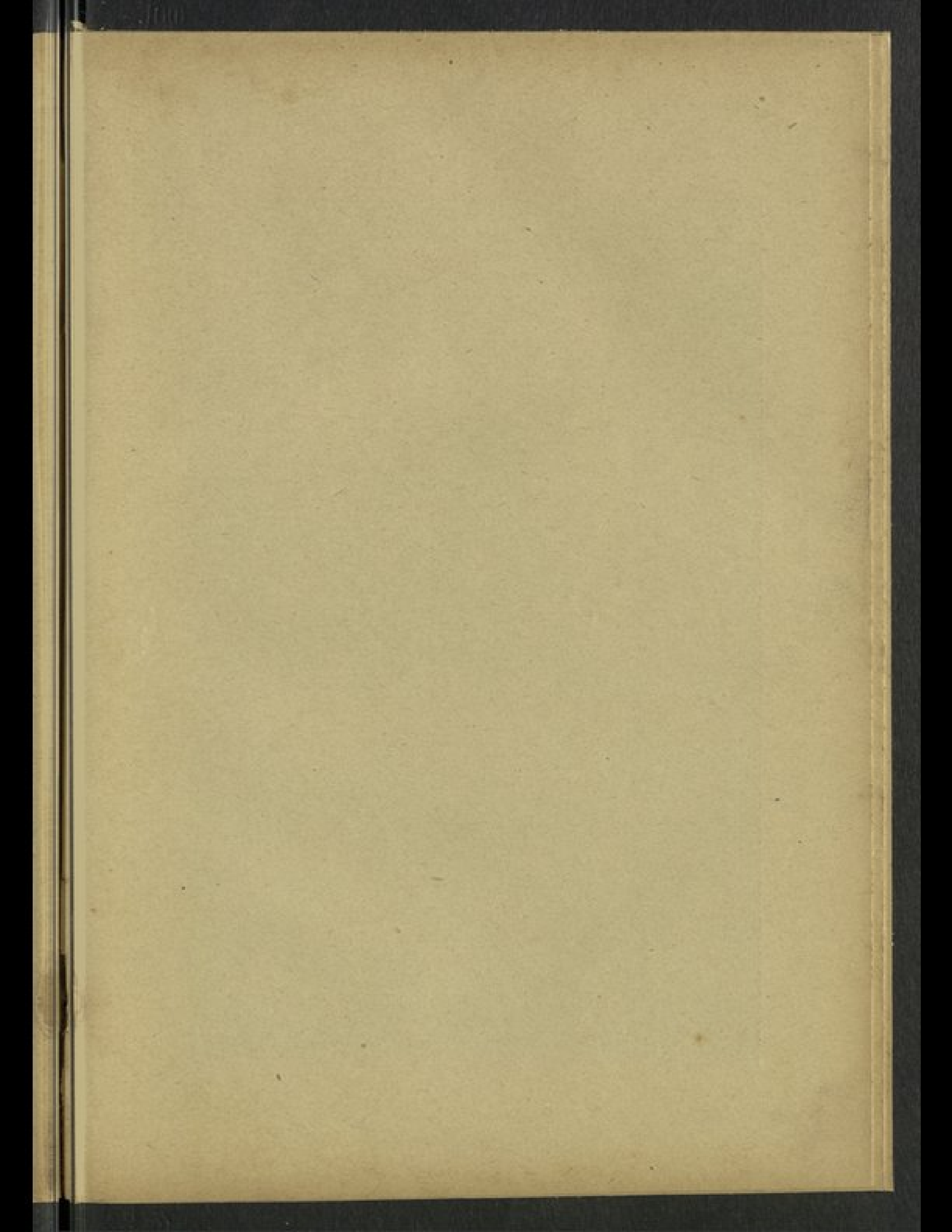
معبر على الشاطىء الى جانب صور

مقفرة متفاوتة هي الطريق من عكا الى صور . يتقدم المسافر ثلاث ساعات في سهل عكا البديع فيمر — وقد ادركه المساء — على خان منفرد في الشاطيء ، ثم لا يلبث ان ينقطع به السهل عند أكمات ناتئة صعبة المراقي . وهنا يتدرج في معبر كأنما عُلّق فوق البحر تعليقاً فأشرف فوق امواجه اشرافاً رائعاً بعيد المدى الى وراء وامام ، لكنه مهول مخيف .

ليس المكان كله قحطاً . فهذا المشهد الموحش من صخور ضخمة جرداء كثيراً ما تؤنسه بقاع اوفر خصباً تكسوها الخزامى والشقائق وتنتثر عليها شجرات سامقة يسوق اليها الراعي أسرابه للرعي ... المشهد كله صامت مهيب معروض للبحر ، يذكر تذكيراً قوياً ببعض بقاع من شواطئنا التي ولدنا عليها حيث يضرب الاطلسيّ بقوته حفافي الحجر السمّاقي Granite . حقاً ان وجه الشبه في السمات والاصوات والقرائن بين هذا المنظر وبعض مناظر شواطئنا جلي قوي ، بحيث يكاد الظن في وقت ان لا يصدّق ان الموضع هذا انما هو جزء من ارض الميعاد الخربة[1] .

١ وهذا اثر من آثار ذهنية المؤلف التوراتية . — المعرب .





وتنبت على حاشيتي المعبر اضاميم من الريحان والغار . فأما هذه التسمية : « سُلّم صور » فيطلقها بعض السائحين على اكمة الناقورة ، وهي اول نهد من الارض يرتفع بعد سهل عكا . لكن يبدو في الواقع ان التسمية : « سلم صور » انما خُصّت بها هذه الهضبة البيضاء الممثلة في اللوحة (صَحبة هذا الفصل) .

يخترق المعبر ، الذي يدور عليه حديثنا ، كتلاً من صخور كلسية ، فهو ضيّق وعر . ثم هو في شطر منه خطر حقاً . يقوم على كتف مهاوي عمودية الانحدار ، ينبسط لدينا البحر الرحب . فأسلم للمسافر هنا ان يترجّل عن مطيّتـــه ، اذا كان يرغب في استمراء جلال المنظر القفري حوله ، يتوخّى الانصات في صمت لموسيقى الامواج الشرسة التي لا تنفك تلطم القاعدة الصخرية في اسفل .

وتُرى صور – اول ما تُرى – من تلك « النقطة » الناتئة التي ينهض على ام رأسها برج للحراسة مصدّع خرب . وكان ان اطللنا نحن على مدينة صور ، لاول مرة ، عند الظهيرة . فرأينا الضوء في رابعة النهار يفيض على صخورها وشبه جزيرتها الرملية وآثارها المهدمة وبيوتها الخالية . لم نسمع صدى صياح يأتينا على الامواج من بحّار ، ولا سمعنا اصواتاً من السوق المكتظة او من مقاصير الترف والبذخ ...

بعين البصيرة ، شاهدتُ قصور صور ذوات القبب ،
وخزائن بضائعها البهية الباهرة .
شاهدت الحجارة الكريمة ، والعطور ،
والصبيّة التي تغني وقد زينت بالزهر آلتها الموسيقية ،

والرقيق الذي يستوجب جماله ثمناً لا يدفعه إلا الملوك .
من كل ارض تفد عليها جميع الامم ،
ويفد الملوك عليها سفراء .

•

ثم نظرتُ مرة اخرى فابصرت شاطئاً موحشاً ،
وصخراً في الماء ، وقفراً
من رمال قاحلة ، وسمعت البحار السوداء تعجّ عجيجاً ،
والرياح تعصف وتسكن في استعجال مخيف .
وما ثمة إلا شجرة واحدة ، ممزقة ، شوهتها الريح الزعزع ،
وطفقت تحوّم حولها طيور البحر صارخة زاعقة .
انقضت لحظة ، واذا بمسافر مقبل بطيء الخطو .
تلفت يمنة ، فيسرة ، بعين مستطلعة ،
فكأنه واقع في شك اوقعه في حيرة .
واذن ، فهذه كانت صور ! قال الرجل : يا للانهيار ،
كيف اصبح طاغية يسيطر على قصورها !
امس كانت هذه المدينة قائمة على جزرها ،
تتحدّى الدمار والبلاء ، بكبرياء من بأسها وجمالها .
سفنها مطليّة الحيازيم بالذهب ، وأشرعتها حريرية .
فيا لتلك السفن الانيقة الباسلة ! أي شيء يستطيع لها صموداً ؟
لكن الدمار والسكون تلاقيا في رحاب صور ،
وقعد صياد السمك على صخرة مدينتها ينشر شبكته .

للشاعر : هاوت .

بقايا مرفأ صور

جميع ما تبقى الى اليوم ، من صور القديمة ، عبارة عن سور المرفأ القديم ، وهذا مشهد منه مطل جهة اليابسة . اما الجسر الذي بناه الاسكندر فمدفون الآن تحت ركام من الرمل . مكان هذا الجسر الى يمين ووراءه بقايا قناة ماء ضخمة ، لكنها غير جيدة البناء . ثم الى ابعد ، تبدو اكمة يتوجها مسجد .

كان صيادو السمك ساعتئذ يجرون شباكهم فوق الجدران القديمة . فكأن ذلك مصداق صريح للنبوءة القائلة : « هدماً سيهدمون ابراج صور ويجعلونها كصلعة الصخر ، فتصبح المدينة محلة تلقى منها الشباك في البحر . حقاً انهم سيطرحون بمنازلك الراغدة وحجارتك وخشبك في العباب . ولسوف تخرس قيثاثيرك فلا يسمع لها صوت . »

كان هذا المشهد ، في مثل هذه الساعة ، شيئاً يعيه الانسان ، فيتذكره في توالي الايام ويغتبط له . الوقت ظهيرة . لكن الحرارة تلطفها نسمة ناعمة ينفخ بها البحر في وجوهنا . والجو براء من هذه المسحات القاتمة الرقيقة التي تشوب صفاء الافق في مثل تلك الساعة من النهار . وهذا لبنان ، الى الجهة

اليمين ، يتجلى سافراً ، مغطياً على المشهد كله ، حتى ليبدو صدره وأوجه ، مع هذا الصحو النقي ، البديع ، في متناول اليد اذا امتدت طالته . وكانت بضعة من زوارق صور راسية الى جانب الانقاض ، تصل الينا اصوات بحارتها ، بين الحين والحين في هذه العزلة الموحشة ، كأنها قادمة من سحيق الماضي . وذلك هو نصيب صور في النبوءات : نصيب « المدينة الشهيرة التي كانت قوية في البحر . سيطلبونك فلا يجدونك البتة بعد اليوم ، هكذا يقول الرب . »

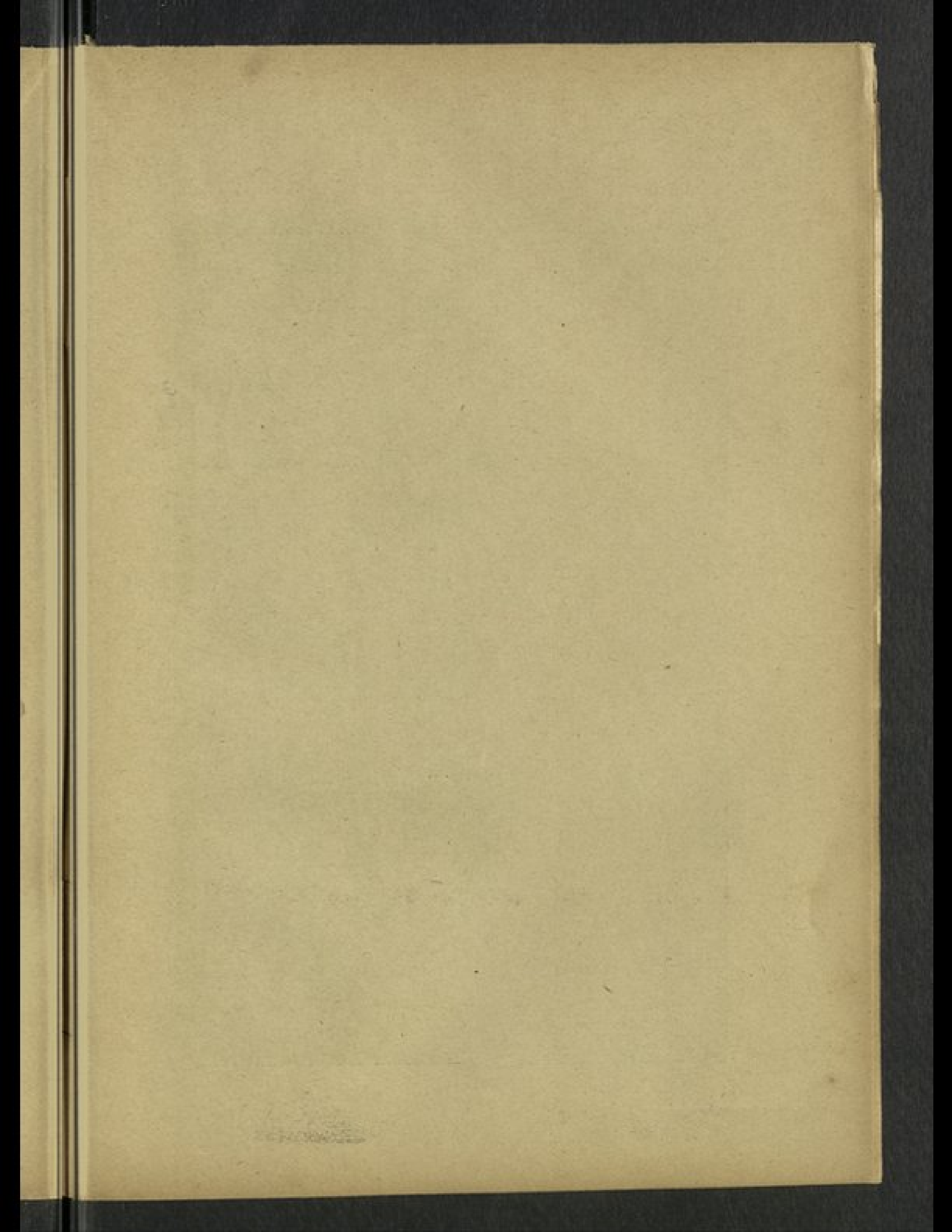
تشتمل مدينة صور المعاصرة على جملة من مباني حجرية جيدة . ويبلغ عدد سكانها ألفين . وموقعها على طرف شبه جزيرة رملية ، تمتد على بعد ميل ، او نحو ميل ، من خط الشاطىء الرئيسي . وعرض برزخ صور بمقدار الثلث من طوله ، تتسع رقعة طرفه الخارجي حيث تقوم المدينة نفسها . ويظهر ان شبه الجزيرة الرملية هذه انما كان في الماضي جزيرة تامة ، تمتد من طرفها الشمالي الشرقي سلسلة من انقاض مباني سالفة لطمتها امواج البحر حتى قوضتها تقويضا .

حول صور بقايا كثيرة من اسوار ، وانقاض موفورة من ابراج . وقد رأيت برجاً خارج المدينة تبلغ قاعدته نحو خمسين قدماً مربعة ، ولا يقلّ ارتفاعه عن هذا العلوّ ، وفي رأسه قبة يوصل اليها درج صاعد . على ان هذه الآثار لا يمكن ارجاعها الى حقبة صور القديمة . ومع ذلك فهي اقدم جداً من المدينة الحالية التي يبدو انها حديثة عهد .

وفي صور جامع وسوق وثلاث كنائس بائسة . وقلّ ان يجد



بقايا مرفأ صور



السائح ، مع ما اصبح في المدينة اليوم من وسائل ، سبباً للافكار والتصورات المستوحشة . ان في بيوتها وسائط للراحة ، وعند اهلها مودة ولطف . فليس يضطر السائح الى السكنى في اعشاش البوم او منازل الحيّات المجنحة . وليس يرغم على الاصغاء الى المخلوق الخرافي الذي نصفه انسان ونصفه ماعز ، منادياً رفيقه . فلا تزال في صور غرف هانئـــة ، ووجوه واصوات حلوة . وهواء صور صحي جاف بنوع خاص . وساعة يخرج الغريب من ابوابها ، فعليه ان ينتظر مصادفة منازل كثيرة يضطر الى نزولها برغم انها اشد تكديراً وإزعاجاً من منازل صور . ولا حاجة بالغريب ان يزحمه الوقت في هذه المدينة . لا بأس عليه ان يتلكأ داخل أسوارها جملة ايام . فشدّ ما تعوّد السائحون ان يلقوا عليها نظرة خاطفة ثم يعبروا الى صيدا . لكن كاتب هذه السطور ابى إلا ان يعود مرة اخرى الى صور . كنت اؤثر قحطهـــا على جنائن صيدا وخصبها . وكنت استشعر في الدخول اليها ما يستشعره المسافر لدى قدومه على محطة قديمة للقوافل يحب اهلها المنفردون « ظلال الصخور في ارض شاقة » ، وكثير منهم يرقدون على اقدام هذه الصخور وان لم يعوا ... صادفت يومئـذ - يوم رجوعي - ليلة رقيقة بهية . وقلّ ان سبق للغسق ان كان وجيزاً كشأنه في هذه الليلة . والغسق - على ما يقال - شديد القصر في الشرق . لقد شاهدته ليلتئذ كأنما ينام نوماً على البحر وعلى الجبال الى يسار . وكانت رحلة النهار قد طالت علينا ، فلم يبتهج « كريستشين » في سياحته لباب الترجمان الذي انفتح له بأشد مما ابتهجنـا نحن لباب صور اذ دنونا منه على الرمـــل المدرذر . وسمعنا البحر

يزحف على الشاطىء بصوت خافت ، بينا الاسواق غارقة في الصمت كأن الناس مرة اخرى اصابهم الفناء ، والشارع الرئيسي مقفل كله . لم نلق بشراً إلا من مرّ بنـــا من بعض نسوة صوريّات وكاهن ارمني ، وإلا جماعة صغيرة من الباعة ، وصيادي السمك قعدوا كسالى يتمتعون بطيب الليلة .

وتخلو صور من المتارف والألاهي الشرقية . فيها حمام واحد من ابسط صنف . وليس فيها « حكواتي » يزيد في المتعة لدى تدخين التبغ وشرب القهوة . وتعدم هذه المدينة عيون الماء ، ومحطات القوافل للغرباء . فعلى الوافد الغريب ، اذن ، ان يتكل على ضيافة اسرة من الاسر ، وما اظنه يخيب .

وباب صور الذي يجتازه المسافر قـــد نبتت عليه ، فغطته ، كرمةٌ بديعة فارعة هي كاليقطينة التي صلّى النبي في ظلّها لمّا قرعت الشمس رأسه . يبدو منظر هذه الكرمة جميلاً جداً بازاء شبه الجزيرة الرملية التي تنطرح خالية من الورق وكل اثر للخضرة . ان هذه الكرمة لتظلل الجدار وعتبة الباب كأن البهجة ما تزال في داخل المدينة ، وكأن بوسع صور ان تعيد القول : « هاكم قصوري وجناتي . إنني كاملة الجمال . »

قصر عند جون

يقع هذا المشهد في الجوار القريب جداً من مقرّ اللايدي استير استنهوب . ويعبر تعبيراً جلياً بديعاً عن طبيعة المنطقة التي اختارت ان تجعل فيها مقامها . واحرِ بالمسز رادكليف ان تنتقي موضعاً كهذا مسرحاً لاحدى رواياتها الغرامية ، لولا انه تعوزه وحشة الغابات المظلمة والخلوات الرائعة التي تحرك النفس . هنا الراعي وقطيعه ، والكاهن الملتحي يجهد في تسلق الاكمة . هنا الشلاّل والوهدة العميقة ، والجلامد الناتئة ، والقمم الملفعة بالضباب . لكن ، ليس المكان مع ذلك بمباءة للوحي والالهام ، او للغناء وفروسية العهود الاقطاعية . فمن ذا الذي لا يشعر بشعور رجل قضي عليه بالنفي ، وهو فوق هذه الاعالي او في هذه الاودية الشبيهة بالحبوس ؟

كنا قد خلّفنا وراءنا صيدا وجنائنها ومزارعها . واجتزنا آخر اثر للخضرة المشرقة . فليس امامنا إلا بعض أديرة موزعة هنا وهناك على الشعاف ، تلطّف ما في الجوار من وحشة تعصر القلب . لقد استأنسنا جداً حتى بمنظر جدران هذه الاديرة وكواها الصغيرة .

ثم طفقت تتجلى لنا — كلما تقدمنا في طريقنا — قرى قائمة على مرتفعات معلقة تعليقاً ، والى جانبها حدائق صغيرة جميلة .

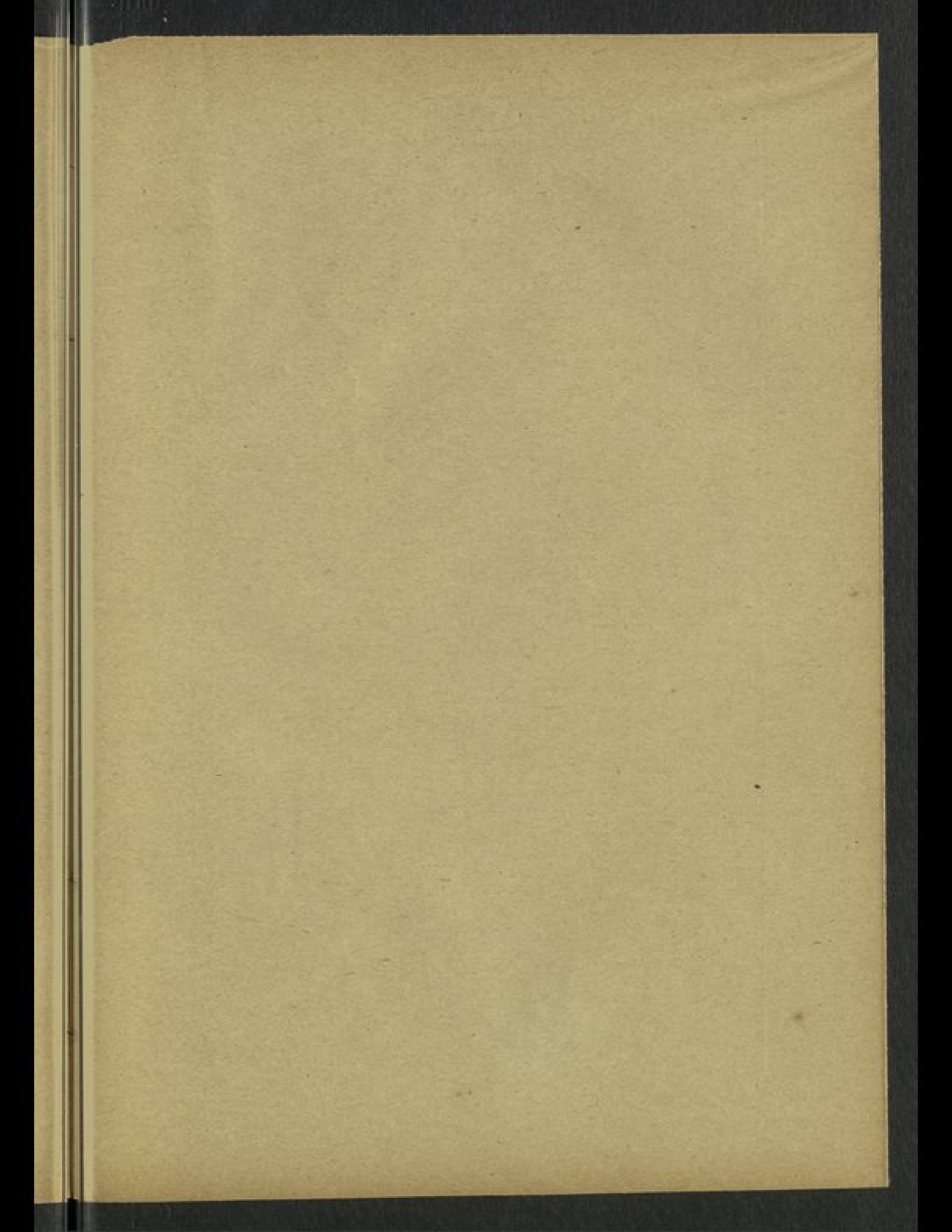
اما هذا القصر الذي تستحيل مشاهدته في وضوح قبل ان يشق الزائر له طريقاً عبر وهدات مستعصية ، فيُفرض انه من بناء الدروز . وصعب على المرء ان يتصوّر موقعاً لبناء قصر يكون اشد جمالاً وحشياً من هذا الموقع . تتسلق مرتفعاً مسنّناً على منكب وادٍ عميق ، يتعرّج مظلماً بين أكماتٍ صخرية جرداء محيطة به من الجانبين ، فيتاح لك عندئذ ان تطرح البصر على بقايا قصر لا تأهله إلا وحوش قانصة تلتمس فيه المأوى .

ان السبيل الى هذا الموقع لشديد الوعورة والتعقيد بحيث لا يعرجّ المسافر ، ولا البدوي ، على غرف هذا القصر للمبيت ولو ليلة واحدة . ما ابعد هذا الموقع عن ان يكون مباءة لاحد الفرسان المنسيين او لانغام القيثار الشاردة . احرِ به ان يكون مسكناً للغول او العفريت ، او لذلك العرّاف الساحر الذي اصبح لمدة مديدة مستشار «سيدة جون» الخاص . وكأن الجبال الباذخة تتدلى تدلياً ، من كل جانب ، حول هذا القصر الخراب المشيد فوق صخرة مطوقة بمجرى سيل شتوي عجّاج يتراءى خلال الغابات التي تتاخم ضفتيه .

ولقد افلح الرسام في تصوير هذا المشهد ، وسائر المشاهد حول لبنان ، بما يدعو الى الاعجاب من براعة وأمانة ... غادر هذه البقعة متجهاً الى احد الاديرة ، برغم ان امامه صعوداً جبلياً هائلاً لا اثر فيه لطريق او لخطى عابر سابق . ويقطن هذا الدير موارنة كانوا ، وبضع نساء ، منهمكين في حل الحرير ، في بناء



قصر عند جون



منفصل . فما دخل الدير حتى جيء اليه بالقهوة والمرطبات . ثم اطلعوه على الكنيسة ، لكن لم يطلعوه على الجميلات المختبئات اللواتي كن يشرفن من خلال الستائر . ذلك بان كثيراً من الراهبات يجاورن الدير . ولم يبد في سيماء هؤلاء الرهابين الموارنة ، او في حياتهم ، ما يدل على السآمة والوحشة . كل شيء في مظهرهم نمّ على انهم جماعة مرح ، لا قشف او شظف .

غير ان اسقف الدير الآخر – في الجوار نفسه – كان امرءاً من معدن اسمى وانقى . وبدا رهبانه على جانب عظيم من الهدوء والخشوع ، إلا انهم لم يكونوا قريبين من القلب كأولئك الرهبان الذين زارهم الرسام من قبل ... وسرعان ما اقتادوا الزائر الى حجرة اسقفهم . فوجده شيخاً مهيباً نيّف على الثمانين ، عميق الاثر في النفس الى ابعد الحدود . شاحب محياه شحوب المرمر ، وناطق بالطيبة اللامتناهية وبالعطف على البلاء والضعف البشريين . لا تخلو قسماته من كآبة ايضاً تزيد في جاذبية طلعته ، وندرت الكآبة في سيماء امثاله من الشيوخ الطاعنين في السن . وربما تلألأ في عينيه بريق هنيهة كأنه دلالة على العالم الآخر الذي يقترب منه في اسراع . شدّ ما كان هذا الشيخ يذكّر بالقديس جيروم الدومينيكاني ! ولم يلبث زائره ان قال له : « إنك لمسنّ ايها الاب المحترم ! » فأجابه : « نعم ، وسأمضي دونما إبطاء . إنني على أهبة . »

ومما ابهج الزائر ان يرى العطف الذي كان هذا الشيخ يرعى به الاخوة الصغار .

ثم استأذن الرسام في الانصراف من لدن الاسقف . فاقتاده

الرهبان عبر الكنيسة والمقاصير الكثيرة في الدير . ولم يتمالكوا ان يبدوا له زهوهم بالزخارف الرخيصة التي تحلي البناء المقدس . وفي غرفة الطعام دلوه على جمجمة بشرية معروضة على المائدة .

ثم افضى الطواف بالزائر الى بناء منفصل اقام فيه الرهبان مدرسة وانصرفوا الى العناية بشؤونها . فالكسل بعيد عن هؤلاء الجماعة . وهم في العادة يشتغلون بزراعة الكرمة والزيتون والتوت ، ولا سيما الحرير .

ولقد كانت ضيافة هذا الدير بركة ونعمة في ليلة كالليلة السابقة . ذلك بان الرسام شرد في الظلمة خلال الاودية ، وبجهد ما استطاع الوصول الى كتف هوّة عميقة طالع منها انواراً تلتمع في قرية قريبة . فمشى على الطريق المضاءة بشعاع القمر حتى اتى سياجاً اخترقه ، فاذا به يجد نفسه امام جماعة من النصارى الموارنة قعدوا في ضوء قنديل على مصطبة من طين امام منزلهم . فرحّبوا به ترحيباً مؤنساً . وانبرت صبيّة وسيمة سوداء الحدقة ، فأتته بطاسة من حليب سخن .

كان هندامها انيقاً جميلا ، يميزه عدد من النقود والحلى الذهبية جدلت مع شعرها وأرسلت ارسالاً على جانبي وجهها . وتلك عادة تعتبر في تقاليد العائلة . وبرغم ان اهل البيت كانوا فلاحين بسطاء ، فلم يكن ليعوزهم في سلوكهم وقار طبيعيّ غير متكلّف . وسرعان ما اخلوا المصطبة للضيف ، فبسط عليها عباءته بمأمن من كل إزعاج او تكدير . وطفقت تأتيه النسمات باردة منعشة من القمم المجاورة . فالتمس لنفسه شيئاً من رقاد . لكن مضجعه كان يسير الحظ من الانس والدعة ، فلم يستطع ان يستدرج الكرى الى عينيه .

زرافة ١

او سربتا القديمة

أهمية هذه القرية محض توراتيّة . تقع على جانب من هضبة تبعد مسافة ساعتين ونصف ساعة من صيدا ، وحوالى نصف ساعة من البحر . وهي تشرف من ناحيتهـا على منفسح من سهل ، محروث حرثاً صالحاً ، ينتهي شمالاً عند صور ويميناً عند صيدا .

لهذا الموقع جمال فضائي طلق . وكل مسيحيّ يودّ ان يقضي يوماً وسط المشاهد التوراتية الخالدة ، على الآكام التي نزلهـا الانبياء ، او في الاودية التي حلوا فيها واغرقوا في تأملاتهم ، انما يجب عليه ان ينفق سبتاً في سربتا .

يمتد الوادي ، الذي تطل عليه هـذه القرية ، بعض مسافة بين الهضبات . ومساكن القرية وسكانها اهل أنس وفلاحة . وليس فيها خرائب ، او جدران شاخصة بلا سقف ، او ابواب شائخة غطّاها العشب والزهر البريّ ، فبقيت ماثلة كأنها اثر كوخ لأرملة .

لقد انسلخ عن سربتا ماضيهـا العريق ، يائساً من البقـاء على الدهر . لكن هويّة القرية نفسها ظلت محفوظة . فسربتـا ، التي يقال لها اليوم زرافة ، كانت مأهولة منذ اقـدم العصور . وبرغم

١ ليس في جنوب لبنان اليوم قرية بهذا الاسم . لكننا استنتجنا ان المؤلف يعني : صريفا . — المعرب .

انها كانت تعتبر « مدينة صيدونية » ، فأكبر الظن انها لم تكن في يوم سوى موضع معتدل الحجم ، داني المساحة ، عجز جوار صور وصيدا عن ان يفسد اخلاق اهلها وأذواقهم . ولا تبعد صور عنها إلا ستة عشر ميلاً ، ولا تبعد صيدا إلا عشرة اميال . ومن سربتا ، تبدو لعين المطالع جميع جنائن صيدا وقمم لبنان البديعة والآكام البريّة وراء الاكمة نفسها التي تقوم عليها القرية .

تخلو سربتا من كنيسة ، ومن كل اثر للخدمة الدينية على مدار السنة . فكأن الاديرة الموفورة في لبنان لا تستطيع استغناء عن كاهن واحد ترسله من صوامعها ليقيم في هذه القرية ، او ليجمع اهلها المسيحيين السريان ، في قداس ، كل احد .

لعلّ الساقية التي كانت قديماً تزوّد النبي والارملة بالماء ، لا تزال تنبجس من خاصرة الاكمة . ذلك بان « المياه العذبة الجارية التي تنفجر من صخرة الحقل » ليست نزرة قليلة في سربتا . ولكل كوخ كوتان ، او ثلاث على الاكثر ، وحجرتان ارضهما من تراب مدلوك ، وديوان لصق الجدار مرفوع من طين . ويُرحب بالزائر الغريب في هذه الاكواخ ترحيباً مؤنساً ، ويوضع امامه خير ما يتيسر لاهل البيت تقديمه من طعام . لكن الزائر قلّ ان يحتاج ، في مثل هذا الموقف ، إلا الى قصبة تدخين وفنجان قهوة وفراغ وقت يطوّف فيه ابصاره خلال ساعات ، فيرى الشمس تنحدر الى الشاطىء فالبحر ، تجر شعاعها على القفار والجنائن ، على لبنان والجبل النبيل : جبل الشيخ الذي تواجه ثلوجه العين وتتسامى قمته نصب دمشق .

وهواء سربتا صحي ، لكن رياحها عاصفة عنيفة في الشتاء .

والسهول حولها ، وحتى صدور التلال ، ملأى بالمراعي للقطعان .

ويعثر الزائر في سفوح الاكمات على اضرحة منحوتة في الصخر وربما كانت هي مدافن الاقدمين .

يوم جال كاتب هذه السطور في جوار سربتا ، وجد ساقية السهل ، التي يروي الخبر القديم ان النبي شرب منها ، جافة منقطعة كأنها وادي ايله الذي التقط منه داود حجارة لمقلاعه . لم يكن في مجرى الساقية اثر من رطوبة . وبين اشياء عثرتُ عليها هنا ، قطع من انقاض الخرائب ، وجدت مثلها في السهل ايضاً حيث كان يقوم شطر من سربتا القديمة .

كان الوقت ساعتئذ ظهراً ، فالبحر يزحف متثاقلاً على الشاطىء الموحش ، ولا ظل فوق التلال لسحابة عابرة . لكن في منزل فقير ، على مقربة من البحر ، كان قوم يبيعون القهوة . فخرج الينا عربي يدعونا الى شربها .

ولحظنا على رؤوس الهضاب وجوانبها كتلاً من الصخر الاشيب ، وراعياً يسهر على قطيعه ، وينفخ في شبابته اللبنانية . وذلك مشهد ربما تاق المرسل الذي يلبي دعوة السماء ان ينقطع اليه . فلشد ما كان طريفاً بهجاً تشرّد اشخاص التوراة القديسين العظام في الارض : سهلها وصحرائها ، واديها وجبلها ، حيث لا صلة لهم إلا بالحضرة الالهية والحب الرباني ! ان عزلة ايليا في الوادي القاتم ، وراء الكرمل ، كانت اعمق وحشة من العزلة في سربتا . ومع ذلك ، فكانت عزلته تلك عزيزة عليه ، ثابتة الاثر ، لا تمحى .

اما هذا العربيّ المسكين ، الذي عرض علينا شراء القهوة ، فلم

يكن بوسعه ان يتّكل إلا على طارق يأتيه بالمصادفة ، فقليل الزائر المتحمس الذي يعرّج على بابه . واقل من قليل المواطن الذي يحنّ فؤاده الى زيارة الآثار الباقية من عصور اقدم واقدس . حتى السائح الحاج ندر ان يلمّ بهذا الموضع . من تراه في البلاد يكترث للصخور البرشاء وخرائب سربتا ؟ من تراه يقف الى جانب الساقية المنسبّة او يعلّق شبّابته على صفصافتها ؟

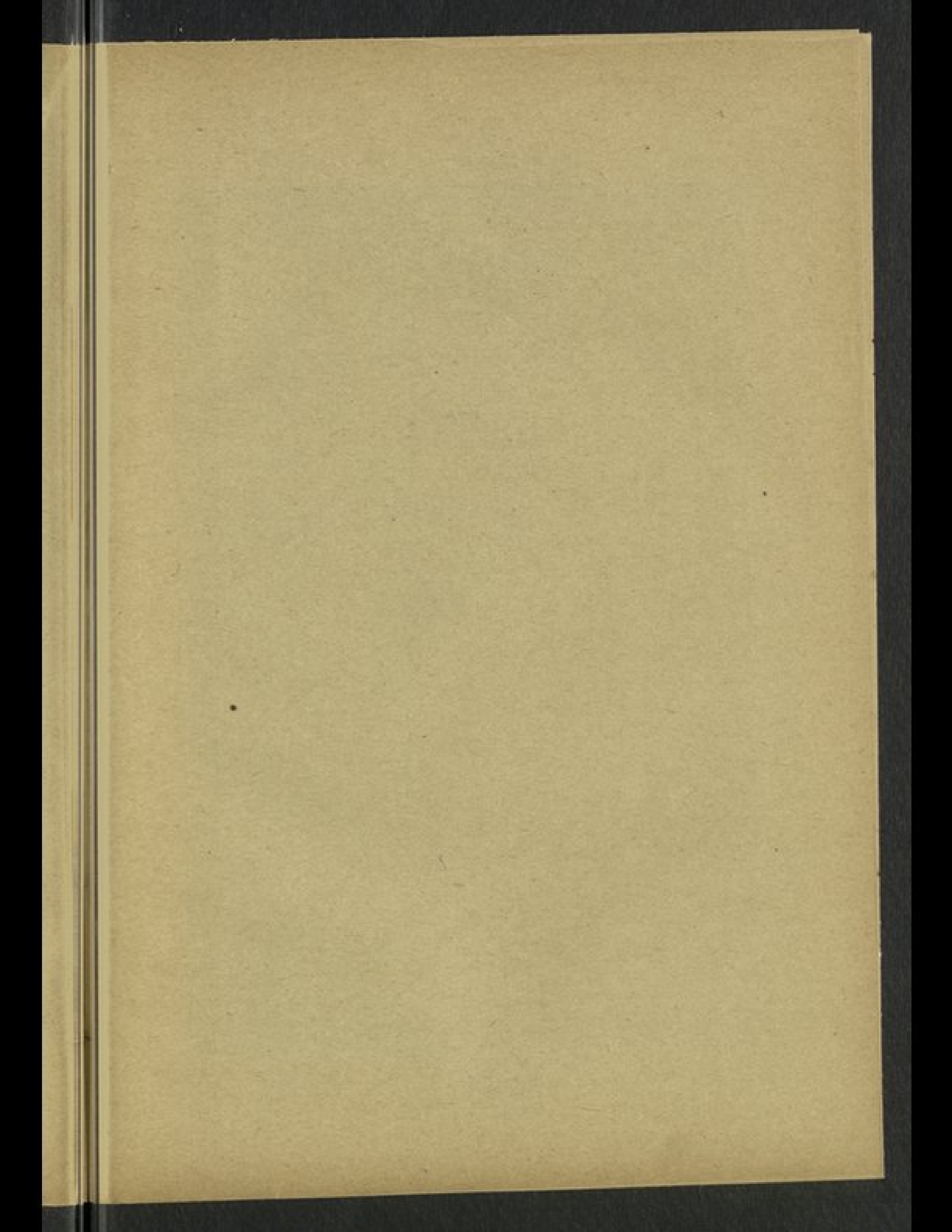
وهؤلاء الناس في السهل ، الى اسفل ، إنما يجمعون القطن من البساتين التي يعمل عليها بالاجرة كثير من القرويين .

كانت سربتا ، في زمن سابق ، مشهورة بجودة خمورها والكروم التي كانت – لا شك – تغطي منحدر الهضبة حيث تقوم القرية الحالية ... ان الهضبات الدانية من صيدا تصبح اوفر ثمراً وتكتسي اكتساء بالدوالي . لكن ما من احد في سربتا الآن يجلس في ظل عريشته او تينته . ومع ذلك فليست حالة اهلها بحالة إملاق . فالتربة – حيث تحرث حرثاً صالحاً – هي على العادة مثمرة ، تكافىء اليد العاملة مكافأة طيبة . وحاجات الاهلين يسيرة ، وعاداتهم قشفة . وزراعة الكرمة والقطن ، وتربية دود الحرير والمواشي ، تشغل منهم عدداً عديداً . اما الخضر من مختلف الانواع فزراعتها سهلة سريعة . ويكفي اليقطين والبصل والزيتون وشيء من الارز ، طعاماً يومياً مغذياً . والخمرة من الصنف العاديّ رخيصة الثمن . يبقى شيء من لحم ودهن ولبن وبيض ، يستطيع اهل سربتا ان يتناولوه .

ان شأن الناس هنا شأنهم في العصور القديمة ، يؤثرون السكنى في التلال على الاودية . ولذلك كانت مواقع اكثر القرى على



زرافة او سربتا القديمة



منحدرات الآكام . والسهل بين صور وصيدا عراء طلق ، لكنه لا يكون ابداً رتيباً مملاً . والمشاهدة فيه الى بعيد جلية دائماً . وما اكثر مجاري السيول والجداول الجافة التي تخترق هذا السهل ، فتنبت على ضفافها وفرة من الازهار البرية والدفلى المفتحة المبهجة !

منظر وخان على نهر الليطاني

في ناحية جب جنين

هنا مشهد في الطريق بين دمشق ودير القمر ... تجتاز الطريق هنا جسراً طويلاً على نهر الليطاني : النهر الذي ينبع على بعض مسافة فوق بعلبك ويجري عبر خرائبها ... ليس سهل بعلبك ، في العادة ، محروثاً حراثة طيبة ، لكن اثر نشاط اليد العاملة يبدو عليه في هذه البقعة باقوى مما يبدو في سواها . ويتجلى في الرسم الزيّ الفلاحي ، والثور يجر النورج لدراسة القمح . وتظهر بضع نساء درزيات وعلى رأسهن الطنطور الذي يتهدل منه الحجاب .

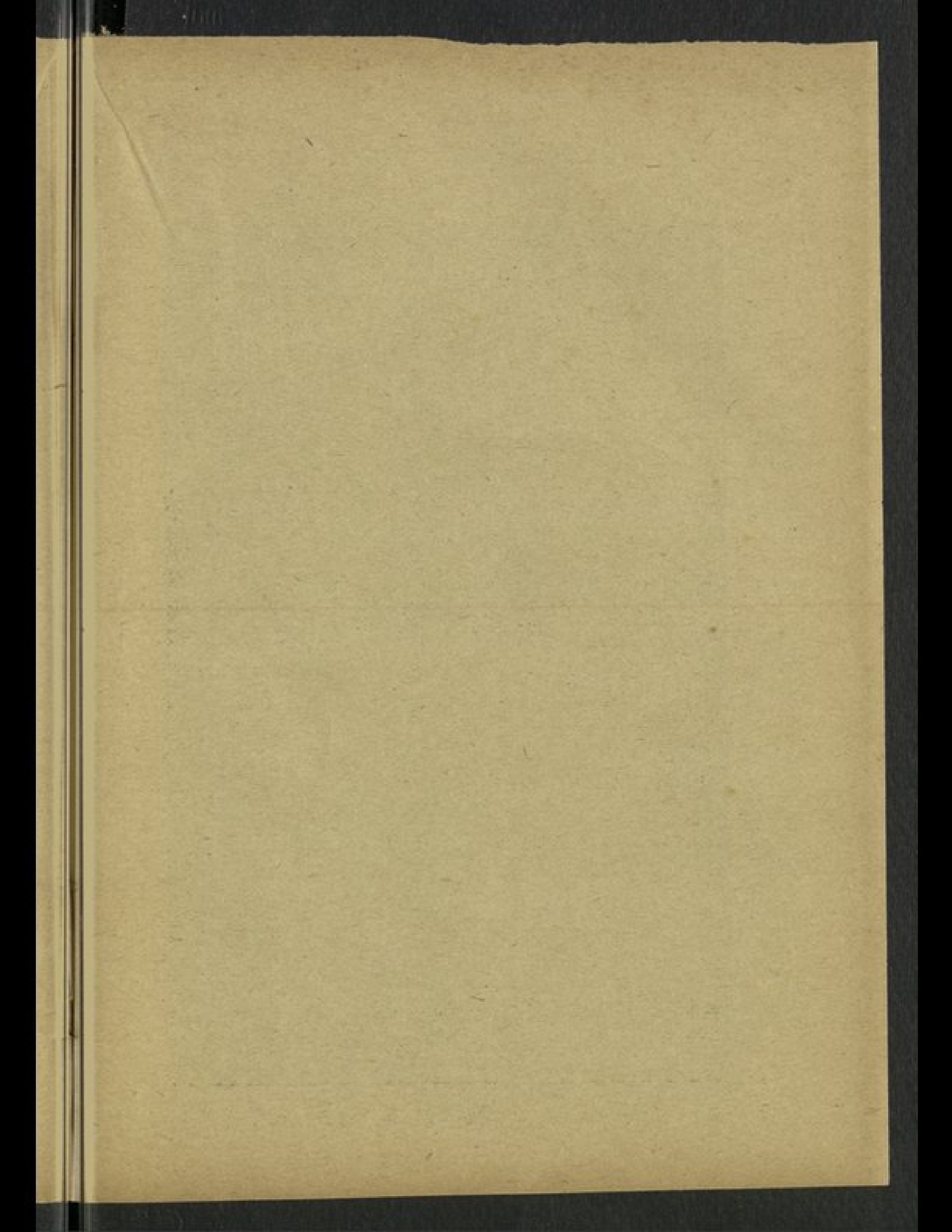
اما البناء على الهضبة ، الى يمين ، فهو خان كبير ، يغصّ عادة بالوافدين ، لان حركة الانتقال على هذه الطريق بين إقليم الدروز ودمشق حركة ناشطة على استمرار . ولا تبعد المسافة جداً بين هذا الموقع وقاعدة جبل لبنان ، في حيث تمتد طريق جاهدة شطر الباروك .

والحق ان نهر الليطاني يضيف جمالاً عظيماً الى خرائب بعلبك التي يجري خلالها [١] ...

[١] اثرنا الوقفة عند هذا الحد في ترجمة هذا الفصل ، لان سائره بحث تاريخي – توراتي ، لا يدخل في صلب موضوعنا . – المعرب .



منظر وخان على الليطاني



مرفأ بيروت

شدّ ما كان رجوعنا من بعلبك الى بيروت [١] مبهجاً لنا ، شد ما أنسنا ساعة اشرفنا لاول مرة ، من القمم الجرداء البعيدة ، على بساتين المدينة وحدائقها ، على شواطئها المشرقة وخليجها المتلألىء ، على منحدراتها وسهولها الخضراء النابضة بالحياة !

كانت غيبتنا قد طالت ، فتذكرنا الآن تلك الساعات السعيدة التي قضيناها تحت سقوفها وفي مسالكها المتوحدة الى الوادي والنهر ، الى منحدرات لبنان ودساكره . ذلك بان بيروت كانت الموضع الوحيد الذي أقمنا فيه دونما ضجر او شعور بالسأم . اما دمشق فقد كفتنا ، بل اتخمتنا ، بضعة اسابيع فيها . لكن لم نلبث ان قفلنا الى بيروت وما في جوارها من جواذب شتى هادئة : بساتين زيتون ومعابر خضراء اشبه بالمعابر الانكليزية . وللمرة الثانية لقينا التأهيل واللطف اللذين ظفرنا بهما يوم ان وصلنا غرباء الى البلد ... فيا ايتها الصداقة ومجالس الانس ومشاعر العطف وخطرات التفاهم ، اية هالة من سحر تحيط بك في مجالي

١ رأينا ان نجعل آخر هذه الرحلة اللبنانية ، كأولها ، فصلاً في بيروت ، ثم ننتقل الى استلحاق الفصول التي وعدنا بها في المقدمة . — المعرب .

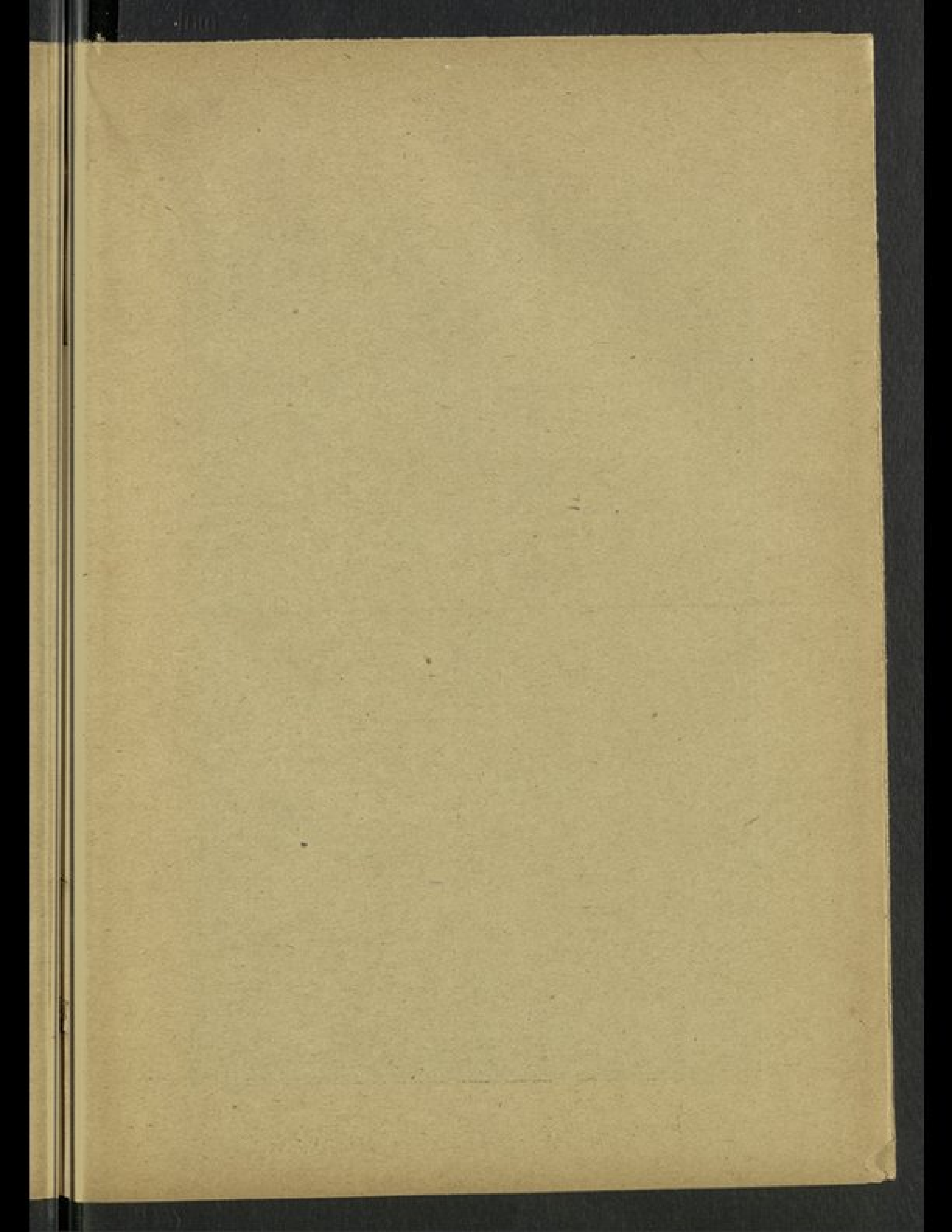
الشرق ! وكأن الروح بعد اذ تمتد لتتملأ من مشهد لوحـــات الطبيعـــة والآثار ، تعود فتنطوي في صاحبها انطواءً للراحـة والطمأنينة ! فالسائح يعيش ، اول امره ، في المباهج والخوالج التي يصادفها في طريقه . غير انه ، غب شهور يقضيها في المدن والبوادي والخيام حيث لا ينظر اليه احد إلا النظرة الى مخلوق طاريء عابر ، وحيث لا يكترث له احـد ، لا يلبث ان يشعر بوحشة تزحف على قلبه . عندئذ يلوح له الوجـه الذي يعرفه . وتظهر له لغة الاهتمام به والعطف عليه اشبه بـ « ينبوع الماء في الارض العطشى . » كذلك تؤنسه اجراس الاحد والترانيم الصاعدة الى السماء وكلمات الحق والحياة التي تبدو كأنها اصوات فقدت منذ اجل بعيد[١] .

أخذ المشهد الذي تراه في هذا الرسم من مكان الى جنوب المدينة بعض الشيء . وفيه يتجلى القصران القديمان واحدهما خلف الآخر . ثم ، على الهضبة الصغيرة الى وراء ، يتجلى برج قديم يقال انه قريب من الحقل الذي ذبح فيه القديس جاورجيوس التنّين . وفي مؤخرة الرسم ، ترتفع اولى سلاسل الجبال اللبنانية تكسوها الاحراج ومزارع التوت وتنتثر على منحدراتها الاديرة . اما الى يســار ، على نحو ثلثي الطريق ، فتقع فجوة وادي نهر الكلب . ويبرز هذا الجبل المربّع القمّة ، المكلل ثلجاً ، بروزاً يميزه من الجوار كله . والذرى التي تمتد الى يساره هي ذرى كسروان . ويبلغ أعلى أوج في لبنان ، على ما قاسه الكولونيل « تشسني »

١ وهذا ايضاً من نزعة المؤلف التبشيرية . ـ المعرب .



مرفأ بيروت



اذ هو في بيروت ، تسعة آلاف وثلاثمـــائة قدم . ويبلغ علو طوروس عشرة آلاف قدم ، وجبل كاسيوس سبعة آلاف .

يتألف رصيف مرفأ بيروت ، في بعض اجزائـه ، من اعمدة غرانيتية قديمـة . ويخرج عدد كبير من الناس الى الشاطىء لدى جَزْر الموج . والى يمين ، بازاء الماء ، تقوم جملة من مباني القنصليات الاجنبية . إن بيروت هي مركز تجارة الدورز والموارنة ، اليها يصدّرون قطنهم وحريرهم ، فيأخذون عوضه الارز والتبغ والنقود ، ثم بهذه يشترون القمح من سهول البقاع وحوران . ولا شك ان الحرير الخام اهم مادة تجارية ، تتعاطاها بيروت ، تأتي بعدها مواد القطن والزيتون والتين . وهي كلها تصدّر الى القاهرة ودمشق وحلب . وما زال النشاط التجاري في بيروت يزداد يوماً بعد يوم .

لعلّ ميناء بيروت افضل الموانىء على طول الشاطىء ، يؤمن الرسو فيه الى حد بعيد . وقد بدرت في الآونـة الاخيرة بوادر من حركة جديـدة ، أغرت بعض اصحاب المناسج في اوروبا ان يتموا لانشاء الاعمال والمتاجر في هذه البقعة . فأقدم تجار كثر على النزول في المدينـة ، وهم فيها يعيشون عيشة بذخ في منازل مريحة . ذلك بان المنازل التي ابتناها الاوروبيون مؤخراً جيـدة متينة ، بينا المنازل التي ابتناها الاهلون اقل مادة ، فهي ترشح شتاء وتدخلها الرياح ، لا يزيد سمك الجدار فيها على حجر واحد رملي يمتص الرطوبة الى الداخل حيث لا تحول دونها إلا قشرة رقيقة من طين ان كان ثمة مثل هذه القشرة . فيتعرض الغريب في مثل هذا المنزل للحمى والبرداء[1] وداء المفاصل . وقد مكثنا اول الامر

[1] وتعرف في اللغة الدارجة بالبردية . — المعرب .

في بيت من هذه البيوت المبهجة ، لكنها قليلة وسائل الراحة .

كان في القاعة اربعة شبابيك تنفتح على مشاهد بديعة . فاذا اقبل الطقس الماطر العاصف ، عجز كانون الفحم المشعل عن بث دفء وراحة كافية في الغرف .

تفد السفن من مختلف الامم الاوروبية على بيروت دونما انقطاع . ويصل على ظهرها السيّاح الذين يجدون بيروت خير نقطة يبتدئون منها سياحتهم في الشرق . وهكذا أعان هؤلاء الوافدون من الاجانب على جعل الحلقات في القنصليات الاجنبية مؤنسة مسلية .

جوار بيروت غنيّ بالكروم ومزارع الزيتون والنخيل والبرتقال والليمون الحامض . ولا حصر لعدد اشجار التوت . ويبدو ان موارد هذه البلاد لم تنلها الايدي بتحسين ، ولم تظفر بتشجيع . إن مخابيء لبنان غنيّة بذخائر المعادن فهي تستحق ان يعنى بدراستها . وقد رأيت طبقات الارض المفتوتة عند البحر ، تكاد لا تخلو في موضع ما من صبغة تدل على انها مشربة املاحاً حديدية . ولا يندر ، هنا وهناك ، العثور على كتل مرصوصة من تبر الحديد . وعلى كثب من بيروت نماذج من الفحم المعدني . غير ان سعة الطبقات الفحمية ومدى عمقها ، في هذه المواقع ، شيء لم يُعيّن بعد . هذا ، وفي بقاع شتى من المناطق الجبلية اصناف تبر من معادن اخرى .

في طرف بيروت ، الى جهة صيدا ، مقبرة كبيرة تكاد تكون لاصقة بحاشية البحر . شد ما هي ممشى رائع يتمشى فيه المرء اذا هبط الظلام على اشجار السرو ، و « القبور الألف » والشوارع

والامواج التي توشك ان تضرب جوانب الاضرحة وتتكسر عليها .
ما اسرع ما يتكاثف تأثير هذا المشهد فيتركز على الافكار . إلا انه ليس بالتأثير القابض المظلم . فسحر الطبيعة محيط بالمكان كله حتى ليسبغ انساً وبهجة على « وادي ظل الموت » نفسه . فهنا الخليج من امام . وعلى الجانبين يبدو كالبحيرة من ذوب الذهب . وهناك لبنان - بمواقعه الجرداء وقراه البيضاء وأديرته المستوحدة - قد اتشح بحمرة الضوء المتلاشي . وها آخر شعاع يضمحل شيئاً فشيئاً من على غصن الارز والحور والنخل والصنوبر ... في مثل هذه الهنيهة يستحيل على وخزة الموت او رهبة القبر ان تروّع الافكار التي تتجنح فتطير الى عالم حي من الحسن والعذوبة : عالم هو رمز ضعيف (ان امكن ان يكون في ارضنا رمز) من ذلك العالم العلوي البهي حيث « يمسك الناس عن الموت » .

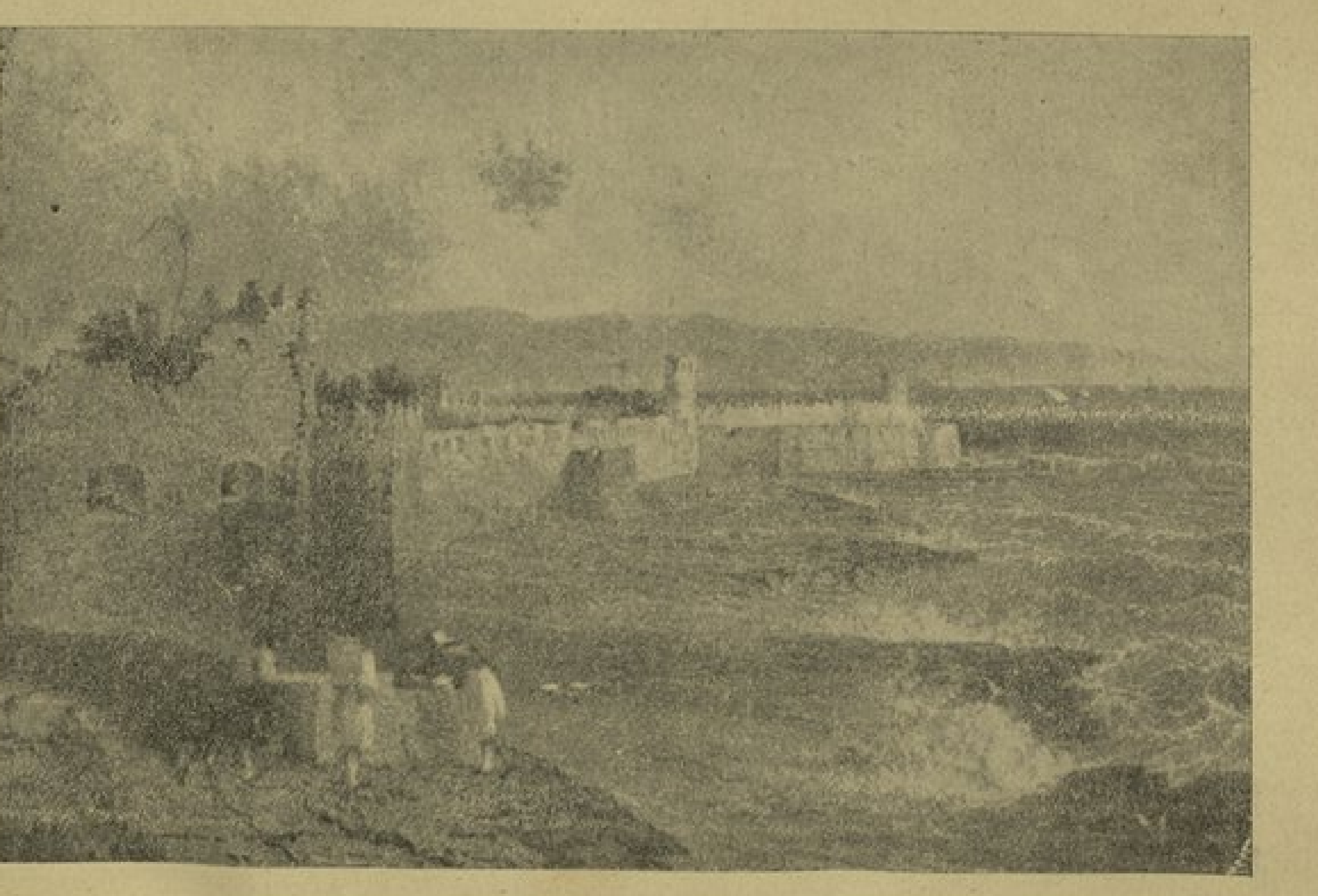
وقد اتيح لي ، في المقبرة ، ان اشهد الباكين على امواتهم ذاهبين آيبين افراداً وجماعات . واكثر ما رأيتهم افراداً اقبلوا ينوحون على انسبائهم الراحلين ، في ظل اشجار السرو ...

اسوار عكا لصق البحر

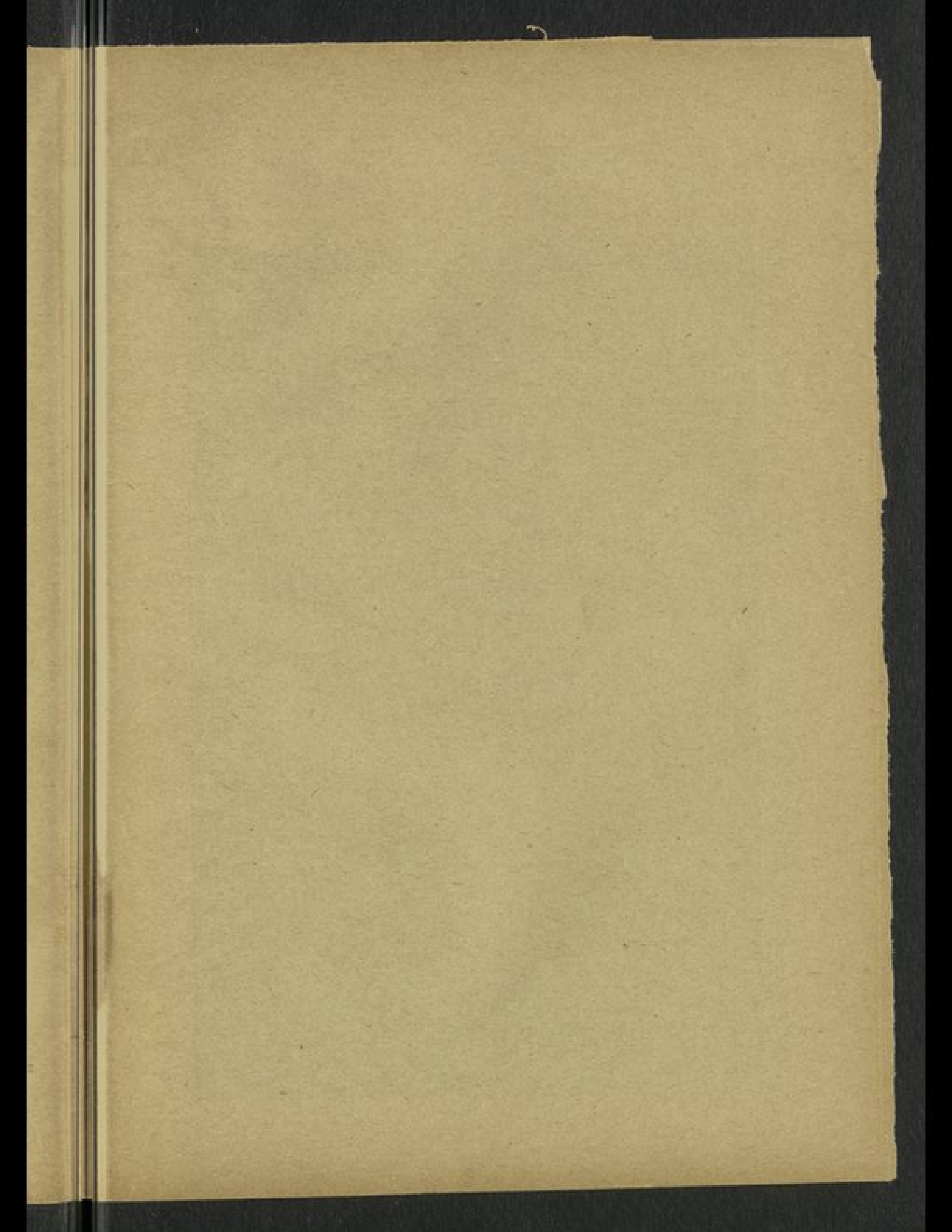
تبدو هذه الاسوار قائمة على قاعدة من صخر تؤلف سدّاً منيعاً في وجه البحر . وحتى في هذا الموقع ، تظهر عليها آثار الحصار المدمّر الذي ضربه ابراهيم باشا . لكن ليس هذا الجانب هو الوجه الذي هجم منه نابليون وابراهيم . فقد شن هذان القائدان هجومهما من جانب آخر الى جهة « باب الكرمل » الذي ينفتح على السهل – وهو السهل الذي عسكرت فيه القوات المصرية ستة اشهر . ذلك بان الوالي عبدالله استطاع ان يقيم دفاعاً في منتهى العناد . واكبر الظن ان ابراهيم كان ارتبك جداً امام هذه القلعة الصامدة ، لو ان الاتراك بذلوا أيسر جهد في نجدتها ، فدفعوا بطريق البحر – على نحو ما كان ميسوراً لهم – مدداً خفف على الحامية المنهوكة .

يستطيع الواقف عند هذه الزاوية من الاسوار ان يتناول ببصره مشهداً بديعاً ينبسط مدى شاطئ صور وسهل عكا الغنيّ المهمل . وفي البعيد ، يتراءى جبل الكرمل والخليج .

« اما ابراهيم » – يقول المستر اديسون في رحلته الاخيرة الى الشرق – « فرجل قصير القامة ، أميَل الى السمن ، كبير الهامة



اسوار عكا لصق البحر



خفيف الشاربين أشيبهما ، منقّط الوجه بالجدري . وجدته على جانب عظيم من البساطة والسذاجة في كل ما يحيط به . يرتدي سراويل على زيّ المماليك ، وصداراً مزرراً مشدوداً ، وبرداً محلولاً ، بسيطاً جداً دونما تطاريز او جواهر ، وعلى رأسه طربوش احمر . والظاهر ان سنه في نحو الاربعين ، له عينان نفاذتان جداً ، يغمضهما نصف اغماض ، ثم يرسل بهما في الغرفة نظراً مستطلعاً حاداً يقرأ به حتى صفحة النفس . ويلوح ان تجريده الدروز ، وسائر جبليي لبنان ، من السلاح إنما كان بادرة خطة مقصودة . فهذا مجرّد اميرهم الشهير : الامير بشير ، من كل قوة ، وقد كان باستطاعته – في أيما وقت شاء – ان ينزل الى الميدان ثلاثين الفاً معظمهم خيّالة . لكنه اصبح الآن تحت رحمة ابراهيم ، تحيط العساكر بعاصمته وقصره ، بينما تطوف بالجبل مفارز من الجند تنزع السلاح من شعبه . والباشا ابراهيم هو الذي يوفد ، من مقره العام ، هذه المفارز فتسرح في قرى الجبل جميعها . يدخل جنودها القرية فيعلنون على اهلها امراً بان يحملوا اسلحتهم فيلقوهـا في السوق ، في اجل معين ، وإلا تعرضوا لعقوبة الموت . فاذا وقعت ريبة بان السلاح خُبىء في مكان ، أجريت تحريات شديدة . ويلوح ان الاهالي انما اخذوا على حين غرة بهذا التدبير ، فلم تبدر منهم حتى الساعة بوادر مقاومة ، وليس بالمنتظر ان يقاوموا ، ما دامت صلات هؤلاء الجبليين باميرهم مقطوعة ، وما دام الوقت زحمهم زحماً فلم يجعل لهم مجالاً لاعتصاب [1] . لقد سجّل ابراهيم فوزاً في هذا

[1] لم تصدق هذه المطالعة لصاحب هذا الكلام . فقد ثار اللبنانيون على ابرهيم باشا ثورة قوية . – المعرب .

السبيل وكال للامير ضربة تركته مقعداً أشلّ.

« وشد ما كان عجيباً ان يرى المرء رجلاً عظيماً قوياً ، مثل ابراهيم باشا ، يعيش على زهد وضعة في منزل خاص في دير القمر ، بينا يعيش الامير الشيخ في قصره الفخم ، على بعد نصف ميل ، محاطاً بالأبهة والمباذخ الشرقية . وندر لانسان ان يتصوّر طلعة مشيخيّة أهيب من الامير بشير ...

« يوشك الرجل ان يكون في التسعين من عمره ، تنسدل على صدره لحية طويلة بيضاء بياض الثلج . ويوم لقيناه ، بدت لنا عليه سيماء أبوّة وهدوء ووقار : مظاهر لا شك انها كانت تتعارض تعارضاً مؤلماً وحقيقة شعوره يومذاك . كان يرتدي لباساً أنيقاً نفيساً مذيلاً بالفرو الاسود . ويشدّ وسطه بزنار من الحرير الكشميري ، شك تحته خنجراً مرصّع المقبض بالجواهر . اما أصابع يديه فكانت مكسوّة بالخواتم . وأقبل عبيد سود في ثياب قرمزية ، فقدموا لنا شبقات [١] للتدخين حليت ، حيث توضع في الافواه ، بحبّات بديعة من « الكهرباء » مطعمة جواهر . وقد امسك الامير في يده بواحد من هذه الشبقات الطويلة . »

١ جمع : شبق ، وهو اداة معروفة للتدخين . — المعرب .

جبل الكرمل مشارف البحر

يُفرض في هذه البقعة انها المكان الذي ابصر فيه خادم النبي إيليّا دنوّ السحابة. ارض الجبل هنا صخرية جداً، قفرية، قاحطة. ومع ذلك استطاع الرهبان ان يقيموا جنينة خلف الدير. اما المدينة الصغيرة حيفـا ، عند السفح ، فلا توفّر للمسافر إلا ملاذاً بائساً يلجأ اليه. ومن هنا كان السائح يتابع طريقه مغتبطاً الى الدير. وانه لدير اصغر من كثير من الاديرة اللبنانية، لكنه لا يقلّ عنها وسائل راحة. ومثله دير حريصا في لبنان، كلاهمـا ملك الارسالية الكاثوليكية: «الارض المقدسة» Terra Santa .

حقاً ان دير حريصا، الذي يبعد من عينطوره ساعتين، لبنـاء جميل فسيح يجد فيه الغريب ملجأ مريحاً وحفاوة وضيافة سخيّة. اما الرهبان الذين ينزلونه فعددهم قليل، مع ان فيـه اكثر من ثلاثين حجرة عـدا الكنيسة والمطعم والمطبخ وغرف اخرى. وموقعه بديع مطلّ على الشاطىء والبحر، وهواؤه منشط نقيّ.

ومن الاديرة ايضاً، في لبنان، دير بزمّـار، ينزله بطريرك الارمن. اذا وفد عليه الغريب وجد فيه ضيـافة انيقة، ورأى المائدة مزوّدة بالطيبات التي تدل على ذوق رهيف، وفي جملتهـا

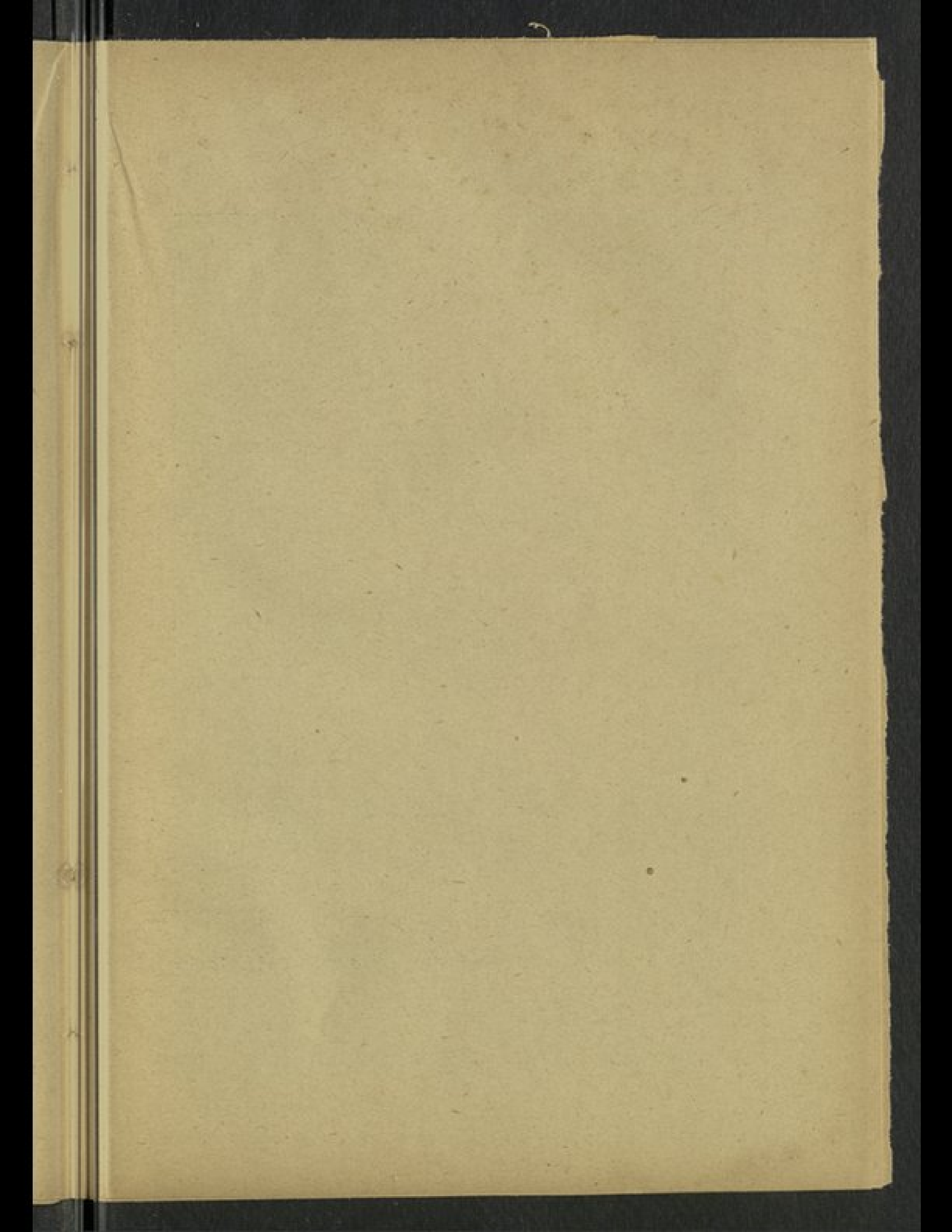
انواع شتى من الخمور ، معظمها رائع الطعم ، يؤتى بها الى المائدة بالتسلسل ، فتشهد بجودة الكروم والعصّارين . والاغلب على بزمّار انه مدرسة لاهوت لا دير للرهبان . وفيه نحوٌ من عشرين طالباً يتابعون دروسهم استعداداً لسلك الكهنوت . وتخلو سوريا وفلسطين من دير يعادل بزمّار في حسنه ونظافته . وليس في المؤسسات الرهبانية الاخرى رجال كرجال بزمّار كفاءة وتحصيلاً . إنهم اهل انس ونشاط وثبات .

بقي دير عين ورقة ، على بعدِ اربع ساعات من بيروت . هو مؤسسة مارونية يتعلم فيه الموارنة اللغة السريانية ويتهيأون للخدمة الدينية . يتجاوز عدد طلابه العشرين ، منهم السمعاني الصغير حفيد يوسف السمعاني الشهير مؤلف « المكتبة الشرقية » Bibliotheca Orientalis ومبعوث البابا في المجلس الملي الوطني الماروني المعقود عام ١٧٣٦ .

غادر هذا الرجل — يوسف السمعاني — صوامع لبنان في شبابه ، تلهبه حمية لارتياد كنوز العلم في أمات خزائنها . كان لبنانياً نبت من منبت وضيع . ويقال انه عمل راعياً يرعى اسراب الماشية على هضبات لبنان ، ويقترض الكتب اليسيرة من الدير المجاور فيقرأها في ساعات النهار الطويلة . وهنا في هذا الخلاء اللبناني ، الذي يناسب نشأة العبقريات المتوحدة ، اعد يوسف السمعاني نفسه للنجاح الذي ينتظره في الفاتيكان . ثم سافر الى روما ، فقُبل في المدرسة المارونية التي كان يخصها البابا كليمنت بعطفه وعنايته . فما اسرع ما استرعى هذا اللبناني نظر البابا ببساطته ومواهبه ، فجعله اول الامر



جبل الكرمل يشارف البحر



كاهناً من كهنة القديس بطرس . فدفن نفسه في مخادع العلم في الفاتيكان ، يوشك ان لا يترك لنفسه ساعةً يقضي فيها حاجة من حاجاته الزمنية ، او يحضر الاحتفالات الدينية في كنيسة القديس بطرس . شد ما كانت حياته نقية كحياة معظم المستغرقين في الكتب . وشد ما كانت روحه تولم الولائم ليل نهار ، بنهم لا يرتوي ، على مئات والوف من مجلدات يقوم بينها ويقعد وينام . ارز لبنان وبساتين برتقاله ومنابت سروه لم تكن لتتجلى في عينه بنصف ما تتجلى به من مجد هذه الغابات الكتبيّة التي تظلله في الظهيرة وتقيه عواصف الحياة .

وكان نجاح السمعاني في احراز العلوم سريعاً، رحب النطاق، حتى رُفع في وقت وجيز الى مرتبة الامير القيم على هذه الخزائن الادبية الغنية . وسارت له شهرة تجاوزت جدران الفاتيكان القديمة الى جملة اصقاع وجدت مؤسساتها العلمية فخراً لها بان تلحق بها اسمه المرموق . ثم عيّنه البابا قاصداً رسولياً في لبنان وزوّده بسلطة وصلاحية تامة لفض الخلافات وقمع البدع ومعاقبة الرافضين .

قضى السمعاني ، على اثر عودته الى لبنان ، اياماً مع ابويه الشيخين ، وكان اعتزازهما به عظيماً . واحتشد حوله اصدقاؤه وانسباؤه ، مدركين كل الادراك انه اصبح الآن يقبض بيديه على مفاتيح التقديم والتأخير . إلا انه حمل هذا المجد كله في اعتدال واتضاع . فقد كفاه ان حقّت امنيته العزيزة التي تمناها طفلاً . وظلت اخلاق طالب العلم وأذواقه هي الاخلاق والاذواق الغالبة عليه . ظلّ ، اذ يطوف في مسارح ايامه الاولى البسيطة ، يصادف

شبابة الراعي والكوخ والعراء الجبلي ، فيقارن بين هذه الاشياء التي خلّفها وراءه وبين منزلته الرفيعة الراهنة ، ويذكر قاعات الفاتيكان الفخمة ومجلداتها ومخطوطاتها النفيسة ، فينتابه الحنين . ثم لم يلبث ان عاد فاستأنف سيرته العلمية في روما ، لم يقطعها عليه بلاء او شغل بال . وكانت شيخوخته محفوفة بالتكريم والتبجيل . حتى اذا دنت نهايته ، لم يرغب مثل برزيلاي Barzillai « ان يوارى في قبر ابيه وامه . » فدفن في مقبرة روما ، وأسفه ان يفارق حياته المرمة ليس بأقل من اسفه ان يفارق كنوز الفاتيكان .

عكا

وجبل الكرمل على بعد

تحطمت القوة المتينة التي جعلت من هذه المدينة فيما مضى قلعة لا تؤخذ . تهدمت الاسوار التي كانت تدور بالسهل لتنطبق على عكا بابوابها الحديدية . هدّمها الحصار الاخير الذي ضربه عليها ابراهيم باشا مدى ستة اشهر دافعت فيها المدينة دفاع المستميت . فأصبحت عكا اليوم ، بعد تلك النظافة والمتانة وبحبوحة الازدهار ، ترتدي طابع دمار . حتى الجامع البديع الذي بناه الجزّار اصبح اليوم قيد الترميم مما لحق به من خراب .

يقوم هذا الجامع في وسط اللوحة ، صحبة هذا الفصل ، فيرتفع فوق سائر المباني اثراً من تسامح الجزّار الشرس وشاهداً على خشوعه . ولعل الجزار أراد يوم شيّده ان يكون نوعاً من كفّارة عن مآثمه الدموية الكثيرة . على ان الندامة والتوبة كانتا عاطفتين غريبتين عنه . وكان ، لو امكنه ، جديراً بان يلقى ملك الهول بانذار قاس شديد او بوسيلة تهديد .

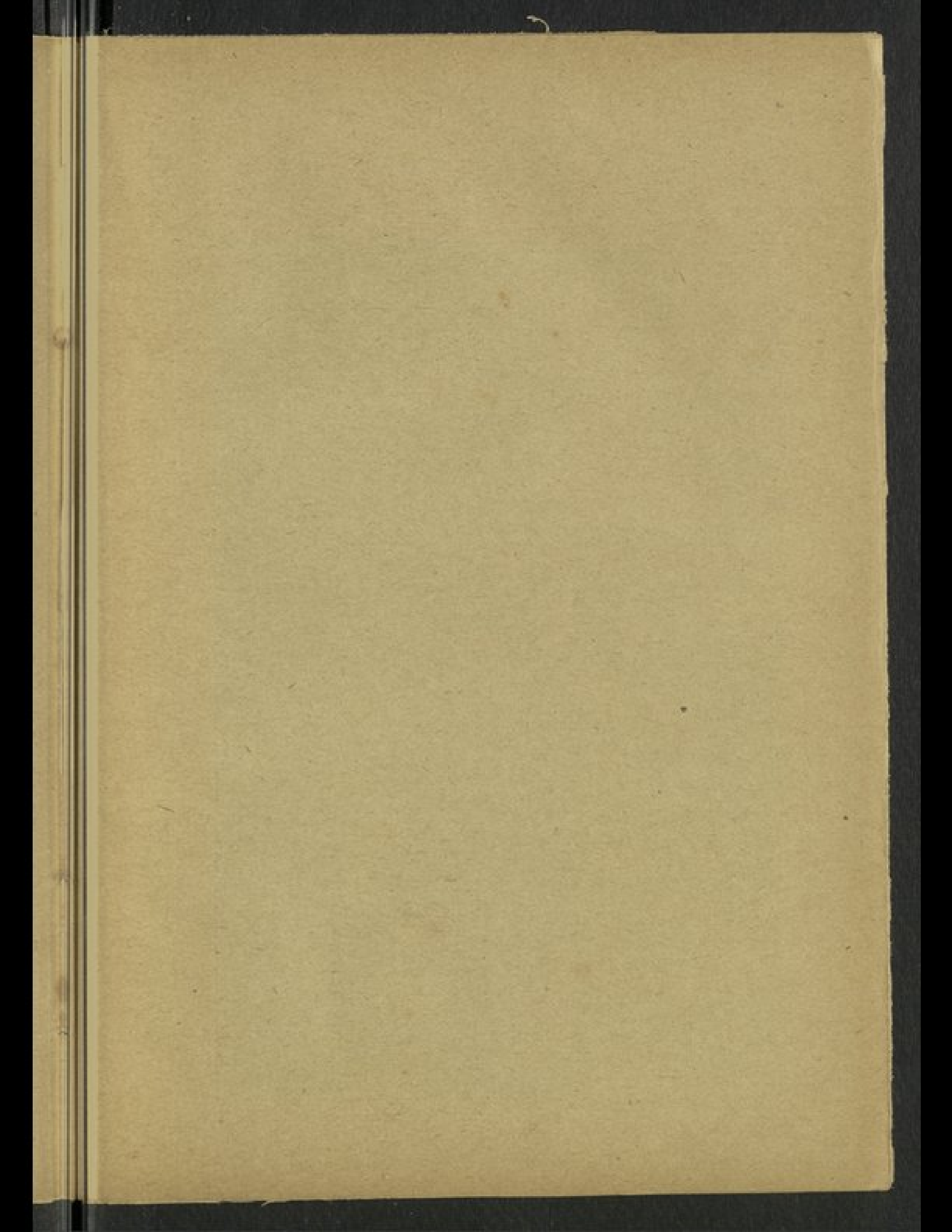
يظلّل الجمّيز والنخل ساحة هذا الجامع البديع ، وتثرثر في فنائه نافورة عذبة . هنا اعتاد الطاغية – كلما حلّ المساء فساق في ركابه النور العاتم الذي يحبه الاتراك – ان يقبل فيصلي في الاروقة

تحت القبة التي رفعتها يداه . هنا اعتاد الطاغية ان يشخص – ولا شك – الى السماء فيما بعد ، يومَ ينقطع به عمره المغموس بالدم والجريمة . اما اشباح الالوف الذين قتلهم غدراً منقوعين بدمائهم الباردة ، قتلهم بالفأس او بالسيف في السراديب متبسّماً اكثر الاحيان ، فهؤلاء لم يخطروا له ببال او يمثلوا له في ضمير ، فيكدروا عليه عبادته او يعكّروا آماله . حتى اولئك الاثرياء والنبلاء والفقراء والمقطوعين ، اولئك الذين لم يسلبهم الحياة فاكتفى بتشويههم : جدع انوفهم وشرم شفاههم وصلم آذانهم ، لو انهم اعترضوه على شاطىء نهر الظلام ، فاحتشدوا شاهدين عليه بالتنكيل الذي اوقعه بهم ، لزحمهم بمنكبيه ولشق في صفوفهم طريقاً الى بقاع الفردوس .

كان الجزّار في الجامع ورعاً تقياً جداً ، يتلو صلاته بصوت مرتفع حارّ ، ويسجد السجدات كلها بغيرة في العبادة كغيرة زاهد متبتل . ومات في فراشه مطمئناً غير مبالٍ ولا تائب ، في الثمانين من عمره ، « لم تصحب موته جوقات ، وبقي قلبه ثابتاً في ضلوعه . » وقد اتفق لكاتب هذه السطور ان سمع من السير سدني سميث انه جلس في مساء ما الى الجزّار في الديوان ، وكان هذا مغتاظاً لامرٍ ما ، فتوعّده خفية في معرض الحديث واشار اليه بان سجن الاميرال بل قتله اهون شيء اذا اراد الوالي . فأجابه سميث : « هذا صحيح جداً يا باشا . من السهل تنفيذ هذا الكلام . لكن أترى الى هذا المركب ؟ » واومأ السير سدني الى مركبه الذي يخفق عليه علمه في الميناء . « قبل ان تغيب الشمس ، تكون عكا اكداس رماد ! »



عكا وجبل الكرمل على بعد



الشارع الى يسار ساحة المسجد ، في الصورة ، جديد . والجدران المنقضة ، في مقدمة الصورة ، هي جدران القصر — لقد دمرت تدميراً . والمراكب في الميناء ، الى جانب البرج ، هي الزوارق الخفيفة المعروفة في البلاد . وحيال المشهد يبدو جبل الكرمل منحدراً الى البحر ، على قمته دير وفي سفحه مدينة حيفا الصغيرة . وفي هذا الجبل خضرة وغابات وتضاريس متنوعة لا تبدو على هذا البعد . لكن شكله في الجملة يمثل تمثيلاً دقيقاً .

وكثيرة هي اسر الاغنياء والاعيان التي كانت تقطن عكا . ذلك بان المدينة كانت عاصمة الولاية ، وكان السهل الواسع البديع خارج اسوارها لا يزال يزهو بتمارين الجنود في حضرة الباشا نفسه[1] ...

[1] ثم يستطرد المؤلف الى سرد حكاية يستغنى عنها . — المعرب .

خاتمة

كثيراً ما يبالغ في الاخطار التي تنطوي عليها رحلة في لبنان وسوريا وفلسطين . ولقد تضاءلت جداً – في الاعوام الاخيرة – نفقات مثل هذه الرحلة ومتاعبها . فهذا لامرتين ، في سفرته التي تجاوزت السنة ، اضطر الى إنفاق ثلاثة آلاف او اربعة آلاف ليرة استرلينية . ولا شك انه مقدار يزيد على المألوف المعتاد . إلا ان الشاعر الفرنسي اشترى جياداً جميلة جعل يتنقل عليها في موكب كموكب الامراء . وتلك خير طريقة لارتياد بلاد ما . على انها في الوقت نفسه اكثر الطرق تكاليف . فان سائحاً يسوح على هذا النحو ، يُنتظر منـــه ان يقدّم الهدايا الى المشايخ والولاة وحشمهم وخدمهم . ثم بالنتيجة ، قبض لامرتين ثمانين الف فرنك ثمن كتابه ، فلم يخسر في الواقع شيئاً .

لكن لا بد من الاعتراف ان مذكرات رحلته إنما هي اجود ما لدينا عن سوريا ولبنان وفلسطين . يصف الرجل المواقع وصفاً اميناً ، ورائعاً من الجهة الادبية . ولا إخال ان سائحاً ، حتى اليوم ، قد ارتاد لبنان بمثل هذا التحمس والاهتمام . ومع ذلك فلا يزال في هـــذه السلسلة النبيلة من الجبال شيء كثير لم يتم وصفه

وتصويره بعد .

توفر اديرة لبنـــان للزائر منزلاً مريحاً في اغلب الاحيان . لكن يجدر بالسائح ان يتحاشى الاديرة القشفة اذا كان همه النظافة . على ان بوسع المسافر ان يقضي ، في كثير من هـــذه الصوامع الرهبانية ، جملة ايام هانئة ، بين مشاهد لبنان الطلقة البديعة ، بمسمع من جرس الدير المبهج على كآبة نغماته .

وتقول اللايدي استير استانهوب إن المناخ على الشواطىء اللبنانية اصح مناخ اتيح لها ان تمكث فيه . وتشيد بهواء هذه البقعة اذ يهبّ على المنحدرات والجبال نقياً بارداً ، في جزء كبير من السنة .

ما اعذب الصباح الباكر في هذه المنـاطق ! يدعوك داعي الرحيل فتستيقظ للمسير ، بينا طلائع أشعة الشمس توشّح الآفاق بنورها البازغ . وشد ما يعترضك في طريقك ، قبل ان تضمحل السحب وينهار الظلام عن الاودية ، مشهد فريـد ظليل . تسمع قصبة الراعي ترسل صدحاتها على النسيم ، وتلتوي بك السبيل عبر مرقاة صعبة ، او تدخل بك في وهـدة ينصبّ فيها الشلاّل ، وربمـــا تسللت اليك اصداء الترانيم من دير قريب . حتى اذا ادركك الظهر استرحت في ظل شجرة او صخرة معلقة تعليقاً . فاذا كان المساء انتهى بك مسير نهارك الى استضـافة شيخ قرية ما او احد القرويين الاغنياء . فتكون العائلة كلها في خدمتك ، اذ ليس في لبنان عزل للنساء . تنبري الزوجة وبناتها ، في ألبستهن النظيفة وشعورهن المجدولة ضفائر جميلة ، فيهيئن بايديهن طعـــام العشاء . وربما عرّج على المنزل كاهن ، فانضمّ الى هذه الحلقة التي لا تعوزها النظافة حتى وسائل الراحة .

ومعظم الانحاء الواقعة على دروب لبنان مأهولة بالسكان . فلا يضطر السائح الى الانتظار او البحث طويلاً عن مكان يأوي اليه . ان المنحدرات اللبنانية لمرصعة ترصيعاً بالقرى الصغيرة ، وحولها ارض جيّدة الحرث مزروعة قمحاً او كرماً او زيتوناً او توتاً .

وقد يصدف ان رحلة النهار كان اكثرها موحشاً عبر وعور جرداء . فلشدّ ما يرحب السائح عندئذ بانتقالة ينتقلها الى مثل هذه الحلقة الصغيرة من الانس والراحة !

فهرست

انتهى طبع هذا الكتاب على مطابع نصار
في اليوم الثامن والعشرين من كانون
الاول سنة الف وتسعمائة وثمان واربعين

الثمن